٢١٧,٩
س ن

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
قسم التفسير وعلوم القرآن

جامعة القرآن الكريم
والعلوم الإسلامية
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
رقم القيد ... التاريخ ...

تفسير موضوعي لسورة النمل

رسالة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة : سعاد صالح أبو شوشة

إشراف : د. السّر محمد الأمين

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية
عمادة شؤون المكتبات
مكتبة الوسيط الجامعية
رقم القيد ٩٠٥
المصدر إيداع التاريخ ٢٠٠٩

لعام ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

قال تعالى:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

الإهداء

إلى المجاهدين في سبيل العلم من أجل العلم،
طالبين ذلك ابتغاء مرضاة الله، إلى المحاربين
الغيورين لأجل رفع وتحقيق:

((لا إله إلا الله محمد رسول الله))

أعانكم الله على الجهاد بالفكر والكلمة، وجعل كل
حرف في ميزان حسناتكم.

إلى من أسعوا طفولتي، وصباي، وشبابي، إلى
إخوتي، وأخواتي.. أهدي باكورة جهدي.

سعاد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون " " يا أيها الناس اتقوا ربكم ، الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا " " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً . [1]

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، الحمد لله حمداً كثيراً وإن تضاءل دون حق جلاله حمد السنين والدهور ، والصلاة والسلام على رسله صلاة أخصها المبعوث فينا وإن شابها القصور ، واستخيره تعالى فيما عزمت عليه من إفصاح عمَّا في نفسي من تعظيم للجليل الغفور ، واصطحب سيرة الأنبياء الأخيار ، تطهيراً لسرائر ذوي البصائر في أهم الأمور .

وبعد :

---

[1] - خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه ، تحقيق وتعليق الشيخ / ناصر الألباني رحمه الله . قال : هذه الخطبة تفتح بها جميع الخطب ، وأيد ذلك عمل السلف الصالح فكانوا يفتتحون بها كتبهم ، فلتحفظ ، وتفتتح بها الخطب والمقالات ، عسى الله أن يحقق أغراضهم بسببها ، وفي ذلك سنة حسنة . ص(٣، ٣١، ٣٤) .

فالحمد لله الذي جعلنا مسلمين ، وميزنا بالعقل والإدراك والدين ، ودلنا على الطريق المستقيم ، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، فنسأله أن نكون هادين مهتدين ، وكلفنا بمعرفته معتبرين بما بين أيدينا وما خلفنا من دلالات وبراهين ، مدينين له بحقوق يلزمنا القيام بها ، مظهرين عبوديتنا ، وإذعاننا له خاضعين طائعين .

لقد خلق الله آدم عليه السلام ، ونفخ فيه من روحه ، وميزه بالعقل ، وهيأ له سبل عيشه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وأمره بحمل أمانة التكليف ، واستخدام العقل كمرشد يدله على آيات الله في الكون ، فتطهر الروح وتسمو ، وتذعن ، وتعبد الله راضية مرضية .

ولم ينل آدم عليه السلام هذا الشرف الرفيع ، وهذه المنزلة السامية إلا بعد أن نفخ الله فيه الروح وهذا دليل على أن الإنسان لم يبلغ المكانة العالية ، وعلو الشأن ، والرفعة في الدنيا والآخرة إلا من النفخة التي من روح الله الوهاب المنعم المتفضل ، التي وهبها للإنسان ، والتي سمت بروحه . فمن سما بروحه قضى حياته في طاعة الله وعبادته ، كان هو صاحب المرتبة الرفيعة ، ولو كان من أفقر الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((ربَّ أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرهُ))[1] . ومن نكب عن الطريق ، ومتّع الجسد ، واتبع لذائذ النفس ، فهو الإنسان الوضيع ، الذي لا يستحق المكانة عند الله . وكل هذا مرده إلى استخدام العقل ، والنظرة الثاقبة . وإن الحياة قصيرة ، وهي دار فناء ، وبلاء ، أما الآخرة فهي الباقية ، وهي دار الخلود ، والبقاء ، ولا يرى ذلك إلا بنور البصيرة ، وتلك هي الخاصية التي خولته أن يكون خليفة لله في الأرض ، وهيأه أن يكون جديراً بفرض سلطانه عليها ، وبسط نفوذه فيها بسبب العقل ، الذي عن طريقه تتم عملية التعلم ، وإدراك ملكوت السماوات ، والأرض ما لم يدركه غيره .

---

[1] - مختصر صحيح مسلم (١٩٧٢)

قال تعالى : " وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم "[١]

فضل الله آدم على غيره من المخلوقات ، فإن صان النفس ، ونزه الروح قاده ذلك إلى معرفة الله فتمكن الإيمان من قلبه . وإن أهمل العقل ، خبثت روحه ، وتاه ، حتى يصل إلى الدرك الأسفل . قال تعالى : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "[٢] فالعقل يقود الإنسان إلى التفكر ، والتدبر وهما يقودان إلى الإيمان ، والإيمان يحصل به العلم اللدني ، الذي يدعو ، ويمكن من استخراج العلوم التي تفيد البشرية ، مما يريد الله للإنسان أن يكون بها خليفة للأرض ... ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث .

أهمية البحث :

لابد للإنسان من الاتصال بكتاب الله ، المنزل إليه ، ومداومة مدارسته ، والتفكر والتدبر في آياته ، والتفاعل معها ، والحث على حفظه ؛ لأن في الحفظ انشغال القلب بمعاهدته فينصرف العقل إليه ، فتسمو الروح ، وتتجه لمعرفة الكون من حولها ، فيؤدي ذلك إلى تعظيمها للخالق ، وفي تعظيمه الطاعة لأوامره ، والاجتناب لنواهيه ، فيتفتح البصر ، وتنيره البصيرة ، ويتقد العقل بالعلوم الربانية ، فيبحث عن كل صغيرة وكبيرة في كتاب الله ، وتعلو الروح لتعلم مراد الله من

---

[١] - سورة البقرة الآيتان (٣١،٣٢) .

[٢] - سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

العلوم المفيدة التي تنفع البشرية ، وتحصل بها العلو والرفعة للإنسان المؤمن الذي جعله الله خليفته في الأرض .

أسباب اختيار الموضوع :

لابد لتالي كتاب الله المتدبر من المحاولة لإيجاد ربط بين السور وأسمائها ، والآيات بعضها ببعض ؛ لاستخلاص الحكمة الربانية التي غالباً ما تكون منطوية في المعاني البعيدة التي يتوصل لها المؤمن المؤيد بالوحي الإلهامي ، ليبرز خفايا الأمور . فكان اسم السورة جاذباً للبحث عن العلاقة بين اسم السورة ، والحكمة من إبراز اسم النملة ، والتي لم تشمل إلا جزءاً يسيراً من الآيات ، كما أن دورها لم يكن بأعظم من دور الهدهد الذي خاطب سليمان عليه السلام ، وكان جريئاً في مخاطبته ، حكيماً في رده ، فلا بد من حكمة وراء تلك التسمية .

اشتملت سورة النمل واحتوت آيات تقرع القلوب الميتة فتحييها ، وتدخل القلوب المؤمنة فتنيرها . فهي آيات تبرهن على عظمة الله ، وقدرته في أسلوب هادئ في سياقه ، مؤلم ، محزن ، قوي في معاتبته . لقد خلق الله الآيات ، والعلامات ، والدلالات الدالة عليه فلا ننتبه حتى يشير إليها ثم يعقبها بسؤال ، إذا وصفته في أوسع مجال لوسعه ، يمكن أن نسميه (إنكاري ، تهكمي ، تقريري ، يدل على الشفقة ، يدل على الرأفة) في صيغة يمكن أن تكون هادئة على النفس المؤمنة ، شديدة على النفس الكافرة ألا وهو قوله تعالى : " أ إلهٌ مع الله " فلا يمكن لمخلوق أن يقرأ هذه الآيات وتمر عليه دون أن تؤثر في نفسه ، فلابد فيها من وقفة .

وقصة صالح عليه السلام كان لها حظاً من هذه السورة ، وقد شاء الله ويسر أن حظيت بمشاهدة منطقة الحجر ، ورأيت بأم عيني قوله تعالى : "وتنحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فارِهِينَ" ووقفت وقد حمدت الله أن أراني آية من آيات الأمم السابقة ، وليس السامع كالمشاهد ، ودار في خلدي : كيف تمكن أولئك القوم من اختراق الجبال ، ولم يسمحوا للإيمان أن يخترق قلوبهم ، وكيف منَّ الله عليهم من الخيرات ، ولم يشكروا ، وإن تعجيل الله لهم العذاب في الدنيا ما استحقوا جزاء كفرهم بأنعم الله ، ولا يزيد الله الظالمين إلا خسارا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وأخيراً أكثر ما كان يحزُّ في النفس أن أرى المسلمين اليوم في حالة انبهار بالاكتشافات العلمية الغربية ، وقد نسوا أن الله أمدَّ أنبياءه الكرام وأيدهم بالمعجزات الباهرات الخالدات ، والتي لم يقوى الإنسان على مثلها ولن يقدر إلى الأبد . لهي جديرة بالتعجب والدهشة ، والدراسة ؛ لتبين للعالم أجمع أننا نستمد منها قوة إيماننا في البحث ، والعلم الرباني ، الذي لا تشوبه شائبة ، ولن تخيب نتائجه بإذن الله .

وإنه ليؤرقني ضعف وعجز المسلمين ، وتسليمهم بالهزيمة العلمية أمام الكفرة ، والملاحدة ، وكأنهم كُتِب عليهم العجز والتسليم كشيء أزلي لا مناص منه ، والدوران في رحاهم مُسَلِّمِينَ بذلك . فلنتذكر أن الله قد وعد بالسيادة للمسلم ، المؤمن ، المعظم لكتابه المصدر الأول ، وسنة نبيه الكريم مصدرنا الثاني ، ففيهما خَتم للديانات ، ومحتوى المعجزات ، واستنباط العلم منهما ، فكما كان المسلم هو من أصَّلَ العلوم ، والحضارات ، وإن كل نظرية غربية تحمل بين حناياها جوهر الكفر ، ومعارضة للفطرة ، تدحض الحقائق التي جاءت بها الآيات القرآنية ،

ودعا لها الإسلام . وانَّ علومهم و إنْ طورها فهي مما أخذوه من المسلمين والعرب من أساسيات كل علم ، من فلك وطب ، وعلوم ... وغيره . فلماذا الفتور والتقاعس ، وعدم الإخلاص في سبيل نشر العلم الرباني ؟؟!!

أهداف البحث :

١ - رجوع الفرد المسلم إلى نفسه ، وإعادة ثقته بها ، وارتباطه بكتاب الله ، فهو الحبل المتين ، والعروة الوثقى .

٢ - الاتجاه إلى العلم والبحث ، وتجلية الإعجاز العلمي الذي وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه ، وإبراز ما فيه من علوم لا تتنافى مع شرعنا الحنيف ، مع الذل والخضوع لله تعالى .

٣ - عدم الانبهار بالعلوم الفاسدة التي مصيرها إلى الزوال (كالأستنساخ ، أطفال الأنابيب) فمثل هذه العلوم لا تتفق مع الشريعة السمحاء ، ولأن مصيرها إلى الزوال ، لأن الله خلق الإنسان ليكون خليفته في الأرض ، ولابد أن تتفق الخلافة مع شرعه ، ولا تتعارض معه ، حتى لا يزيغ الناس عن الصراط المستقيم .

٤ - أن الإنسان أين ما كان ، وكيفما كان مؤهل لأن يكون خليفة في الأرض باختراعاته ، ومكتشفاته ، وحسب اجتهاده ؛ مما يجعله يستطيع الوصول إلى معرفة الله _ بخلاف الكافر المشرك _ وتمكن الإيمان في قلب المسلم ، هذا إن كان علماً نافعاً ، وإما إن كان ضاراً معارضاً للشرع ، فهذا من باب عدم تحمل الأمانة ، وعدم صيانتها ، فهي عقوبة للمسلم العاصي الذي تنكب الطريق على يد الكفار ، والملاحدة .

منهج البحث :

١ - لقد تناول البحث السورة القرآنية المذكورة ، دراسة موضوعها ، من خلال استغلال السورة بذاتها ، وبيان هدفها ، وما ترمي إليه مع محاولة اكتشاف معاني دقيقة ، ونكت لطيفة ، مع بيان مقاصد السورة ، وأهدافها ، وصور الإعجاز فيها .

٢ - وقد قمت بتفسير الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً في كل جزء من السورة ، ثم كتبت رؤية عامة مما دار في الآيات الكريمة .

٣ - مع أن التفسير موضوعي للسورة إلاَّ أن هناك ضرورة استوجبت الجمع بين عدة آيات من سور أخرى لتكملة الصورة ، كذلك هناك كلمات ، وتعابير تطلبت البحث والتدقيق ، ذكر بعض القراءات ، وأوجه الإعراب بمقدار صلتها بالموضوع .

٤ - جمعت بين عدة صور من التفسير الموضوعي ، وذلك للضرورة فمثلاً : القصص ؛ كان لابد أن أتعرض للقصة كاملة حتى تتابع الأحداث بشكل موجز ، ثم استخلص منها العظة ، والعبرة لذكرها ، والعلاقة التي جمعت اختصاص السورة بذلك ، فكانت تتلاقى صور التفسير الموضوعي الثلاث في موضوع واحد للتوضيح ... وأحياناً أكتفي بالآيات الواردة في السورة فقط .

٥ - هناك آراء تتطلب الاستقراء ، والعرض ، والاستدلال ، والترجيح في آراء العلماء ، فقمت بعرضها ، والوصول فيها إلى غاية ما أمكن ذلك .

٦ - برزت أهمية هذا البحث في ثلاث أشياء :

أ - العلم ووجوه التطور الحديث مقارنةً مع الإعجاز القرآني الرباني ، الذي لا يستطيع عليه الإنسان مهما بلغ من علم و تطور .

ب _ أهمية دور القرآن في مواكبة التطور العلمي مع كمال الإيمان .

ج - خلافة الله للإنسان في الأرض رسالة كل فرد .

٧ - بحثت في ربط الأجزاء المختلفة من السورة ، أو كل جزئية مع الأخرى ، أو بين الآيات ورؤوس الآي ، وبيان المغزى الواحد الذي مرده الإيمان والعلم .

٨ - بينت مراحل تدرج السورة كمنهج دعوي رباني من الله سبحانه وتعالى ل، تعليم الدعاة منهج الدعوة في السورة وكان كالآتي :

ملخص للغرض من الدعوة ، عرض الأمثلة من الأمم السابقة ، بيان آيات الله في الكون كدليل على وجوده ، تسلية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واحتساب الأجر في سبيل الله ، نهاية المطاف ، والرجوع إلى الله للحساب، وتلخص في خطوط عريضة :

أ - التمهيد للدعوة .

ب ـ ضرب الأمثال .

ج - الترغيب في الأجر .

د - الوسائل الموصلة للإيمان (مساعدة المدعو) .

هـ - الاحتساب من الداعية .

و - الترهيب بالتهديد والوعيد .

ي ـ المآل إلى الله .

٩ - رجعت إلى أمهات التفاسير ، وحاولت الجمع بينها وبين المحقق منها ، وأضفت من بعض التفاسير الحديثة وخاصة الدعوية ، لتوضيح قضية الإيمان ، وكثيراً ما كنت أضيف آيات حسب مناسبتها للمكان الذي وضعتها فيه ، بعد إسناد الكلام إلى قائله ، وإثبات المرجع في الهامش

، وأكتب قول الباحث ، ولم اجنح للأخذ المباشر من الكتب نصاً إلا قليلاً .

١٠ - قمت بتخريج الأحاديث من مظانها ، وترجمت لبعض العلماء، ممن تكرر ذكرهم ، وعزوت الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية . وفي المواضيع العامة جمعت بين آراء العلماء من المفسرين ، والباحثين المعاصرين في بعض القضايا الهامة ، كالسحر ، والتعليق على القصص القرآنية .

وقد قسمت مادة البحث من المقدمة والتمهيد ، وثلاثة أبواب ، كل باب يحتوي على ثلاث فصول أو اثنين ، وكل فصل يحتوي على ثلاث مباحث أو اثنين على حسب الموضوعات التي تعني بجانب واحد ، وارتباطها بالموضوع ، شملت الخاتمة ثم الفهارس .

المقدمة : وقد بينت فيها أهمية البحث ، وأسباب اختيار الموضوع ، وأهدافه ، ومنهج البحث ، وخطته كانت كالتالي :

الباب الأول : الإعجاز إيمان وعلم .

الفصل الأول : بيان حال المؤمنين .

١ - المبحث الأول : تسمية السورة بسورة النمل .

٢ - المبحث الثاني : ذكر الحروف المقطعة في أوائل السور .

٣ - المبحث الثالث : الإيمان قول وعمل .

الفصل الثاني : القصص في القرآن ، والحكمة منها .

١ - المبحث الأول : أنواع القصص وأسباب تكرارها .

٢ - المبحث الثاني : تعلم سليمان عليه السلام منطق الطير وجندية الإنس والجن له .

٣ - المبحث الثالث : هل التعامل مع الجن اختص به سليمان عليه السلام أم سائر البشر

الفصل الثالث : العبر والعظات من ذكر قصص الأنبياء .

١ - المبحث الأول : قصة صالح عليه السلام ، والعبرة فيها .

٢ - المبحث الثاني : قصة لوط عليه السلام ، والعظة منها .

٣ - المبحث الثالث : أ - أسباب تكرار قصة موسى في القرآن .

ب - مناسبة القصص لما قبلها .

الباب الثاني : الآيات الكونية ، وعلاقتها بالإيمان .

الفصل الأول : مقارعة القرآن المشركين بالحجة .

١ - المبحث الأول : لخلق السماوات والأرض أكبر عند الله .

٢ - المبحث الثاني : روعة الأسلوب والأداء البياني في ربط الآيات بخواتيمها .

الفصل الثاني : الإنسان أمام التحديات .

١ - المبحث الأول : خطاب الله ، وتوجيهه لرسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ - المبحث الثاني : القرآن هدىً ورحمة للمؤمنين .

الباب الثالث : مقاصد الشريعة في سورة النمل .

الفصل الأول : الإيمان بالغيبيات.

١ - المبحث الأول : أ - خروج الدابة .

ب- النفخ في الصور .

٢ - المبحث الثاني : أ - الترغيب والترهيب من وسائل الدعوة .

ب- خلافة الله للإنسان في الأرض

الخاتمة :

وفيها خلاصة البحث والنتائج .

ثم قائمة بالفهارس . ولله الحمد والمنة .

تمهيد

قال تعالى : "الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم" فقد أراد الله لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكون أميّاً قبل أن يكون ، وأراد أن تكون معجزته علمية حتى تليق بها صفة الإعجاز ، ومن الإعجاز أن تكون معجزة العلم على يد نبي أميّ .

و شرطها الأيمان ، والتقوى . ومما لاشك فيه إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حبيب الله وخليله ، وقد تجلى حبه لله في طاعته له ، وتجريد نفسه من حب الدنيا وملذاتها غير مغالياً في ذلك . فقام الليل حتى تفطرت قدماه ، وذكر الله حتى تشققت شفتاه ،و صبر وتجلد في طاعة مولاه ، وما لاقى من أذى ممن عاداه .

كان حب الله أحب إليه من نفسه ، حمل الأمانة ، وأدى الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاد ، عبد الله فأخلص العبادة ، وبلغ ونصح في تجرد وأمانة ، وخاض حروب الجهاد مقدماً روحه رخيصة في سبيل الله ، ونشر دعوته ، وحباً في ملاقاة حبيبه سبحانه وتعالى .

اختاره الله سبحانه وتعالى من عباده ، وهيأه ، وأعده لحمل الأمانة ، فيسر له حفظ القرآن ، كلام الله ، من غير علم . وحفظه من عبادة الأصنام ، وشرب الخمر ، وقرض الشعر . وعلمه الصدق والأمانة ، والإخلاص في العمل ، فتميز عن بني جيله . حرم الوالدين فكمل حبه لله ، ثم عطف الله سبحانه وتعالى عليه ، ووهبه الحكمة والعدل ، وأعطاه جوامع الكلم والفصاحة ، والبلاغة ، والحنكة والدهاء ، وألهمه الحمد والشكر في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . كريم من طبعه الإثار ، ناصح ، عطوف ، شفوق ، حليم ، ودود ، متوكل ،

ملجأه ورجاه الله تعالى أولاً وأخراً ، أمين في تبليغه ، وفي أتمنَ عليه ، وفي الفصل في حقوق الناس بعضها لبعض ، لا يتحامل ، ولا يحابي ، ولا يميل ولو كان ذا قربى ، كان خلقه القرآن . لم يخرج عن مستوى الاعتدال في أحواله الجسدية ، والعقلية ، والنفسية ، ولم يكن يقف مع قومه على قدم المساواة أمام سلطان الله وقدرته ، وتقديره ، وتدبيره ، ولكن الله فضله عليهم بفضله وإحسانه ، فكان آية من آيات الله ، كان قرآناً يمشي على الأرض بين الناس ، فتشع منه أنوار الهدى ، كما تشع أنوار الحق من آيات الله .

لو أراد الله أن يتخذ الأنبياء من الملائكة لجعلهم على الأرض يمشون ، ولكن الله أراد للناس أن تتعلم كيف يربي الإنسان نفسه ، وكيف تحلى بالإخلاص والتقوى ، أعطاه الله العلم والحكمة في الدنيا ، وكان له الأجر والمثوبة في الآخرة . فتربية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم هي سنة الله في الأرض التي أراد للإنسان أن يتبعها ، فيربي نفسه بها ، قال تعالى : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " .

المعجزة والإعجاز :

والإعجاز : هو ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ، ومزاولتها ، على شدة الطبع الإنساني ، واتصال عنايته ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه .[1] وهو إثبات العجز ، للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعْجِز ، وهو إظهار صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة ـ وهي القرآن ـ وعجز الأجيال من بعدهم .[2]

---

[1] - إعجاز القرآن / مصطفى صادق الرافعي ، ص١٣٩ .

[2] - مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، ص٢٦٥ .

والمعجزة واحدة من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وأعجزه الشيء فاته ، وعجزه تعجيزاً ثبطه أو نسبه إلى العجز .[1]

والمعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة .

والقرآن الكريم تحدى به النبي صلى الله عليه وسلم العرب ، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم في الفصاحة والبلاغة ، ومثل هذا لا يكون إلا معجزاً .[2]

وأيد الله رسله بالمعجزات ، لآية من الآيات الدالة على قدرة الله ، ودليل على رسالة ذلك النبي بعد تمحيص وابتلاء وصبر من ذلك النبي المرسل . وقد أراد الله لهذا القرآن أن يكون إعجازاً في استخراج علومه بعد أن كان إعجازه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم في ما اشتمل عليه من فصاحة الألفاظ ، وسلامتها مما يشينها ، والإعجاز البياني[3] والبلاغة والكلام[4] .

والقرآن كله معجزة ، والذي يهمنا جهة التأويل ، والتفسير ؛ لأنه سبب كشف علومه لفهم معانيه والوصول إلى مراد الله منه ، مما يواكب سير الحياة إلى الأبد . وقد بلغ العرب في عقد القرآن وتربيتهم به من الفصاحة والبلاغة والعلم ما لم يبلغه أحد في التاريخ .

جاء في تفسير العلامة داود الأنطاكي[5] عند ما فسر قوله تعالى : "ولَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ

---

[1] – مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، باب عجز ، ص٣٦٤ .

[2] – مباحث في علوم القرآن / مناع القطان ، ص٢٦٥ .

[3] – دلائل الإعجاز / الباقلاني (قول عبد القادر الجرجاني) .

[4] – الخطابي ، ت : ٣٨٨ هـ – الفخر الرازي ت : ٦٠٦ هـ

[5] – من علماء القرن الثاني الهجري ، المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ .

(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ "[1]

قال : قال جل من قائل : " ولقد خلقنا الإنسان " : يعني إيجاداً واختراعاً لعدم سبق المادة الأصلية .

" من سلالة " : هي الخلاصة[2] المختارة من الكيفيات الأصلية بعد الامتزاج ، بالتفعل الثاني ، مما ركب منها بعد امتزاج القوى والصور ، والتنويه باسمه (المقصود كلمة إنسان) ..

ولا ننسى أن الآية نزلت على نبي أميّ ، في قوم لا يعرفون كثيراً ولا قليلاً من علم التشريح ، أو علم التكوين ، أو علم الأجنة ، ثم إنها كذلك ليس في صناعتها البيانية شيء مما تحسن به البلاغة _ فيبين بنفسه ، ويجعل للكلام شأناً في تميزه ، واستخراج معانيه ، كالاستعارة ، والكناية ، ونحوها _ ولكنها قائمة على دقائق التركيب العلمي ، والملائمة كل الملاءمة بينها وبين دقائق التعبير ؛ ففيها إعجاز في المعنى ، ثم إعجاز في الصورة ، مع أنها في عرضها وسياقها مظنة أن يكون فيها من ذلك شيء ، إذ هي عبارة علمية تسرد سرداً على التقرير والحكاية ؛ هذا مما يسمو بإعجازها سمواً على حدة ، فإنه يضع فوق البلاغة ما تكون البلاغة في العادة والطبيعة فوقه .... وقوة الفهم ، والتعبير تؤدي إلى قوة الدلالة فيه لتهيأ للأمم وسائلها العلمية دليلاً من أقوى الأدلة على الإعجاز .[3]

ونخلص من هذا إن الإيمان يأتي بالإلهام الرباني الموصل إلى العلم الرباني الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : ((العلماء ورثة الأنبياء)) أي : أن الله يلهمهم (الوحي الإلهامي) والحكمة

---

[1] – سورة المؤمنون الآيات (١٢ – ١٤) .

[2] – قالوا هي الخلاصة لأنها تسل من الكدر ، وهذا الوزن فُعالة بضم الفاء ، يبنى للقلة : كقلامة الظفر وغيرها .

[3] – إعجاز القرآن / الرافعي ص (١٣٤، ١٣٥) .

والعلم بعد صفاء السريرة ، وتفريغ العقل من ملذات الحياة ، والإخلاص في العمل ، وصدق النية في التوجه بالعلم لله .

والمتفكر في معجزات الله ، لا تبهره الاكتشافات الحديثة ، ولا يُعَظِّم القائمون عليها ؛ لأنها من صنع البشر ، والقائم بها كذلك . بل التعظيم لله الذي خلق من المعجزات ما لا يمكن أن يقدر عليه بشر . فالعظمة والتجلي وصفة الكمال لله سبحانه وتعالى . وأنه مهما علم الإنسان ، وطوَّر علمه للبشرية ، فهو علم من ميراث الله الذي جعله للإنسان ليكون به خليفة في الأرض ، يعيش فيها ، ويستخدم مكوناتها فيما يقبله العقل ، ويقره الشرع . وظهور بعض العلوم المنافية للشرع ، وتطويع المسلمين للشرع مجاراة لتلك الاكتشافات ، والقول بأنها في القرآن مثال (النسخ) فهذا ضعف وتهاون ، ووضع العلم في غير محله ، وإنما استسلام وانقياد بسبب العجز عن التفكير والدوران في فلك الأمم التائهة في هذا الزمان .

وخير مثال لهذا أن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، فقد ذكر في قصة صالح عليه السلام وقومه ، قال تعالى : " وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ " وطالما أن الله امتن عليهم بها ، فلا بد أن يكون أمرها عجب .

فمنطقة الحجر جدير بالمسلمين أن يتخذوها آية ومعجزة في زمانها إلى يومنا هذا ، لم يكن لدى أهل الحجر أي من المؤهلات العلمية أو الهندسية أو الآلات حتى يبرزوا ذلك النحت الرفيع ، والقوة الجديرة بالامتنان من الله لنحت تلك الصخور . وبدل أن يتحدث العالم كله عن الأهرامات التي بنيت بيد الإنسان ، كان الأحرى أن يعجب من تلك المباني الثمودية في الحجر ،التي فيها من الإعجاز ما يظهر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ويتأمل كيف لهذا الصخر الأصم أن يصبح لينا كالعجينة يتشكل بهذه الأبنية العجيبة ، والتي هي أصل ذلك الفن ، حيث أخذه عنهم الفراعنة .

فلنعلم أن الله حين أراد للإنسان أن يكون خليفته في الأرض ، أعطاه من جميع العلوم ، والفنون لشيء طبعي في داخله ، وجعل استنباط علمها إما بعد الإيمان فتكون نعمة ، وإما مع الكفر فتكون نقمة ووبال عليه وعلى البشرية من بعده .

فمنطقة الحجر بوصفها الذي وصفه القرآن ماثلة أمام المسلمين والكفرة ، شاهدةً على صدق ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن أي كلمة في القرآن تكذيبها كفر ، فذكر الله في آياته ، قال تعالى : "وتنحِتُونَ مِنَ الجبالِ بيوتًا فارِهِينَ" في طريق عودة المسلمين من تبوك إلى المدينة مر المسلمين بالحجر ، وهي ديار ثمود الذين امتحنوا بالناقة فنحروها فأخذتهم الصيحة لعتوهم وعصيانهم . وقد سارع الناس إلى دخول بيوت الحجر ، فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم [1] وقال : ((لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين)) ثم قنع رأسه ، وأسرع السير حتى أجاز الوادي [2] وهذا دليل على أن هذه هي منطقة الحجر نفسها .

كما نهاهم عن شرب الماء من بئرها أو الوضوء منه ، وأن يعلفوا إبلهم ما عجنوه من عجين بمائها [3] وهذا دليل على تحريمها .

(فارهين) أي : حاذقين بنحتها ، (ونخل طلعها هضيم) موجودة إلى الآن ، رطب ليس له نوى . لقد ذهب قوم ثمود وتركوا ورائهم منطقة ذات خير عميم من ثمار مختلفة ، وجبال شامخة منحوتة بالنقوش والكتابات ، وشكل ما كانوا يعبدون ويقدسون على واجهة المداخل لكل بيت . والمقابر ذاتُ الواجهات المعمارية الضخمة المنحوتة بدقة ، بالإضافة إلى أساسات

---

[1] – مسند أحمد (٤/٢٣١) بإسناد حسن ، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٥/١١) وقال : إسناده حسن ، وصححه الحاكم في المستدرك (٢/٢٤٠،٢٤١) ووافقه الذهبي . * السيرة النبوية الصحيحة /د. أكرم العمري (٢/٥٣٥) .

[2] – صحيح البخاري ، فتح الباري (٨/ ١٢٥) . * المرجع السابق .

[3] – البداية والنهاية لابن كثير (٥/١١) بإسناد حسن إلى العباس بن سهل بن سعد الساعدي مرسلاً . المصدر السابق .

في أنقاض المباني في السهل والآبار . وهذه الآثار تبرهن أن منطقة الحجر كانت واحة خصبة ، قد مدهم الله فيها بكل خير فجحدوا بها فأهلكهم الله .

كذلك هناك محلب الناقة ، والصخرة التي خرجت منها الناقة ، والصخرة التي دخل فيها الفصيل .

وبالرغم من كل الشواهد التي تتفق مع القرآن قالباً ،ومضموناً ، فمن عجزنا عن البحث العلمي الجاد في تاريخ هذه المنطقة ، فقد زعم علماء الآثار نسبة هذه الحضارة إلى الأنباط مع أن الله تعالى يقول : " أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى " [1] وقال تعالى : "وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين " [2] وبذلك يكونوا معارضين للقرآن في عدم نسبته هذه الآثار لقوم ثمود ، وقد يسر الله لبعض طلاب العلم جزاهم الله خيراً ، فبدءوا بالبحث والاستقصاء ، وتحدثوا عن موافقة القرآن لما في المنطقة وأنها آثار قوم ثمود لما فيها من العبرة ، ولو لم تكن لقوم ثمود فأين العبرة في ذلك [3] فلننتبه ذلك .

---

[1] – سورة طه الآية (١٢٨) .

[2] – سورة العنكبوت الآية (٣٨) .

[3] – يمكن الرجوع لشريط قراءة جديدة في آثار مدائن صالح /للشيخ عبد الكريم الغضية .

الباب الأول :

الإعجاز إيمان وعلم

الفصل الأول : بيان حال المؤمنين .

الفصل الثاني : القصص في القرآن الكريم .

الفصل الثالث : العبر والعظات من قصص الأنبياء .

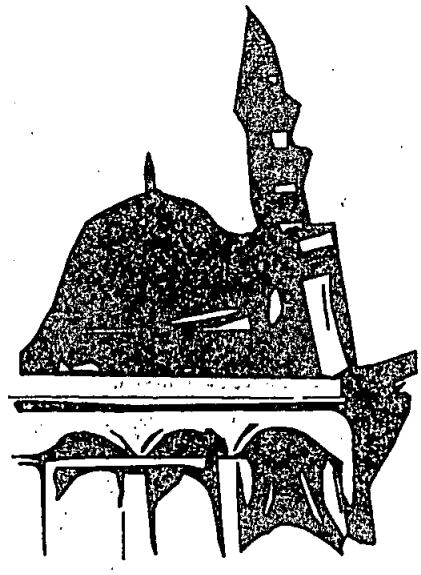

الفصل الأول :

بيان حال المؤمنين .

المبحث الأول : الحكمة من تسمية السورة بسورة النمل .

المبحث الثاني : الحروف المقطعة في أوائل السور .

المبحث الثالث : الإيمان قول وعمل .

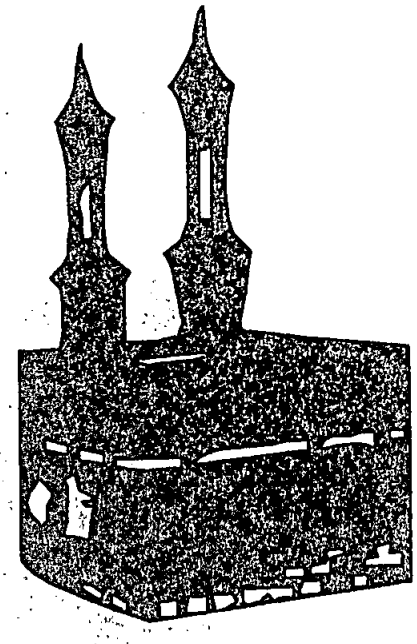

المبحث الأول : الحكمة من تسمية السورة بسورة النمل ٠

خـــــلق الله الإنسان ، وميزه عن بقية المخلوقات ، ووهبه نعمة التفكر والتبصر بالبصر والبصيرة ٠ قـــال تعالى : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً "[١] ٠ وبـــين له سبل وطرق الهداية ٠ وجعل التفكر في آياته يزيد من الإيمان ويعمل على توطيده في القلب وتمكينه في النفس قال تعالى : " ٠٠ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ٠٠ "[٢] ولم يكن في هذا الكون من شيء إلاَّ خُلِقَ لحكمة عند الله ومغزى لخلقه ، فهلاَّ اعتبرنا ؟

لم يكن خلق الله لهذه النملة الحشرة الصغيرة مصادفة ، لا ، ولم يكن تخليدها في كتابه العزيز في سورة يُتَعَبَّد في كل حرف من حروفها عندما تتلى ، ويكتسب الأجر العظيم في قراءتها إلا لحكمة ؛ إما بالمشابهة بينها وبين بني البشر في حياتها ، وإما لأخذ العبرة والعظة من هذه المخلوقة الضعيفة ٠[٣]

فإذا تأملنا قصة هذه النملة مما ورد ذكره في السورة فقط في قوله تعالى : "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ "[٤] نلاحظ الآتي :

---

[١] – سورة الإسراء الآية (٧٠) ٠

[٢] – سورة الفتح الآية (٤) ٠

[٣] – من شريط محاضرة للدكتور /ناصر بن سليمان العمر ، بعنوان (النملة) ٠

[٤] – سورة النمل الآية (١٨) ٠

١ - لم تنشغل هذه النملة بطعامها الذي خرجت من أجله وإنما كانت تبحث عن الخطر الذي يحدق بقومها . فأتت منذرة ، محذرة - ومن العجب أن النملة كانت على يقين أن سليمان ليس عدواً لها ؛ لأنها قالت : " لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون " [١] ولكنها مدركة للنتيجة التي تؤدي إلى التحطيم ، ومع ذلك صاحت هذه الصيحة ، وأنذرت قومها ، وطلبت منهم أن يدخلوا مساكنهم ، فكيف يا ترى إن كان هذا الأمر المحدق عدواً ؟ كيف سيكون إنذارها لقومها ؟ فكأن الله يريد أن يقول لأمة الإسلام والمسلمين : خذوا العبرة والعظة من هذه النملة ، فإذا علمتم بخطر الأعداء يحيط بكم ، فليكن منكم منذرون محذرون .

وكم نتمنى أن يكون في أمتنا مثل هذه النملة . وليكن همنا بل هم كل واحد منا هو هم هذه الأمة أولاً ، لأنه لو كان هم هذه النملة نفسها لهربت ، ولكنها صاحت وأنذرت ولم تقل إني واحدة ضعيفة فماذا أفعل ؟ بل قامت بما تستطيع ، وما توانت وما تكاسلت ولم تقل هذا جيش سليمان كثير العدة والعدد وأنا واحدة فالعبرة العبرة .

وقوله تعالى :" وهم لا يشعرون " توحي بأن النملة اعتذرت عن سليمان وجنوده دون حاجة أن تعتذر بل إكراما وإجلالاً له. فليكن لنا فيها عذراً لعلمائنا وأئمة المسلمين إن اجتهدوا ولم يوفقوا بل إن اجتهدوا ووفقوا ولنتدبر قوله تعالى : "فتصيبكم منهم معرة بغير علم" [٢] [٣]

٢ - ومن صفاتها أيضاً الصبر والجلد ؛ النملة تصعد الجدار فتسقط ، وتحاول أخرى فتسقط ، وتكرر ثالثة حتى تصل إلى المرة العشرين إلى أن تصعد وتصل إلى ما تريد _ فصبرٌ عجيب وثبات غريب _ تنقل حبة أكبر من حجمها عشرات المرات وتجاهد حتى توصلها نحو خمسون

---

[١] - سورة النمل الآية (١٨) .

[٢] - سورة الفتح الآية (٢٥) .

[٣] - من شريط محاضرة للدكتور /ناصر بن سليمان العمر ، بعنوان (النملة) .

مترا ، وتبدأ في الصباح فلا تصل إلاَّ في المغرب فلا تتوقف ، ولا تنام ، ولا ترتاح حتى تنتهي عند غايتها قال تعالى : "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ"[1].

والله يخبرنا بحال أمتنا الإسلامية حين يدب الفتور في كثير من أوصالها ؛ أهل العلم والدين والجهاد والله يريدنا أن نأخذ العبرة والعظة من هذه النملة ، وأن يكون صبرنا كصبرها بالجلد والمثابرة وهي تبني البيوت وتنقل الرمل في سرعة وعدم توقف وتعاون حين لم تقف نملة تتفرج وأخرى تعمل ـ الكل يعضد بعضه البعض ـ فأين نحن من بناء أمتنا علماً ودينا .

٣ - مجتمع النمل مجتمع نشيط عامل لا مكان فيه لخامل أو كسول أو أي فرد متواكل ـ استماتة في سبيل نيل المقاصد ـ مجتمع صدق لا كذب فيه ، مجتمع تعاون لا أنانية فيه ، تسير في جماعات لا شتات فيها وهذه مشكلة الأمة الإسلامية اليوم في انقسامها إلى طوائف وتطاحن أبنائها ، وتشيع دعاتها والله يقول في كتابه : " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ "[2]. فمجتمع النمل فيه مساعدة المريض حتى يشفى ؛ وأقسامه أربعة كل له عمله ، الملكة ومهمتها وضع البيض ، وتوجيه الرعية ، والشغالات يصنعن الطعام ، الوصيفات يقمن على خدمة الملكة وتبليغ أوامرها ، والعساكر لحماية بيوت النمل .

فأين الأمة الإسلامية وترتيبها وتنظيمها في إعادة مجدها والنهوض به ؟! قال تعالى : "أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ"[3].

و تجتمع أمة النمل لمهام أخرى منها التضحية : ومن تضحياتها أنها إذا لقيت وادياً صغيراً تتشابك بالأيدي والأرجل وتعمل جسراً فيأتي بعض النمل فيعبر فوقها فإذا انتهت بدأت النملة

---

[1] - سورة النمل الآية (٨٨) .

[2] - سورة المائدة الآية (٢) .

[3] - سورة آل عمران الآية (١٦٥) .

الأخيرة تركب فوقها حتى تنتهي وقد يغرق جزء وينجو الأخر ـ تضحيات ـ وهذا ثبت في أكثر من دراسة علمية في بعض الجامعات [1].

٤ - مجتمع النمل مجتمع منظم خالي من الفوضى في نقل طعامه وتوزيعه ؛ قسم للمستودعات ، وجزء للملكة ، وجزء للاحتياط .وهناك نوع من النمل يضع العش جهة الشرق وينام في الغرب حتى أصبح كالبوصلة يهتدي به المسافرون . وثبت أن النمل يوحد موقفه عند الأزمات وغير الأزمات . ثبت أنه إذا هجم على قرية أفسدها . ففي غابات البرازيل وجد ثلاثون نملة في مجموعة واحدة هجمت على قرية هجمة واحدة حتى ارتحل أهل هذه القرية . ومرة تجمعت على ثعبان لأنه أراد بها سوءاً فقطعته قطعاً .

فأين توحد المسلمين الآن ؟!.

ومن عبادة النملة ومعرفتها بربها والإنابة إليه ما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثم أمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلاّ نملة واحدة)) [2] وقال تعالى : " وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ "[3] .

ومن عجائب هداية النمل أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه ، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال : ((خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون

---

[1] - جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

[2] - مختصر صحيح مسلم ص (٣٩) للمنذري تحقيق الشيخ /ناصر الدين الألباني (٤٣/٧م) كتاب قتل الحيات ، باب في قتل النمل .

[3] - سورة الإسراء الآية (٤٤) .

فإذا هـم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها ، فقال ارجعوا فقد كُفِيتُم أوسقيتم بغيركم)) [١،٢]

وقد ذكره الألباني في الأحاديث الضعيفة برواية أخرى : ((خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله تعالى ، فإذا هـم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء ، فقال ارجعوا ، فقد استجيب لكم ؛ من أجل هذه النملة)) [٣]

وما من شيء إلا وجد نقيضه ، فهناك نوع من النمل الأبيض الذي يسمى الأرضة ، والذي أشار إليه قوله تعالى : "فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته" [٤] . فهو مجتمع تخريبي لا يعمل إلا في الظلام تحت الأرض ، فهو الذي نخر عصا سليمان عليه السلام وهو ميتا ، واقفا عاما كاملا ، ولا يدري أحد بموته ، وملكه قائم على أكمل وجه ، فدخل هذا النمل في داخل العصا فأفسدها ، والجن لا تعلم ، فسقط سليمان عليه السلام فعلمت الجن بموته . فهلا تبينا المنافقين والعلمانيين الذين يعملون في السر والظلام ، يقيمون المؤتمرات السرية يريدون لراية الإسلام أن تسقط كما سقطت عصا سليمان . فهلا تنبهنا ؟ فالله جل جلاله لم يخلق ذرة من تراب الأرض ولا حيوانا ولا إنسانا ولا حشرة عبثا _ حاشا لله _ فالحكمة العظة والعبرة والتدبر والتفكر عبادة و أكبر عبادة . قال تعالى : "ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون" [٥]

وأخيرا لم تصف الآيات هذه النملة أنها ملكة بل كانت نملة من عامة النمل ، فكل

---

[١] – ذكر جامع بدائع التفسير لابن القيم أنه لم يهتد إليه في كتاب الزهد ، بدائع التفسير (٣/٣٣٥) يسري السيد محمد .

[٢] – ذكره ابن القيم في شفاء العليل (٦٩ ـ ٧٠) .

[٣] –ضعيف الجامع الصغير وزيادته للشيخ / ناصر الدين الألباني ، برقم ٢٨٢٣ ص ٤١٥ .

[٤] – سورة سباء الآية (١٤) .

[٥] – سورة الأنعام الآية (٣٨) .

واحد منا يستطيع أن ينقذ أمته في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، فالأمر كله حمل الأمانة وحمل الهم الأكبر هم الأمة الإسلامية ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من جعل الهموم هما واحدا ؛ هم المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك)) [١].

حتى نبني مجتمع الصدق والوفاء ، مجتمع الترتيب ، مجتمع التعاون والتنظيم في أداء العمل الواحد . وأن نعلم أن مجتمعنا لا يخلو من الفاسد والفاسق . فلنعتبر ولنتقي الله ولنضع سلوكنا في موازين ولنعرض هذه النقاط أمام أبصارنا وأعيننا فأين المعتبرون كما في قوله تعالى : " فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ " [٢] وقال تعالى : " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " [٣] [٤]

---

[١] - رواه ابن ماجة في كتاب الزهد ، باب الهم بالدنيا وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/١٠٦٥) برقم ٦١٨٩ .

[٢] - سورة الحشر الآية (٢) .

[٣] - سورة الحج الآية (٤٦) .

[٤] - أنظر : شريط النملة - العقيدة في الله / د.عمر الأشقر ص١٠٤ - مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/١٥٠-١٥٢) .

المبحث الثاني : ذكر الحروف المقطعة في أوائل السور .

افتتح الله سبحانه وتعالى سور كتابه العزيز بعشر أنواع منها الحروف المقطعة في أوائل السور وقد ورد ذلك في ثنتى الصور منها: (الم ـ المص ـ المر ـ كهيعص ـ طه ـ طس ـ طسم ـ حم ـ حمعسق ـ ق ـ ن) و ذلك في تسعٍ وعشرون سورة من القرآن [١] ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : "الم" حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)) [٢] .

وقد اختلف المفسرون في بيان معانيها كلٌ حسب ما رأى من معان ومن هذه المعان :

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [٣] : إنها من أسماء السور ، وقال سفيان الثوري [٤] عن أبي نجيح عن مجاهد [٥] : إنها فواتح افتتح الله بها القرآن ، وقال بذلك قتادة [٦] ، وقال الشعبي: هي أسم من أسماء الله ، وقال شعبة عن السدي بلغني أن ابن عباس قال : هي أسم الله الأعظم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هي قسم ، وقال ابن مسعود :هي حروف

---

[١] – البرهان في علوم القرآن للزركشي ص (١٦٥ ــ ١٦٨) .

[٢] –صحيح الجامع الصغير وزيادته ــ للشيخ ناصر الدين الألباني (٢/ ١١٠٣،١١٠٤) برقم ٦٤٦٩ .

[٣] –زيد بن أسلم العدوي العمري ، يكنى أبا أسامة ، فقيه محدث ، من أهل المدينة ، ثقة ، توفي بالمدينة النبوية سنة ١٣٦هـ . (تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٢/١)

[٤] – هو ابن سعيد مسروق ، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد ، ولد سنة ٩٧ هـ ، طلب العلم وهو حدث باعتناء والده (تهذيب سير أعلام النبلاء (٥٨٢/١ ــ٥٨٨) .

[٥] – مجاهد بن جبر ، كنيته أبو الحجاج ، من أشهر علماء التفسير ، ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٣هـ .(البيان في علوم القرآن – ٧٤)

[٦] – قتادة بن دعامة أبو الخطاب السدوسي البصري ، ولد في البصرة سنة ٦١ هـ ، توفي سنة ١١٧هـ وعمره ٥٥سنة ، كان قوي الحفظ ، شديد الذكاء . (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١)

استفتحت من هجاء أسماء الله تعالى ، وقال بعض أهل العربية : هي من حروف المعجم استغني منها ما ذكر في أوائل السور عن بواقيها تتمة الثمانية و العشرين حرفا .

قلت[١]: (مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا يجمعها قولك : (نص حكيم قاطع له سر) ، قال الزمخشري : وهي مشتملة على أصناف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة ، والرخوة والشديدة ، والمطبقة والمفتوحة ، والمستعلية والمنخفضة ، وحروف القلقلة . وقد نبه بهذا التقسيم ودل على وقوعها هذا الموقع منذ عهد طويل لا يجوز إلا أن يكون من عند الله عز وجل .

إنما ذكرت هذه الحروف بيانا لإعجاز القرآن ، وإن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع إنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت

قلت :[٢]ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها انتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ، قال تعالى : "الٓمٓ(١) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ"[٣]، "المٓصٓ(١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ"[٤]، "الٓرٰ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ"[٥] .. وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ذلك .

أما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف

---

[١] – القائل ابن كثير رحمه الله .

[٢] – القائل ابن كثير رحمه الله .

[٣] – سورة البقرة الآيتان (١،٢) .

[٤] – سورة الأعراف الآيتان (١،٢) .

[٥] – سورة إبراهيم الآية (١) .

من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء ابن السائب ، عن أبي الضحى عن ابن عباس ... الألف سنة ، واللام ثلاثون والميم أربعون سنة)) [١] وما كان من حديث على فواتح السور بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين يهود ، وإن دل فإنما يدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته

وقد اختلف المفسرون فيها ومما قالوا : هي مما استأثر الله بعلمه فردوها لعلم الله ولم يفسروها ـ وهذا هو الصحيح وما عداه مما مضى تخمين بدون برهان [٢] ذكر أبو بكر الأنباري : حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا أبو بكر بن أبي طالب حدثنا أبو المنذر الواسطي عن مالك بن مغول عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خثيم قال : إن الله أنزل هذا القرآن فاستأثر بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تُسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها ، اختبارا من الله عز وجل وامتحانا ؛ فمن آمن أثيب وسعد ، ومن كفر وشك أثم وبعد [٣] واختار أبو حاتم بن حيان وجماعة أنها سر القرآن كما قال أبو بكر: لكل كتاب سر، وسر القرآن فواتحه [٤].

ونلخص اختلاف العلماء في الحروف المقطعة على قولين :

القول الأول : ١- أنه علم مستور مما استأثر الله تعالى بعلمه .

٢- قال الشعبي : (إن الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه نؤمن بظاهرها وكنهها يعلمه الله) .

---

[١] - شريك ضعيف وعطاء بن السائب مختلط ، تفسير القران العظيم لابن كثير (١/٧٥) خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي

[٢] - تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير ، خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي (١/ ٧٤ ـ ٧٩) .

[٣] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م١ (١/ ١٠٨ ـ ١١٠) .

[٤] -جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري م١ (١/ ١٣٢) .

٣- قال الإمام الرازي : (إن التعبد يجوز بما لا يعقل معناه في الأفعال ، فكذلك يمكن التعبد بما لا يعقل معناه في الأقوال ، ويكون القصد من ذلك الانقياد والتسليم) .

القول الثاني : ١- إن المراد منها معلوم ، قال ابن عباس : (الألف) من الله ، و(اللام) من لطيف ، و(الميم) من مجيد . هذه من أسماء الله . كما أنها من صفاته ، (الألف) من آلائه ، و(اللام) من لطفه ، و(الميم) من مجده .

٢- إن الله أقسم بهذه الحروف ، وهذا يدل على عظمة هذه الحروف .

٣- إعجاز للعرب لأنهم كانوا إذا سمعو القرآن قال بعضهم : "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه " ، فأنزل الله هذه الحروف ليعجبوا منها ويكون سببا لاستماعهم القرآن فيؤمنوا .

أما من أسندها إلى السنين والأعداد والآجال والأرزاق ، فلا أصل له وهذا من التنجيم ، وليس لها معنى إلاَّ وعلمه عند الله تعالى كغيرها مما استأثر الله بعلمه .[١]

فهي إعجازاً لجميع الناطقين بالعربية ، وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتابا كهذا القرآن ، والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين على الإتيان بمثله ، تحداهم حتى طال التحدي ، وجعله دلالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .[٢]

وإجمال القول في هذا المقام : إن هذه الأحرف لم يرد في تأويلها شيء صحيح من المعصوم صلى الله عليه وسلم فيما علمنا ، ولم يجمع العلماء في تأويلها على جهة معينة ، وإنما اختلفوا كما رأيت وتعددت أقوالهم ، فالأمر على ما ذكره بعض أهل العلم حيث قالوا : فمن ظهرت له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام ، والله أعلم .[٣]

---

[١] -البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ص (١٦٥ – ١٧٦)

[٢] – الإعجاز في القرآن لأبي بكر الباقلاني ص ٤٣ ، وهو الشيخ محمد شريف شكر ، بجاز في القضاء الشرعي توفي سنة ٤٠٣ .

[٣] – التسهيل لتأويل التنزيل (التفسير في سؤال وجواب) مصطفى بن العدوي (١٤٨/١) .

المبحث الثالث : الإيمان قولٌ وعمل .

قال تعالى : "طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)[١]

سورة النمل سورة مكية ، وقد اختصت فيها الآيات كغيرها من الآيات المكية في قوة وقعها ، ومعانيها ؛ لما لها من قوارع زاجرة للنفس وحججاً قاطعة ، وقوة في الألفاظ مع إيجاز العبارات ، مشتملة على الدعوة للتوحيد وعبادة الله وحده والتقرب إليه بما أمر ، واجتناب ما نهى ، وإثبات الرسالة ، والبعث ، والرد على المشركين ، ومجادلتهم بالبراهين ، ووضع الأسس العامة للتشريع والفضائل التي يقوم عليها المجتمع ، ضاربة للأمثال بذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ، زجراً لهم ، واعتباراً بمصير المكذبين قبلهم ، وذكر أهوال يوم القيامة ، كما اختصت السورة بجانب من الإعجاز العلمي في القرآن والذي هو سمة العصر الحديث .

ابتدأ الله سبحانه وتعالى سورة النمل بذكر الحروف المقطعة ، والعلة في تكرير هذه الحروف في أكثر من سورة هو التمكين والتقرير في النفوس لما يذكر بعدها ، كذلك ما ذكر آنفاً من الأسباب الصحيحة المستندة إلى الدليل . واشتملت هذه الآيات على عرض حال المؤمنين ، وبيان جزاؤهم في الآخرة ، مقارنة مع الذين لا يؤمنون ، وخسرانهم في الدنيا والآخرة .

---

[١] - سورة النمل الآيات (١- ٦) .

قال تعالى : " .. تلك آيات الكتاب المبين " .

تلك بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن ، وآيات كتاب مبين ، والكتاب هو القرآن ، فجمع له بين الصفتين ، بأنه قرآن ، وأنه كتاب ، ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ووعده ووعيده .[١]

قيل : أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، ووصف الكتاب بالقرآنية الدالة على أنه مكتوبٌ ، ثم أضيف إليه وصفاً ثالثاً وهي الإبانة لمعاينة من يقرؤه ، واتضاح إعجازه بما اشتمل عليه من الفصاحة ، والبلاغة ، وقُدِمَ وصف القرآنية لتقدم حالها على حال الكتابة . والكتاب هو نفسه القرآن ، وذُكِرَ بهذه الصفة للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ، واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذي أرسله إليهم سليمان عليه السلام ، وهو عبد من عباد الله .[٢] ويتضح من هذا المعنى أنه تعالى يقول : بَيِّن لمن تدبره ، وتفكر فيه ، وتيقن أنه من عند الله . كيف يقوله محمد ، ولن يستطيع بشر أن يأتي بمثله ، ولو تظاهر عليه الإنس والجن ، وهو معجزة في ألفاظه ، وأسلوبه ، في بيانه ، ونظمه ، وهو الصورة الحية للحياة ، والكون ، والإنسان . معجز في معانيه ، التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الحياة ، ومعجز بعلومه ، ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها ، معجز في تشريعه وصياغته لحقوق الإنسان ، وتكوين مجتمع مثالي ، تسعد به الدنيا . عندما تأتي كلمة القرآن فهي شاملة كاملة لمعنى الحياة في الدنيا والآخرة .[٣] فهو الهداية والبشرى كما جاءت به الآيات فهو : "هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ"[٤] و "مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ"[١] و "وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"[٢] .

---

[١] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣ /١٠٤) .

[٢] - فتح القدير للشوكاني (٤ / ١٤٤ - ١٤٥) .

[٣] - التشريع والفقه في الإسلام ص ٤٣ مناع القطاع .

[٤] - سورة البقرة الآية ٣ .

فالتعبير القرآني " هدى وبشرى " على هذا النحو يجعل مادة القرآن ، وماهيته الهداية والبشرى ، وإنما تحصل الهداية والبشرى لمن آمن وعمل ، واتبع وصدق ، وتفاعل مع القرآن ، كما قال تعالى : "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ" [٢] وجاءت : " هدى وبشرى للمؤمنين " في حيز النصب جاءت منصوبتان على الحالية على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل ، للمبالغة ، كأنها نفس الهدى والبشارة ، والعامل معنى الإشارة أي : هادية ومبشرة . أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران " لتلك " ، أو لمبتدأ محذوف ، ومعنى هدايتها لهم ، وهم مهتدون أي أنها تزيدهم هدى . [٤] حالة كونه هادياً وعليه يكون الكتاب نفسه هدى ، أي ضد الضلال ، فيكون الهدى : عبارة عن الدلالة على الطريق ، الموصل إلى البغية الدال على الطريق الموصل ، فسلكه بدليل وإرشاده إياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ، وهذه في ذاتها بشرى لهم . [٥]

قال تعالى : "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" [٦] و " يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ" [٧]

وقد اختص الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين صدقوا ، وعملوا ، اختصهم بالهداية ، وهي تطلق ويراد بها : ما يقر في القلب من الإيمان . وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل [٨] كما جاء في قوله تعالى : "لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

---

[١] – سورة البقرة الآية ٩٧ .

[٢] – سورة يونس الآية ٦١ .

[٣] – سورة فصلت الآية ٤٤ .

[٤] – تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٢) ، وجامع البيان عن تأويل أي القرآن للطبري م١١ (٢٢/ ١٦٠) .

[٥] – روح المعاني للألوسي (١/١١١) .

[٦] – سورة التوبة الآية ١٢٤ .

[٧] – سورة التوبة الآية ٢١ .

[٨] – تفسير ابن كثير (١/٤١) .

[٩] – سورة البقرة الآية ٢٧٢ .

و "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ .. "[1] ومن هنا يتضح أن الإيمان هو التصديق المحض في اللغة ، والمراد هنا التصديق ، والزيادة في العمل ، والتبصرة من الله إلى الصراط المستقيم ، وتحقيق المعية ، ومراقبة الله سبحانه وتعالى في كل صغيرة وكبيرة ، ومحاسبة النفس ، والحذر من الوقوع في الإثم ، مع التفكر والتدبر ـ الذي هو أعلى درجات العبادة ـ في مخلوقاته ليزداد الإيمان قوة وصلابة على السير في طريق الحق . فالهدى هو زيادة الإيمان والنور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن التقي فيتذوق حلاوة الإيمان ، ويستشعر البشرى والسرور في حياته الدنيا ، وبشارة الآخرة بأن لهم الجنة فيها نعيم مقيم .

بما أن التفسير جاء في الماضي لبيان ما أشكل من الآيات ، وما غمض من المعاني ، فلابد للتفسير اليوم أن يتجه نحو محورين أساسيين هما :

أولاً : في الجانب المعنوي أن يبرز في صورة دعوية تحث على الإيمان الصادق ، ويبعث الهمم التي كادت أن تموت في نفوس المسلمين ، وأن يحرك مشاعرهم ، فلابد أن يتجه التفسير في شكله ومضمونه إلى الجانب الدعوي .

ثانياً : الاهتمام بالإعجاز العلمي من القرآن بما يواكب العصر ويلبي رغبات العقل حتى يكون المسلمون ساسة الشعوب ، وقادة الأمم ، ويكون القرآن ربيع القلوب ، وجلاء الأبصار ، ونور الحياة ، كما قال تعالى : " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا "[2] وخرج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته : ((أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة))[3]

---

[1] – سورة القصص الآية ٥٦ .

[2] – سورة محمد الآية ٥٤ .

[3] – رواه مسلم (٨٦٧) مختصر صحيح مسلم للمنذري أبواب الجمعة ، باب رفع الصوت بالخطبة وما يقول فيها .

فمن لون التفاسير الذي له أثر في النفس ويخدم قضية اليوم هي : تفسير ابن كثير ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب[١] ، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، فقد جاء في تفسيره لقوله تعالى :" تلك آيات القرآن وكتاب مبين " أي هي : (أعلى الآيات وأقوى البينات ، وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد ، وخير الأعمال ، وأزكى الأخلاق . آيات تدل على الأخبار الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهي عن كل عمل وخيم ، وخلق ذميم ، آيات ينبعث في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار ، وآيات دلت على الإيمان ، ودعت للوصول إلى الإيمان ، وأخبرت عن الغيوب الماضية ، والمستقبلة ، طبق ما كان ويكون . آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، وأفعاله الكاملة . آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا ... وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم . آيات تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه ، وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق)[٢].

ثم فصلت الآيات أنواع العبادات التي هي شعب الإيمان ، وبدأت أولى العبادات حسب أهميتها في الدين بعد سلامة العقيدة ، وتوحيد الله سبحانه وتعالى ، والخروج من الشرك . فهي إقامة الصلاة ذلك الركن الذي يتحقق فيه التجرد لله وحده ، وتربية النفس على المعاني الإيمانية التي تعد المؤمن لحياة كريمة في الدنيا ، وسعادة سرمدية في الآخرة . وهي سنة متابعة عبر الرسالات ، وصلة بخالق الأرض والسموات ، وزاد يعين النفس على الطاعات والبعد عن المحرمات ، ولذا اعتنى بها القرآن الكريم عناية فائقة ، فجاءت الآيات تحث على إقامتها

---

[١] – وهذا الكتاب عليه بعض الوقفات لدى بعض العلماء فالرجل كان أديباً ناقدة ، ثم اتجه لخدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم ، والسنة المشرفة ، والسيرة النبوية العطرة ، فيجب الاستفادة من علمه ، وبيان ما تحققنا خطأه فيه ، وخطأه لا يوجب حرماننا من علمه ، ولا هجر كتبه . كتيب / الخطاب الذهبي – بكر بن عبدالله أبو زيد .

[٢] – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – الشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص٥٥٠ .

والمحافظة عليها ، ووصف أهل الإيمان بأنهم هم :" الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ"[١] وبينت السنة أنه إذا فقدت الصلاة فقد الدين كله ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة وذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت ، فسد سائر عمله))[٢] وجاءت الآيات محذرة من ترك الصلاة ، وتأخيرها عن وقتها في قوله تعالى : "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا"[٣] وحذر من عدم أدائها في وقتها فقال : "فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ"[٤] وقال صلى الله عليه وسلم : ((بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة))[٥] ولابد من تحقيق شروطها ، و أركانها ،وواجباتها ، وسننها ، ومستحباتها ، ظاهرة وباطنة من خشوع واستحضار قلبي ، وتدبر ، واستشعار عظمة الخالق ، وأن الإنسان يقف بين يدي من ذلت له الرقاب ، في ذل وانكسار ، ودعاء ، وابتهال .والإكثار من نوافلها لسد الخلل فيما فرط .وهي التقرب إلى الله كما في قوله تعالى : "إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ"[٦] وكثيراً ما تقترن الصلاة مع الزكاة في أكثر من آية سواء المقصود بها الزكاة المفروضة ـ قول ابن عباس ـ وعقب أن السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة وقيل كان في مكة زكاة مفروضة إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة[٧].

---

[١] – سورة البقرة الآية ٣ .

[٢] – صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٠٣) برقم ٢٥٧٣ وفي الترتيب /كتاب الصلاة باب فصل الصلاة برقم ١١ (١/ ٢١٠).

[٣] – سورة مريم الآية (٥٩) .

[٤] – سورة الماعون الآية (٤،٥) .

[٥] – رواه مسلم (١/ ٨٨) ح٨٢ وصحيح الترغيب ، كتاب الصلاة ، باب الترهيب من ترك الصلاة تعمداً برقم ٥٦٣ .

[٦] – سورة السجدة الآية (١٥) .

[٧] – روح المعاني للألوسي (١/ ١٥٣) .

وهذا هو الأرجح . وقيل بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق . وقيل : أنها الزكاة المفروضة .

أي أن الذين يقيمون الصلاة بحدودها ، ويؤدون الزكاة المفروضة التي تطهر أبدانهم من دنس المعاصي والآثام ، ومع ذلك متيقنين بيوم المعاد ، وملاقاتهم لله سبحانه وتعالى بعد الممات للحساب ، فيتذللون في طاعة الله ، ويجتهدون رجاء الغفران ونيل الثواب ، والخوف من العقاب ، وسوء المآل ، مخالفين غيرهم من الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يصدقون به فإن أحسنوا ليس رجاء ثواب ، وإن أساءوا لا يخافون من العقاب .

إن إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، صفة مدح لهم ، وتخصيصها بالذكر لأنهما قرنتا بالإيمان ، وقطبا العبادات البدنية ، والمالية ، ويقيمون الصلاة فيؤدونها في حضرة ذي الجلال والإكرام ، مشغولة خواطرهم بمناجاة الله ودعائه ، والتوجه إليه [١] . وإذا تأملنا اقتران الصلاة بالزكاة والإيمان تجد الآيات كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين : "الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * ... * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ" [٢] وقال تعالى : "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ" [٣] وما رواه الطبري عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس ، على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسه

---

[١] - تفسير أبي السعود (٦/ ٢٧٢) .

[٢] - سورة النور الآيتان (٢، ٤) .

[٣] - سورة التوبة الآية (١٨) .

وأدى الأمانة)) . قيل : يا رسول الله ! وما أداء الأمانة ؟ قال : ((الغسل من الجنابة ، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها)) [١]

والصلاة طهارة الإنسان من الحدث مكاناً ، وبدناً ، ونفساً ، لما رواه الحاكم وأبو داود واللفظ له عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس فسمعته يقول : ((... ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقوم في صلاته ، فيعلم ما يقول ، إلا انفتل ، وهو كيوم ولدته أمه ..)) [٢] فهذا دليل على تطهير الصلاة للنفس وتزكيتها ، والزكاة طهارة للمال وتنمية له ، وهي طهارة شرف ، ونماء وزيادة ، وبركة ، والزكاة هي الورع ، والزهد ، والإيثار . ومن هنا يأتي الإنفاق بالمال والنفس راضية ، وهو المحك الذي يقاس به الإيمان ، لذلك كانتا دعائم من أركان الإسلام والإيمان . وعلق ذلك كله على إيمانهم باليوم الآخر .

وبعد أن وصف الله حال المؤمنين ، وبشارتهم ، وجزاؤهم في الآخرة ، كان لابد من بيان حال النقيض من الكفار ، وفي الآيات بيان لحال الكفار الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ، وما فيه من العقاب والثواب على الأعمال الصالحة ، والعقاب على السيئات [٣] إن الذين لا يصدقون بالآخرة ، وقيام الساعة ، والمعاد إلى الله بعد الممات ، قد حبب إليهم قبح أعمالهم ، وسهل عليهم ذلك ، فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون ، ويحسبون أنهم يحسنون ، المقصود بالآية مشركي قريش الذين قتلوا ببدر وكسدت تجارتهم باشترائهم الحياة الدنيا بالآخرة والضلالة بالهدى [٤] وأن المكذبين باليوم الآخر قد حل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى : "إن في

---

[١] – إسناده جيد ، حسنه الألباني في الترغيب (١/ ٢١٩) كتاب الصلاة باب الترغيب في الصلوات الخمس والمحافظة عليها، برقم ٣٦٢ .

[٢] – صححه الألباني في الترغيب (١/ ٢٢٩) كتاب الصلاة باب الترغيب في الصلاة مطلقاً وفضل الركوع ، من جزء من حديث برقم ٣٨٨ .

[٣] – فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٥٦) .

[٤] – جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، ابن جرير الطبري ، م١١ (٢١/١٦١) .

ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ "[١] فأخبر أن عقوبته لهم عبرة لمن خاف عذاب الآخرة بأن الله زين لهم فيها خيري الدنيا والآخرة ، فلم يقبلوا .[٢] وقال الزجاج : معنى الآية أي جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ماهم فيه .[٣] إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ويكذبون بها ، ويكذبون بمن جاء بإثباتها ... فقد انقلبت عليهم الحقائق فرأوا الباطل حقاً ، والحق باطلاً .[٤] أي حسن لهم الله ما هم فيه ، ومدد لهم في غيهم فيهم يتيهون في ضلالهم ، وهذا ما نالوه جزاء تكذيبهم .[٥]

إن إمهال الله سبحانه وتعالى للشيطان قرين الإنسان ، حتى يزين لهم الأعمال القبيحة ، ويبعدهم عن الأعمال الحسنة ، فهم يترددون في الضلال والإعراض عنها [٦] قال تعالى :

" مَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ "[٧] قال تعالى :

" وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ "[٨] يوم القيامة يخسرون أنفسهم وأموالهم ولا أحد غيرهم.

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي يتنزل منه هذا القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي أنك يا محمد سوف يلقى عليك هذا القرآن البليغ في كلماته ، المعجز في علومه ، الحكيم في بيانه ، الواضح في منهجه الميسر في تكاليف وتوجيهه ، المتدرج في تشريعه لتعلمه للناس تلقيناً بعد حفظك إياه ، وأنه من الله ، الحكيم في تدبيره ، وأمره ونهيه ، يعلم

---

[١] - سورة هود الآية (١٠٣) .

[٢] - روح المعاني (١٠/ ١٥٤) .

[٣] - فتح القدير (٤/ ١٤٤، ١٤٥) .

[٤] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص٥٥ .

[٥] - تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٧) .

[٦] - روح المعاني للألوسي (١٠/ ١٥٢) .

[٧] - سورة الزخرف الآية (٣٦) .

[٨] - سورة الأنعام الآية (١١٠) .

أنباء خلقه ، ومصالحهم ، فهو يضع الأشياء في مواضعها ، وينزلها منزلها ، وهذا بمثابة مقدمة نافعة لما سيذكره من القصص والأخبار العجيبة من الأمم السابقة [1].

معالجة الآيات لقضية الإيمان :

عالجت الآيات في صدر السورة قضية الإيمان ، وما يترتب عليه من حال المؤمنين في الدنيا والآخرة .

ولأهمية قضية الإيمان جَعَلْتُهُ عنواناً بارزاً للفصل الأول من هذا البحث .

فالإيمان حقيقة ثابتة ، وقيمة عظمى ، ونعمة غامرة ، ونور ، وهدى ، وحياة كريمة ، وأجلُّ نعمة ، نهايتها الجنة .قال صلى الله عليه وسلم : ((أبشروا ، وبشروا من وراءكم ، أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة)) [2] وهو أحب الأعمال إلى الله ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((أحب الأعمال إلى الله : إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم)) [3] والإيمان يجعل للوجود معنى ، وللإنسان قيمة ووظيفة ، وللحياة طعماً . فيعرف سر وجوده ، فيحقق إنسانيته . وبدونه يعطل حواسه ومداركه ، ويفقد سكينته ، وطمأنينته ، ويتزعزع كيانه ، ويفسد حياته وحياة من معه . قال تعالى في هذا : " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ

---

[1] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٦٢٨) ، و تفسير ابن كثير (١/ ٤٣)، وجامع البيان عن تأويل أي القرآن م١١ (١٦١/٢١) ، وفتح القدير للشوكاني (/ ٥٥٠) .

[2] – رواه أحمد في المسند ، والطبراني في الكبير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٩/١) برقم ٣٦-١٣ .

[3] – مسند أبي يعلى ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٩٥/١) برقم ١٦٦-٥٩ .

يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[١] من فضل الله علينا أن هدانا للإيمان وأنعم علينا به . قال تعالى : "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[٢] فالإيمان نعمة والحياة في ظلال الإيمان متعة لا يعرفها إلا من ذاقها ، نعمة تبارك في العمر ، وتزكي النفس ، ومن رزقه الله السعادة هو الذي يتبوأ الإيمان ، ويتزين به ، ويستجيب لندائه ، ويحاول غرس شجرة الإيمان في قلب غيره .

الإيمان في اللغة : من الأمن ضد الخوف ، وهو طمأنينة النفس وزوال الخوف ،[٣] قال تعالى : "وأمنهم من خوف" .[٤] والإيمان بمعنى التصديق ضد التكذيب ، وقال الزجاج : الإيمان : (إظهار الخضوع ، والقبول للشريعة ولما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، واعتقاده وتصديقه بالقلب) . وقال صلى الله عليه وسلم : ((آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان ؟ شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم ...))[٥] وقال صلى الله عليه وسلم : ((الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتابه ، وبلقائه ، وبرسله ، وتؤمن بالبعث الآخر)) وقال صلى الله عليه وسلم : ((الإيمان : الصبر والسماحة)) والأصل في الإيمان الدخول في صدق بالأمانة التي ائتمنه الله عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة ، وهو مؤمن . ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍ للأمانة التي ائتمنه الله عليها ، وهو منافق .[٦] فالإيمان شرعاً كما عرفه الماتريدي وأبو حنيفة : هو التصديق فقط ، والإقرار

---

[١] - الأعراف الآية (١٧٩) .

[٢] - الحجرات الآية (١٧) .

[٣] - لسان العرب لابن منظور (٢١/١٣) .

[٤] - قريش الآية (٥) .

[٥] - أخرجه البخاري ، كتاب الإيمان (١٢٩/١) ، ومسلم كتاب الإيمان (٤٦/١) .

[٦] - لسان العرب لابن منظور (٢٣/١٣) .

ليس ركناً بل شرط لإجراء الأحكام الدنيوية . ومذهب الأشعري[١] وأتباعه : التصديق بشرط الإقرار .[٢] فالمراد بالإيمان : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان . وهو مذهب مالك[٣] والشافعي[٤]، وأحمد[٥]، والأوزاعي[٦]، وإسحق بن راهويه[٧]، وسائر أهل الحديث ، وأهل المدينة رحمهم الله ، وأهل الظاهر ، وجماعة المتكلمين . وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط .[٨]

---

[١] – هو أبو الحسن الأشعري ، كان اعتقاده أولاً معتزلياً ثم تحول إلى مذهب ابن كلاب ثم استقر على عقيدة السلف .

[٢] – في ظلال الإيمان ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ص ٢٣ .

[٣] – هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني ، صاحب المذهب المعروف ، هو شيخ الإسلام ، إمام دار الهجرة ، مولده سنة ٩٣ هـ ، تأهل للفتيا ، وجلس للإفادة ، وله إحدى وعشرون سنة ، قال عنه ابن عيينة : مالك عالم الحجاز ، وحجة زمانه ، لم يكن في المدينة عالم يشبه مالكا في العلم ، والفقه ، والجلالة ، والحفظ ، مات سنة ١٧٩ هـ وعمره ٨٩ عاماً . تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٦١٤، ٦٢٦) .

[٤] – هو محمد بن إدريس الشافعي ، عالم عصره ، صاحب المذهب المعروف ، ولد بغزة ، نشأ بمكة ، وأقبل على العربية والشعر ، فبرع وتقدم ، حبب إليه الفقه ، فساد أهل زمانه ، ارتحل إلى المدينة ، أفتى وتأهل للإمامة وهو ابن نيف وعشرين سنة ، حمل الموطأ عن مالك بن أنس عرضه من حفظه . وهو إمام ثبت في الحديث ، حافظ لما وعى . تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٧٣٣، ٧٤٣) .

[٥] – هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، أحد الأئمة الأعلام ، كان شيخاً مخضوباً طوالاً أسمر شديد السمرة ، قال أبي زرعة : يحفظ ألف ألف حديث ، قال إبراهيم الحربي : كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين ، وقال قتيبة : إذا رأيت رجلاً يحب أحمد ، فاعلم أنه صاحب سنة ، وروى عن إسحاق بن راهويه قال : أحمد حجة بين الله وبين خلقه . امتحن في عهد المأمون بفتنة خلق القرآن ، وبقي أحمد محبوساً في الرقة حتى بويع المعتصم إثر موت أخيه ، فرد أحمد إلى بغداد ، ثم حبس في دار اكتريت عند دار عمارة ، ثم حول إلى حبس العامة في درب الموصلية ، وقد ضرب وعذب من قبل المعتصم ، ثم الواثق ، ثم فرج عنه في عهد المتوكل ، قال المروذي مرض أحمد تسعة أيام ، واشتدت علته يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة ، ثقل ، وقبض صدر النهار ، فصاح الناس ، وعلت الأصوات بالبكاء ، حتى كأن الدنيا قد ارتجت ، وامتلأت الشوارع والسكك ، كان ذلك لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول . تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٨١١، ٨٣٩) .

[٦] –الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد ، عالم أهل الشام ، سكن بمحلة الأوزاع بدمشق ثم تحول إلى بيروت مرابطاً بها حتى مات ، ولد في حياة الصحابة سنة ٨٨ هـ ، قال عنه العباس بن الوليد ، عن أبيه : عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه . وله مسائل كثيرة حسنة ينفرد بها ، وهي موجودة في الكتب الكبار ، وكان له مذهب مستقل مشهور ، عمل به فقهاء الشام مدة ، وفقهاء الأندلس ثم فني ، ذكر بعض الحفاظ أن حديث الأوزاعي نحو من الألف – يعني المسند – أما المرسل والموقوف ، فألوف . وهو في الشاميين نظير معمر لليمانيين ، ونظير الثوري للكوفيين ، ونظير مالك للمدنيين ، ونظير الليث للمصريين ، ونظير حماد بن سلمة للبصريين . تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٦٩ – ٥٧٢) .

[٧] – هو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي .. المرزوي ، نزيل نيسابور ، ولد سنة ١٦١ هـ ، كان ممن أجاب السنة في المشرق ، قال حنبل : إسحاق عندنا إمام ، قال إسحق بن راهويه : ما كنت أسمع شيئاً إلا حفظته ، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث – أو قال أكثر – في كتبي ، قال ابن كثير : كان إماماً في التفسير ، رأساً في الفقه من أئمة الاجتهاد . توفي سنة ١٣٨هـ ، وله ٧٧ سنة . تهذيب سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٨٤٠، ٨٤١) .

[٨] – العقيدة الطحاوية ص ٣٣٢ .

ويتضح من التعريفات أن الأرجح قول الجمهور ، لأن التصديق بالقلب شرط لأنه يلزم من تصديق القلب عمل الجوارح وإلاَّ زال الباقي منه :

والقول قسمان ، قول القلب وهو اعتقادي ، وقول اللسان وهو التكلم بالإسلام ، أي النطق بالشهادتين . والعمل قسمان ، عمل بالقلب وهو النية والإخلاص ، وعمل الجوارح ، فإذا زالت هذه زالت تلك ، وبالتالي زال الإيمان ، ويلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب [١] .

وقد تنوعت عبارات السلف الصالح في تعريف الإيمان ، فتارة يقولون : هو قولٌ وعمل ،وتارة يقولون : قول اللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، وتارة يقولون : هو قول وعمل ونية ، وتارة يقولون : قول وعمل ونية واتباع السنة . وكل هذا صحيح ، فليس بين هذ العبارات اختلاف معنوي ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية قائلاً : إذا قالوا : قولٌ وعمل فإنه يدخل القول قول القلب واللسان جميعاً ، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ، ونحو ذلك إذا أطلق القول المطلق ، والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان ، وعمل القلب والجوارح ، فقول اللسان بدون اعتقاد القلب قول المنافقين ، وهذا لا يسمى قولاً إلا بالتقييد ، كقوله تعالى : "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" [٢] وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب ، هي من أعمال المنافقين ، التي لا يقبلها الله ، فقول السلف يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر [٣] .

ولختام هذه المسألة يقول ابن القيم رحمه الله : كل مسألة علمية فإنه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه ، وذلك عمل بل هو أصل العمل ، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان ، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال ، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه ،

---

[١] – المرجع السابق ص ٣٤١ .

[٢] – سورة الفتح الآية (١١) .

[٣] – نواقض الإيمان القولية والعملية /د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ،ص(١٨،١٩) . مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧٧/١٧٠،١٧١) .

فإن كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، غير شاكين فيه ، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به والرضا وإرادته ، والموالاة والمعاداة عليه ، فلا تهمل هذا الموضوع فإنه مهم جداً ، به تعرف حقيقة الإيمان [١] ونجد هذا في قوله تعالى : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " [٢] فقد حصرت الآية الإيمان بأداة القصر (إنما) في هذه الأعمال وهي إقامة الصلاة ، الإنفاق في سبيل الله ومنها قوله تعالى : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " [٣] فأضافت الآية الجهاد في سبيل الله وهو عمل الجوارح ضمن حقيقة الإيمان . ومنها قوله تعالى : " إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ " [٤] فالسجود عند ذكر آيات الله عبادة عملية ، وتسبيحهم بحمد ربهم عبادة لسانية ، وعدم استكبارهم عملية سلوكية ، أخلاقية ، وكلها مندرجة في حقيقة الإيمان . ومنها قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " [٥] فمن حقيقة الإيمان عموم العمل الصالح ، وخصصت بالذكر منه الصلاة والزكاة واعتبرتهما من الإيمان [٦] . ومن الآيات التي عرضت صفات المؤمنين ، وجعلت مرتكزها الصلاة ، والزكاة قوله تعالى : " قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ

[١] - نواقض الإيمان القولية والعملية /د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ، ص ٢٢ ، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/٤٢٠) .

[٢] - سورة الأنفال الآية (٣،٢) .

[٣] - سورة الحجرات الآية (١٥) .

[٤] - سورة السجدة الآية (١٥) .

[٥] - سورة البقرة الآية (٢٧٧) .

[٦] - الفوائد لابن القيم ص ٢٣٤ .

خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ "[١]

وقد يطلق الإيمان ويراد به الصلاة ، كما في قوله تعالى : " وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ "[٢] عن البراء قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ، ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام " فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن تصرف القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله : " وما كان الله ليضيع إيمانكم " وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب : " ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها " فأنزل الله : " سيقول السفهاء من الناس " إلى آخر الآية[٣] وقوله : " وما كان الله ليضيع إيمانكم " أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها الله . وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبيعي عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله : " وما كان الله ليضيع إيمانكم "[٤] . وأورد الطبري إحدى عشرة رواية عن الصحابة والتابعين ، أن المراد بالإيمان الصلاة في الآية . وقد ربط بين الإيمان والصلاة ، وأن التصديق وجوده في ممارسة الصلاة ، والتوجه فيها إلى بيت المقدس صم إلى الكعبة المشرفة . وهذا قمة الربط الرائع من المفسر[٥] . ويتضح من هذا أن الإيمان هو :-

---

[١] - سورة المؤمنون الآيات (٢،٣،٤) .

[٢] - سورة البقرة الآية (١٤٢) .

[٣] - حديث حسن لغيره ، من تفسير ابن كثير تحقيق / مقبل بن هادي الوادعي (١/ ٣٤٦) .

[٤] - فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة حيث كان برقم ٣٩٩ (١/٥٩٨).

[٥] - جامع البيان في تأويل أي القرآن للطبري م٣(٥/١٦٧ـ ١٦٩) .

التصديق ، والثقة ، والطمأنينة ، والأمن . وهذه المعاني ملحوظة في أداء الصلاة ، ولذلك كانت الصلاة إيماناً .

وصفات أهل الإيمان كما جاءت في الآيات بينها اتصال ، وترابط ، وتناسق ، وانسجام ، والإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق في سبيل الله ، سواء كان زكاة في سورة النمل ، أو الإنفاق بمعناه العام كما في آيات أخرى ، واليقين بالآخرة . فالذي يجمع بين هذه الصفات هو سلامة العقيدة ، وتطبيق أحكام الشريعة ، لتبرز الشخصية الإسلامية .

والتكامل والتناسق بين هذه الصفات جميعا هو الذي يؤلف منها وحدة متكاملة ، متناسقة ، فالتقوى : شعور في الضمير ، وحالة في الوجدان تنبثق منها اتجاهات وأعمال ، تتوحد بها المشاعر الباطنة ، والتصرفات الظاهرة ، تصل الإنسان بالله في سره وجهره ، وتشف معها روحه . والتقوى ، والإيمان بالغيب ، عبادة لله في الصورة التي اختارها ، وجعلها صلة بين العبد وبين ربه ، ثم السخاء بجزء من الرزق ، اعترافاً بجميل العطاء ، وشعوراً بالإخاء ... ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ، ولا تأرجح في هذا اليقين .[1]

وقال تعالى : "قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ"[2] بينت الآية أن طريق الفلاح هو التحقيق عمليا بالإيمان أنه إيتاء الزكاة ، والإيمان بآيات الله إيمانا حياً ، قوياً ، قائداً ، موجهاً لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاهتداء بشريعته ، واتباع سنته .

وتناولت الآيات الهَدْيَ الذي يضعه الله في قلوب المؤمنين وخصهم به ، ففي هذا قال البخاري في أول كتاب الإيمان في زيادة الإيمان ونقصانه ، قال تعالى : "لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ"[3]

---

[1] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٤١/١) .

[2] - سورة الأعراف الآية (١٥٦) .

[3] - الفتح الآية (٤) .

و "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى" [١] و "الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ" [٢] وقال تعالى : "أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا" [٣] وقال : "مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا" [٤] فالآيات تبين أن الهدى هو مرتبة أعلى من الإيمان ، يهبها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ، أو هي زيادة في الإيمان لمن أدى شعائر العبادات على الكيفية التي أدى بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيشعر الإنسان بزيادة الإيمان واليقين والاطمئنان . كذلك ما وضحته الآيات أن سماع كلام الله يتلى يزيد المؤمن إيماناً ، ويقيناً ، وطمأنينة ، فيتأثر ويبدو ذلك على قلبه ، وجوارحه ، وكيانه . والعلم سمة أساسية لزيادة الإيمان خاصة العلم بالله ، وكلامه ، وآياته . وكل هذه العبادات وسائل لزيادة الإيمان ، وتعتبر ثمرة من ثمرات الإيمان ، وزيادة الإيمان تبدو على المؤمن فيكون كلامه تذكر ، وصمته تفكر

في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية ، والإضلال ، فيقوم القلب بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه ، والمؤثر لأثره . فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازدادوا منها ازدادوا هدى . فعلق الهدى على الأعمال الصالحة و التزامها [٥] .

قال ابن القيم رحمه الله في الفوائد : تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح ، سبب الهداية والإضلال ، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه ، والمؤثر لأثره ، وكذلك الضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى ، وأعمال الفجور بالضد ؛ وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر ، فيجازي عليها بالهدى والفلاح ، ويبغض أعمال الفجور ، ويجازي عليها بالضلال والشقاء . أنَّ العبد إذا آمن بالكتاب

---

[١] – سورة مريم الآية (٧٦) .

[٢] – سورة محمد الآية (١٧) .

[٣] – سورة التوبة الآية (١٢٤) .

[٤] – سورة الأحزاب الآية (٢٢) .

[٥] – الفوائد لابن القيم ص ٢٣٥ .

واهتدى به مجملاً وقبل أوامره ، وصدَّق بأخباره ؛ كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل ؛ فإن الهداية لا نهاية لها ، ولو بلغ العبد ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية . فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى ، وكلما فوت حظاً من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زاد تقواه . قال تعالى :

"ويزيدُ اللهُ الذينَ اهتدَوْا هدىً" [١] ، [٢] .

مراتب الهداية :

١ - تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة ، بل منه إليه ، وهذه أعلى مراتبها ، كما كلم الله موسى عليه السلام ، قال تعالى : "وكلم اللهُ موسى تكليما" [٣] .

٢ - الوحي المختص بالأنبياء ، قال تعالى : "إنا أوحينا إليكَ كما أوْحَيْنا إلى نُوحٍ والنَّبيين من بعدِهِ" [٤]

٣ - إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري ، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه .

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء ، ولا تكون لغيرهم .

٤ - التحديث ، والمحدَّث : هو الذي يحدّثُ في سره وقلبه الشيء فيكون كما يحدث به . كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر)) [٥]

---

[١] - سورة مريم الآية (٧٦) .

[٢] - فوائد الفوائد لابن القيم ، ترتيب وتعليق وتخريج / علي حسن عبد الحميد ، ص(١٤٦،١٤٧،١٤٨) .

[٣] - سورة النساء الآية (١٦٤) .

[٤] - سورة النساء الآية (١٢٦) .

[٥] - فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب برقم /٣٦٨٩ (٧/٥٢).

٥ - الإفهام ، قال تعالى : "ففهمناها سليمان .. " [١] فالفهم نعمة من الله ونور يقذفه الله في قلبه ، فيدرك ما لا يدركه غيره ، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه ، وفهم أصل معناه . وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عد ألف بواحد .

٦ - البيان وهو : تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه ، بحيث يصير مشهوداً للقلب ، كشهود العين للمرئيات . وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه ، التي لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها . ويكون بالآيات المسموعة المتلوة ، وبالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما دالة على التوحيد لله .

٧ - البيان الخاص : وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق ، وقطع أسباب الخذلان وموادها فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة ، والبيان الأول شرط ، وهذا موجب .

٨ - مرتبة الاستماع : وهو أخص من إسماع الحجة والتبليغ ، ولكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب ، ويترتب على هذا السماع سماع القبول والإجابة .

٩ - مرتبة الإلهام : قال تعالى : "ونفسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " [٢] والإلهام أعم من التحديث ، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم .

١٠ - الرؤيا الصادقة : وهي من أجزاء النبوة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال صلى الله عليه وسلم : ((لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، الرؤيا الصالحة)) [٣] [٤]

---

[١] - سورة الأنبياء الآية (٧٩) .

[٢] - سورة الشمس الآية (٧،٨) .

[٣] - فتح الباري بشرح صحيح البخاري . كتاب التعبير ، باب المبشرات برقم ٦٩٩٠ (٣٩١/١٢) .

[٤] - تهذيب مدارج السالكين لابن القيم ، تهذيب /عبد المنعم العربي ، ص (٤٥ـ٥١) ، مراتب الهداية .

أنواع الهداية في القرآن :

١ - الهداية الغريزية : وهي المذكورة في قوله تعالى : " الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى " [١] فهذه هداية جعلها الله رحمة منه لكل مخلوق ، كل مخلوق هداه لما يصلحه ، وهي هداية طبعية ، طبع عليها الخلق .

٢ - هداية الدلالة والبيان والإرشاد : فإن الله عز وجل هدى الخلق وأقام لهم البينات الواضحة ، التي لا يلتبس معها النظر ولا السلوك لذي العقل واللُّب ، وذلك بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل لإقامة الحجة على العباد وهدايتهم ، قال تعالى : "يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ .." [٢] وكذلك الرسل يهدون إلى ما أمرهم الله جل وعلا به أن يبينوه للناس ، هداية الدلالة والبيان ، ولم تترك للاجتهاد ، وإنما بُينت ، وأوضحت بأن الله هو الهادي ، قال تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : " وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " [٣] فما من شيء فيه خير وصلاح للعباد إلا بين ودل عليه العباد ، وأرشدوا إليه ، في الكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فسبيل الهداية والنجاة ، واضحاً في القرآن والسنة أبلغ الوضوح

٣ - هداية التوفيق والإلهام ، وهذا النوع مبدأه من العبد ، ومنتهاه من الله جل وعلا ، يمن الله بتوفيقه وإلهامه وتسديده للعبد بسبب من العبد ، قال تعالى : "لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ" فإذا سلك العبد السبيل والطريق يتحصل له ، أما إذا سلك طريقاً آخر بتفريط منه في العلم ، أو بتركه سبيل الحق بعد معرفته ، فإنه يوكل لنفسه ، ويحرم التوفيق ، والسداد ، أما إذا سلك العبد سبيل الهداية راغباً ، فإن التوفيق على الله جل وعلا ، وعده به الله ، ولا يخلف الله الميعاد ، قال تعالى : "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" فهذا من أسرار هذا الدعاء العظيم ، أن

---

[١] - سورة طه الآية (٥٠) .

[٢] - سورة المائدة الآية (١٦) .

[٣] - سورة المؤمنون الآية (٧٣) .

الهداية إلى أفراد ذلك الصراط ، والصراط هو الإسلام ، الإيمان ، والقرآن ، والسنة ، وسؤال العبد لربه بهذا أن يوفقه ويسدده لسلوك جميع أفراد الصراط المستقيم ، فالهداية إلى الصراط في الفاتحة أخص من الهداية إلى مطلق الإسلام . فهي تعني الالتزام وتمامه ، وحصول التوفيق من الله ، ومعنى التوفيق عند أهل السنة والجماعة : ألاَّ يكل الله العبد لنفسه ، وأن يمده بعون خاص به يكون قوة له على طاعته ، وصرفاً لقلبه عما لا يرضاه .

٤ - وهو أعظم أنواع الهداية ، وأخرها ونتيجتها ، ومحصلها ، وهو هداية المؤمنين إلى طريق الجنة ، وسلوك سبيل الصراط في الآخرة ، كما سلكوه في الدنيا ، فإنهم يهدون إلى السبيل في الآخرة ، لأن بيننا وبين الصراط يوم القيامة دون الجسر ظلمة ، ويُهدى المؤمنون ، يهديهم الله عز وجل إلى الصراط كل بحسب عمله ، قال تعالى : " ..وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ" وهي خاتمة الهدايات لأهل الإيمان .[١]

ومن أكبر وسائل الإيمان كما قال تعالى : "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا .."[٢] "وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا"[٣] "لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ"[٤] هو إيمان الحرب ، والجهاد في سبيل الله ومناسبة المعركة ، هو إيمان التثبيت ، والسكينة ، والطمأنينة ، واليقين ، والأمن الذي ينزله الله في قلوب الصدق والإخلاص في الإيمان الذي يدفع بصاحبه إلى ساحات القتال ، مفتدي بروحه هذا الدين ، ولن يكون الإيمان إيماناً إلا إذا دفع بصاحبه إلى ميدان المعركة ، إلى الجهد ، والجهاد ، إلى الحركة ، والعمل ، والسعي ، ومواجهة المخاطر ، والتأثير في المجتمع ، ومجاهدة النقيض ، فيرسخ الإيمان في القلب وهذا هو الهدى .

---

[١] - شريط / أفمن كان على بينة من ربه ، الشيخ / صالح آل الشيخ .

[٢] - سورة آل عمران الآية (١٧٣) .

[٣] - سورة الأحزاب الآية (٢٢) .

[٤] - سورة الفتح الآية (٤) .

وقال تعالى : " قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ " [١] أي لو اتبعنا طريق الحق ليسره الله علينا ، وزادنا إيماناً ، فأصبحنا ندعو لهذا الطريق ، ولدعوناكم إليه ، وبيناه لكم ، فأصبحنا من الداعين إليه ، وأصبحتم من المستجيبين لنداء الإيمان .

قال تعالى : " وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ " [٢] ومن علامات زيادة الإيمان ، الدعوة للإيمان ، قال تعالى : " وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ " [٣] وقال البخاري : قال معاذ : (اجلس بنا نؤمن ساعة) ، وقال ابن حجر : عن الأسود بن هلال قال : قال : كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه : (اجلس بنا نؤمن ساعة) فيجلسان فيذكران الله عز وجل ويحمدانه . [٤]

ومن زيادة الإيمان الغيرة على الإيمان ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)) [٥] وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بي ، وتصديق برسلي ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ...)) [٦] كل هذه الأحاديث تدل على حقيقة الإيمان ، وزيادة الإيمان من الهداية الربانية التي تزيد في الاعتقاد ، والنطق ، والعمل . ويجمعها قوله تعالى : " الَّذِينَ يَقُولُونَ

---

[١] - سورة إبراهيم الآية (٢١) .

[٢] - سورة غافر الآية (٨٣) .

[٣] - سورة فصلت الآية (٣٣) .

[٤] - فتح الباري لابن حجر (١/٤٥) .

[٥] - رواه البخاري ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١/ ٧٧) باب حلاوة الإيمان برقم ١٦ .

[٦] - رواه البخاري ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١/١١٤) باب الجهاد من الإيمان برقم ٣٦ .

ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار (١٦) الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار "[١] فالإيمان وراء ذلك كله ، حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم : وهو التصديق به عقدا ، والإقرار به نطقا ، والانقياد له محبة وخضوعا ، والعمل به ظاهرا وباطنا ، وتنفيذه ، والدعوة إليه بحسب الإمكان . وكماله في الحب في الله ، والبغض في الله ، والعطاء لله ، والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ، والطريق إليه تجريد متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .[٢]

---

[١] – سورة آل عمران الآيتان (١٦،١٧) .

[٢] – فوائد الفوائد لابن القيم رتبه وعلق عليه وحقق أحاديثه /علي حسن عبد الحميد الحلبي الأثري ، ص ٢٨٦ .

قال تعالى : " إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) "[1]

يذكر الله الحالة الشريفة الفاضلة من أحوال موسى عليه السلام ، وابتداء الوحي ، واصطفاؤه برسالته ، وتكليم الله إياه .

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة موسى عليه السلام ونبوته ، وقصته مع فرعون في أكثر من سورة ، نسبة لعظمة تكليم الله للبشر ، والإعجاز الفوري في تبرئة يد موسى ، وقلب عصاته حية تسعى . ثم الصراع بين موسى وفرعون ، والذي هو من أسباب التكرار لقصة موسى وفرعون في عدد من السور القرآنية إنما هو تذكير للبشر باستمرارية الصراع بين الحق والباطل ، وأنه موجود في كل حيز من الأمكنة إلى يوم القيامة .

ونلاحظ أن قصة موسى ورد ذكرها في مواطن بما يشبه التكرار ، وليس منه ، وقد عرضت القصة في سورتين هما : (النمل) و(القصص) ، وقد نزلت القصص بعد النمل مباشرة في العهد المكي . فلو نظرنا للنصين من السورتين بشيء من المقارنة والتحليل على قدر الإنسان القاصر : النص الأول منهما في سورة النمل :

---

[1] - سورة النمل الآيات (٧ـ ١٤) .

قال تعالى : " إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) "[1]

والنص الثاني من سورة القصص :

قال تعالى : " فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ "[2]

---

[1] - سورة النمل الآيات (٧ـ ١٤) .

[2] - سورة القصص الآيات من (٢٩- ٣٢) .

في هذين النصين اللذين نزل الثاني منهما عقب نزول الأول ، نلاحظ الأمور التالية :

الأول : أن الأول قد تناول فقرات من بعض أحداث قصة موسى عليه السلام ، بدءاً من منزل نزله مع أهله حين كان عائداً من مدين ، وعرضاً قصيراً لجحود فرعون وقومه ، والإشارة إلى هلاكهم عقاباً لهم .

ثانياً : أن النص الثاني تناول فقرات أوسع ، وأطول من حياة موسى عليه السلام ، بدءاً من كونه جنيناً حتى خروجه من مصر خائفاً يترقب ، ثم عودته من مدين بأهله ، وتلقيه رسالة ربه ، ثم دعوته لفرعون وقومه إلى دين الله ، واستكبارهم ، في لمحات سريعات فيها شيء من التفصيل لم يرد في النص الأول .

ومن هذين النصين نلاحظ التدرج التكاملي لعرض القصة مع مراحل التنزيل .

الثالث : في المدة الزمنية الواحدة التي عرضت النصان ، فقرات مهمة تفصيل أحداثها ، فمثلاً :

في النمل قال موسى : " سآتيكم " بأسلوب الجزم ، لا بأسلوب الترجي .

أما في القصص فقد قال : " لعلي آتيكم " بأسلوب التصريح بالترجي .

والعبارتان ترجمة لما قال موسى ، ولا بد أن تكونا متساويتين في الدلالة ، وعلى هذا التقدير فإن موسى قال : " سآتيكم " في اللفظ على سبيل الترجي ، لا على سبيل الجزم في نفسه ، فهو في نفسه يترجى لا يجزم ، فالنص الأول دل على عبارته اللفظية ، والنص الثاني دل على أنه قال مقالته مترجيا في نفسه لا جازماً .

ويعلمنا الله بهذا البيان جواز ترجمة أقوال الناس بمقاصدهم ، إذا علمنا مقاصدهم من أقوالهم بدليل مقارن أو مفصل .

والنصان متكاملان ، ويمكن إضافة ما جاء في (القصص) عقب ما جاء في (النمل) دون حذف شيء .

ونلاحظ أن الله عز وجل بعد أن بين له أنه لا ينبغي أن يخاف لديه المرسلون ، إلا من ظلم ، فإنه يخاف من العقاب ، لكنه إذا بدل حسناً بعد سوء وغفر الله له ، فإنه لا ينبغي له أن يخاف ، ولَّما كان هذا الكلام غير مطمئن تماماً ، قال له بعد ذلك في القصص : " ياموسى أقبلْ ولاَ تَخَفْ إنَّك مِنَ الآمِنِينَ " أي : قد غفرنا لك فكن آمناً ٠

ويتابع البيان في (القصص) فيأتي بتفصيلات أبان الله فيها خوف موسى أن يقتلوه لأنه قتل منهم نفساً ، ودعا الله أن يكون هارون أخوه رسولاً معه ، لأنه أفصح منه لساناً ، وقد وعده الله بإجابة طلبه ٠ ووردة تفصيلات أخرى مما جرى بين موسى وفرعون ، وما كان من فرعون ووزيره هامان الذي أمره ببناء الصرح رجاء أن يطلع على إله موسى ، وما حدث من استكباره هو جنوده ، ثم بيان موجز جداً عن أخذهم ، ونبذهم ، وإغراقهم في اليم ، هذه التفصيلات لم يأت منها شيء في النص من (النمل) النص السابق في النزول ٠

ونلاحظ أن نص (النمل) يختم بتوجيه العظة لكل ناظر بقوله تعالى : " فانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ" وأن نص (القصص) ختم بقوله تعالى : " فَانظُرْ كَيفَ كَانَ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ " فهم مفسدون وظالمون ٠ [١]

وقد جاء في تفسير الآيات : (إذ) ظرف من صلة عليم ، أو (إذ) منصوب بمضمر وهو أذكر ، فربط الآية بسابقتها فخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه فقال : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه ، قصة موسى إذ قال مخاطباً أهله وهو في مسيره من مدين إلى مصر ، وقد كان البرد في ليلة شاتية بعد أن قضى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم فاستأذن شعيباً في الخروج إلى أمه وأخيه ، فخرج بزوجته ، واتخذ غير الطريق مخافة ملوك الشام ، فلما وافى وادي طوى ، وهو الجانب الغربي منه ولد له ولد في تلك الليلة ٠ ويتضح صحة هذه القصة فكنى عن

---

[١] – قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل / عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ص : من (١٢٢-١٣١) باختصار وتصرف ٠

زوجته بلفظ الأهل الدال على الكثرة ٠ فسار قاصداً بلاد مصر بعد أن طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فضل الطريق ، فنزل منزلاً بين شعاب وجبال ، في برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب ، فجعل يقدح بزنده ليتبين له الطريق ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً : أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي كان عن يمينه فقال لأهله يبشرهم : سآتيكم منها بشهاب قبس ٠ وقد ورد فيها كثير من الأقوال بحسب ما جاء فيها من قراءات ، من إضافة شهاب إلى قبس ، من غير تنوين ، وإضافة النوع إلى الجنس ٠ قال النحاس : ممنوع إضافة الشيء إلى نفسه عند البصريين ، والذي عليه القول هو : تنوين شهاب وقبس باعتبار جعله بدلاً منه ٠ ومن هذا يتضح المعنى أن (الشهاب) أريد به غير (القبس) ، لأنه ورد في سورة طه قال تعالى : " إني آتيكم منها بقبس " فحذف الشهاب ٠

وقال الشاعر :

في كفه صَعدَةٌ مثقَّفَةٌ فيها سِنانٌ كشعلةِ القبسِ [١] ،

قال موسى عليه السلام : سآتيكم بشهاب قبس ، أي شعلة من نار ، وهو الجمر الذي معه لهب كما جاء في آية أخرى " أو جذوة من النار " لعلكم تستدفئون ، وهذا فيه دلالة على وجود البرد الشديد ، وقوله (بقبس) دل على وجود الظلام ٠[٢] (سآتيكم) السين تدل على بعد المسافة ، أي آتيكم بشعلة نارٍ مقبوسة ، أي مأخوذة من أصلها ، رجاء أن تستدفئوا بها من البرد [٣] ٠ كانت النيران توقد فوق المرتفعات لتدل السالكين على الطريق في الليل ، حتى إذا جاءوها وجدوا عندها الدفء أو الدليل ٠ فلما جاء موسى وظن أنها نار ، ولكنها كانت نور يخرج من شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها (العليق) ، فكلما ازدادت النار واشتعلت

---

[١] – البيت من شواهد أبي عبيده في مجاز القرآن ، الورقة ١٧٥ ٠ الصعدة : القناة تنبت مستقيمة ٠

[٢] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣/ ١٠٦) ، جامع البيان لتأويل أي القرآن للطبري م١١ (٢١/ ١٦٢) ، تفسير ابن كثير (١٤٤/٤) ، تفسير أبي السعود (٦/٦) ، تفسير سورة طه ٠

[٣] – فتح القدير للشوكاني (١٤٦/٤) ٠

كلما زادت الشجرة خضرة وجمالاً ، فعجب موسى منها ، وأخذ ضغثاً بيده ليقتبس منها ، فمالت إليه ، فخاف موسى وبعد عنها ، فمازال على هذا الحال ، إلى أن بين الله أمرها وأنها مأمورة ، إلى أن نودي " أن بورك من في النار " فناداه الله سبحانه وتعالى بهذا النداء [١] فقيل في معناه : أن بوركت النار ومن حولها ، وهو قول ابن عباس ومجاهد [٢] وقيل : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك لك ، وبارك عليك ، وهو قول الكسائي عن العرب [٣] أي بورك على من في النار وهو موسى . وقال السدي : المقصود موسى والملائكة ، وهي تحية من الله إلى موسى عليه السلام ، وقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير : هو تقديس لله سبحانه وتعالى ، عني به نفسه ، ودليل ذلك ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ، ويرفعه ، حجابه النور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره)) ثم قرأ أبو عبيدة : "أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [٤] [٥] (سبحان الله رب العالمين) خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو جملة اعتراضية ، مقصود بها التنزيه [٦] أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته ، وهو العلي العظيم المنان لجميع المخلوقات ، لا تكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات [٨] وقد جاءت بصيغة البناء للمجهول _ وهو معلوم _ للتوقير والتعظيم قال

---

[١] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٢٦٢٨) .

[٢] – تفسير ابن كثير (٤/١٤٤) ، تفسير سورة طه .

[٣] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، م٧ (١٣/١٠٦) .

[٤] – سورة النمل الآية (٨) .

[٥] – رواه مسلم ، وابن ماجه في سننه ، واللفظ له ، صحيح سنن ابن ماجة للألباني باب فما أنكرت الجهمية (١/٨٤) برقم ١٦٣_ ١٩٥ .

[٦] – فتح القدير للشوكاني (٤/١٤٦) .

[٧] – البحر المحيط ص ٢١٣ .

[٨] – تفسير ابن كثير (٤/٣٥٨) .

تعالى : "يا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ " فجاءه النداء الذي يتجاوب به الكون كله وتتصل به العوالم والأفلاك ، الذي تتصل فيه السماء بالأرض ، وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير ، وترتفع فيه الإنسان النائي الضعيف إلى مقام المناجاة من الله ٠وكان النداء للاصطفاء ، ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة ، فأخذ يُعِدهُ ويجهزه إلى أكبر الطغاة في ذلك الحين ٠[١]

قال تعالى : " يا موسى إنه أنا الله " الهاء في أنه عماد وليس بكناية ، في قول الكوفيين ، والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن ، وعُومِلَ النداء معاملة القول لكونه ضرباً منه ٠[٢] وهو استئناف مسُوق لبيان آثار البركة المذكورة ، والضمير في قوله تعالى : " أنا الله " بيان له (جملة مفسرة له) ، وأما راجع للمتكلم و" أنا " خبره ، و" الله " بيان له ، و" العزيز الحكيم " صفتان لله تعالى ، ممهدتان لما أريد إظهاره على يده من المعجزات ٠[٣] و" عزيز" تعني الذي قهر جميع الأشياء ، وأذعنت له كل المخلوقات ، و" الحكيم " في أمره ، وخلقه ، ومن حكمته أن أرسل عبده موسى عليه السلام ، الذي علم الله منه أنه من أهل رسالته ، ووحيه ، وتعليمه ٠ ومن عزته أن نعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك ، وكثرة أعدائك ، وجبروتهم ، فإن نواهيهم بيد الله ، وحركاتهم ، وسلوكهم بتدبيره ٠[٤] قال تعالى : " وألق عصاك " عطف على بورك ، منتظم معه في سلك تفسير النداء ، كما قال ابن منبه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفعها ، فرفعها ٠ وأمر رسوله بأن يلقيها ليرى من شأنها من الأمور المعجزات ، فألقاها ، فإذا هي حية صفراء ، في غلظ العصا ، ثم انتفخت ، وعظمت ، فأخذت تصول وتجول في خفة وحركة ، كأنها جان ، لا تسكن ، تقلع بأنيابها جذوع الشجر ، وتمر بالصخر فيلتقفها ، عيناه تقدان ناراً ، وقد عاد المحجن منها عرفاً _ مثل شعر النيازك _ فلما رمق ذلك موسى ، ولى مدبراً ولم يلتفت ، لولا أن

---

[١] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٢٩/٤) ٠

[٢] – جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري م١١ (١٦٥/٢١) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٠٨/١٣) ٠

[٣] – تفسير أبي السعود (٧/٦) ٠

[٤] – تفسير ابن كثير (٣٥٨/٤) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٠٨/١٣) ٠

استوقفه نداء الله سبحانه وتعالى " يا موسى لا تخف " وكثرة النداء للتنبيه "إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم" : أي لا تخف من هول ما رأيت ، هذه بشارة لاصطفائي إياك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً ٠ [١] وقيل : يدل على نفي الخوف عنهم مطلقاً ، لكن لا في جميع الأوقات ، بل حين يوحى إليهم ٠ [٢] "إلا" بمعنى لكنَّ ، لأنه لما أطلق نفى الخوف عن المرسل ، كان ذلك مظنة لطرد الشبهة ، فاستدرك ذلك المعنى ، ولكن من فرط منهم بصغيرة مما لا يجوز على الأنبياء ، كآدم ، وداود ، وسليمان ، وإخوة يوسف ، وموسى ٠ قرأ أبوجعفر ، وزيد بن أسلم "إلا" بفتح الهمزة وتخفيف اللام (ألا) ، اللام حرف استفتاح ومن شرطية ٠ أي أن الله محل راحة الأمان وراحة البال ٠ وأن رسلي وأنبيائي لا يخافون عندي إلا من ظلم وفعل خلاف ما آمره به ، ولم آذن له فيه ، فمن يذنب يخيفه الله بذنبه حتى يأخذه منه ٠ [٣] و الظلم قصد به التعريض لما وقع من موسى عليه السلام في وكزه للقبطي ، واستغفاره بقوله " رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ " [٤] وفي قوله تعالى : "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى " [٥] ٠ [٦] قال تعالى : " ٠٠ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " [٧] وفي هذا الخطاب استثناء مع البشارة العظيمة ، والوعد من الله سبحانه وتعالى بالغفران لمن عمل سيئاً ثم تاب من بعده فإن الله يدخله في حيز الآمنين من المرسلين ٠ وقال قتادة : استثناء منقطع ، وقيل : استثناء من محذوف ، والمعنى أنه لا يخاف

---

[١] – المرجع السابق ٠

[٢] – تفسير أبي السعود (٢٧٤/٧) ٠

[٣] – الزمخشري

[٤] – سورة القصص الآية (١٦) ٠

[٥] – سورة طه الآية (٨٢) ٠

[٦] – تفسير أبي السعود (٢٧٤/٦) ٠

[٧] – سورة النمل الآية (١١) ٠

لدي المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم . وقال الفراء : بعض النحويين يجعل " إلا" بمعنى الواو ، أي ولا من ظلم كما في البيت :

وكل أخٍ مفارقهُ أخوهُ لعمر أبيك إلاَّ الفرقدان

قال النحاس : هذا الرأي لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام ، وفي الآية قول آخر : وهو إن الاستثناء متصلاً ؛ إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد سوى ما ذكره الله عن نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ" [١] ذكره المهدوي ، واختاره النحاس . [٢] ومن هنا يتضح أن المعنى وإن خص به الرسل والأنبياء إلا إنه يشمل جميع خلق الله ، من ارتكب إثماً ثم تاب ، وعمل صالحاً فإن الله ساتراً له ، غفور لما بدر منه ، ويشمله بعفوه ، وترك عقوبته لقوله تعالى : " إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً " [٣]

قال تعالى : " وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ " [٤] هذه آية أخرى إلى موسى في نفس المقام ، حيث أمره الله أن يُدخل يده في جيبه ، ويخرجها ، فإذا هي مبرأة من العلة التي كانت فيها . وقيل : هي علة البرص ، وهذا دليل باهر على قدرة الله ، فأخرجها فإذا هي ساطعة لامعة تلألأ كالبرق الخاطف ، وكأن الله يقول له : خذ هاتان الآيتان من تسع أخر ، أويدك بهن ، إلى فرعون الذي طغى وتجبر هو وقومه ، [٥] وكانوا كافرين . قال تعالى : " اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ

---

[١] – سورة الفتح الآية (٢) .

[٢] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٦٧/١١) .

[٣] – سورة الفرقان الآية (٧٠) .

[٤] – سورة النمل الآية (١١) .

[٥] – تفسير ابن كثير (٣٥٨/٤) .

إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين " [١] وقد جاء في تعداد الآيات التسع من خبر يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : " تسع آيات إلى فرعون وقومه " قال : هي التي ذكرها الله في القرآن : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والطوفان ، والدم ، والحجر ، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم . [٢]

قال تعالى : "فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين (١٣) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " [٣] فلما ظهرت آيات الله على الأرض وبينت الإعجاز الرباني ، وكان ذلك واضحا جليا مما لا يرتاب فيه العقل ، والمشاهدة المبصرة . قال فرعون وبعض قومه : هذا سحر مبين كعادة المشركين عندما يعجزوا عن الإتيان بنظير ما أتى به الله ، نسبوا هذا الشيء إلى السحر ، ونفوا إتيانه من عند الله سبحانه وتعالى ، وأرادوا مع ذلك معارضته بنفس المسمى وهو السحر ، وأتوا بالسحرة ، ولكن الله غلبهم ورجعوا ناكسو رؤوسهم ، وفي قرارة أنفسهم الاستكانة والذل لعلمهم وتيقنهم أنه من عند الله ، ولكن في الظاهر ظلوا على جحودهم ، وإنكارهم تكبرا منهم عن اتباع الحق ومعاندة عن اتباعه ، فلم يكن إلا أن أغرقهم الله جميعا فليعتبر قومك يا محمد بذلك . [٤]

---

[١] – سورة القصص الآية (٣٢) .

[٢] – جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري م١١ (١٧٠/٢١) برقم ٢٠٤٤٤، و تفسير أبي السعود ، وتفسير ابن كثير .

[٣] –سورة النمل الآية (١٤) .

[٤] – تفسير ابن كثير (٣٥٨/٤) .

الفصل الثاني :

القصص في القرآن الكريم .

المبحث الأول : أنواع القصص والحكمة من ذكرها .

المبحث الثاني : علم سليمان وجندية الإنس والجن له .

المبحث الثالث : هل التعامل مع الجن اختص به سليمان عليه السلام أم سائر البشر .

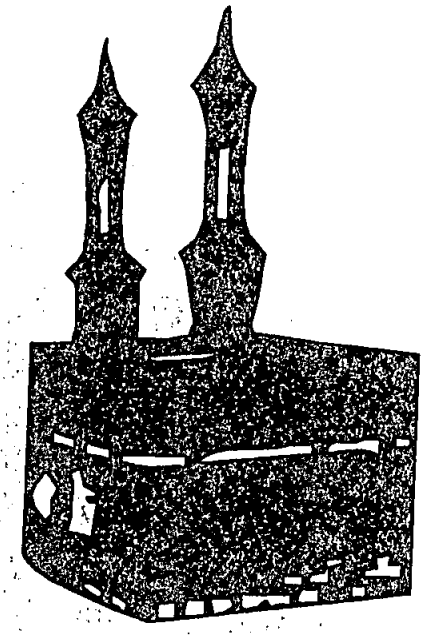

المبحث الأول : أنواع القصص و الحكمة من ذكرها ٠

لاشك أن الله هو خالق الإنسان وهو أعلم بفطرته وطبيعة ميوله إلى الأحداث التي ترتبط بالأسباب والنتائج على سبيل السرد القصصي ، والذي غالباً ما يشتمل على غرابة الأحداث والأخبار ، فتهفو النفوس إلى سماعه ، وتصغي إليه في شغف ولهفة ، مما يكون له الأثر من ترك بصمات العبرة والعظة في النفس خاصة ، وأنها قصص ربانية لا ينتابها الشك من عليٍ قدير٠

القص ؛ هو تتبع الأثر ، والقصص مصدر منه ، قال تعالى : "فارتدا عَلَى آثارِهِمَا قَصَصاً "[١] : أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به ٠ وقال تعالى على لسان أمِّ موسى : "وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ "[٢] أي : تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه ٠

والقصص كذلك : الأخبار المتبعة ؛ قال تعالى : "إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الْحَقُّ "[٣] وقال : "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَابْ "[٤] ٠

والقصة : الأمر والخبر والشأن والحال ٠

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة ٠ وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي وتاريخ الأمم ، وذكر البلاد والديار ، وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة خاطفة لما كانوا عليه ٠

---

[١] – سورة الكهف الآية (٦٤) ٠

[٢] – سورة القصص الآية (١٠) ٠

[٣] – سورة آل عمران الآية (٦٢) ٠

[٤] – سورة يوسف الآية (١١١) ٠

وقد عرض القرآن القصص في نماذج منها :

الأول - قصص الأنبياء : وتعرض دعوة كل نبي إلى قومه ، وما لاقى من صنوف المعاندة ، والمكابرة من قومه ، وكيف أوذي فصبر ، حتى أجرى الله على يده المعجزة التي تؤيد رسالته ، ونصرته على الحق ، وعاقب المعاندين ، المكابرين ، المكذبين ، كقصة موسى وفرعون ، وقصة نوح ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الثاني - قصص أحقاب ماضية : الغرض من ذكرها أخذ العظة والعبرة ، وأحياناً لبيان فضل الله وتكريمه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هذه القصص من لم تثبت نبوتهم ، مثال : طالوت وجالوت ، وأهل الكهف ، والخضر ، وذي القرنين ، ومريم ابنة عمران ، وغيرهم .[1]

وللقصص في القرآن فوائد ، ومنافع جمة . قال تعالى في كتابه الكريم : "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ"[2] وقال : "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"[3] وهذا وصف من الله سبحانه وتعالى ، يدل على أنها أصدق القصص ، وأبلغها ، وأنفعها للعباد ، فلا بد من ذكر منافع القصص .

منافع القصص في القرآن الكريم :

أولا : (أن بها يتم ويكمل الإيمان ، وهو ركن منه ، ألا وهو الإيمان بالرسل والكتب السماوية . فالتفصيل المستفاد من القصص ماوصفهم الله به من الصدق ، والفضل ، والإيمان على جميع أنواع البشر ، وما سخر لهم من الحيوانات ، والجمادات ، وبيان اختلاف معجزاتهم ، وكل هذا

---

[1] - مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٦ .

[2] - سورة يوسف الآية (١١١) .

[3] - سورة يوسف الآية (٣).

من موارد زيادة الإيمان ٠ وتقرير التوحيد وإخلاص العمل ، واليقين باليوم الآخر ، وكره الشرك ، والفسوق ، والعصيان الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة ٠

ثانياً : بيان أسس الدعوة وأصول الشرائع التي أسسها ومآلها (لا إله إلا الله) قال تعالى : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ "[1]

ثالثاً : تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ٠ وكذلك أمته من بعده ، وتقوية إيمانهم ، وثقتهم بنصرة الحق ، وخذلان الباطل ، قال تعالى : "وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ "[2]

رابعاً : لما فيها من الفوائد الفقهية ، والأحكام الشرعية ، والوعظ ، والتذكير ، والترغيب والترهيب ، والفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدنيا

خامساً : القصص ضرب من ضروب الأدب التي يهفو إليها السمع ، وتعتبر بها النفس وأخذ المؤمنين العبرة منها ، والاقتداء بالرسل في الصبر ، والثبات عند النوائب ، ومقابلته بالطمأنينة ، والثبات) ٠[3]

وكثيراً ما تكرر قصص ما سبق من الأنبياء في القرآن خلافاً عن غيرها من القصص ، وذلك لضرب مثل حي لتكرار طريقة البعث ، والمعانات التي اتسمت بها حياة هؤلاء الأنبياء ، الذين كانوا يبعثون على مدار التاريخ إلى الناس ، فيجاهدون ، ويصبرون ، ويصابرون ، فكانوا منارات يهتدى بها في الظلمات ، ورحمة تنزل على البشر لتخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن دياجير العمى والضلالة إلى نور الهدى والبصيرة ، فتحملوا ما لاقوا وصبروا على الأذى من

---

[1] – سورة الأنبياء الآية (٢٥) ٠

[2] – سورة هود الآية (١٢٠) ٠

[3] – قصص الأنبياء للسعدي ص ٧ ، و مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣١٧، ٣١٨ ٠

أقوامهم ، وهم لا يرجون من الناس جزاء ولا شكورا ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وإنما كان همهم أن يعبد الناس ربهم جل وعلا . فقد كان كل واحد منهم يبعث على حين فترة من الرسل في قومه ، فيناديهم ليلاً ونهاراً ، ويخاطبهم سراً وجهاراً ، ويحتمل في سبيل دعوته إلى ربه ما يعانده به قومه من صدود ، وتكذيب ومجادلة ، وأذية ، فكان لهم الذكر الحسن في هذه الدنيا .

والمسلم الصادق المخلص هو الذي يهش لذكرهم ، ويفرح بحديثهم ، ويمتلئ قلبه بحبهم فيثني عليهم ، ويصلي عليهم ويسلم كلما ذكروا ، وما أعد الله سبحانه وتعالى لهم في الدار الآخرة من المنازل والدرجات العلى من الجنة ، وما لا يخطر على بال .

وعدد الأنبياء والرسل نحو (ثلاثمائة وعشر) كلهم رفعوا راية الإصلاح في مجتمعات سيطر عليها الفساد بكل صوره ، وألوانه ، ولم يكتفوا بمجرد صلاح أنفسهم ، بل صدعوا بدعوة الحق مدوية في أممهم المنحرفة عن التوحيد والهدى ، فبعثوا جميعاً إلى أقوامهم دعاة إلى دين الله الحق ، مجاهدين في سبيله ، هادين إلى صراطه ، وقد حمل كل نبي راية الإصلاح في مجتمع ضال منحرف من قوم تأصلت في قلوبهم عقائد منحرفة فصارت مألوفة لديهم ، وجزءا من حياتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، فيأتي النبي أو الرسول لينكر عليهم ما كانوا يفعلونه ، قال تعالى : " أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ " [1] فماذا لاقى هؤلاء الرسل من أقوامهم ؟! فما كان من كل قوم إلا أنهم لم يتركوا أسلوباً من أساليب الحرب والصد والتعذيب والتنكيل إلا سلكوه ضدهم . فكانوا وحوشاً شرسة يطاردون كل نبي ، ويصفونه بأنه مفارق لدينه ، أي يدين بدين ابتدعه لا يعرفه

---

[1] - سورة الأنبياء الآيتان (٦٦، ٦٧) .

قومه ، ولا آبائه ، وعشائرهم ، ليردوه عنه ، وواجهوا حملات تسعى للتشكيك في ثبات أنبياء الله ، ومقاصدهم من دعوتهم ، والتشكيك في مناهجهم ، ووسائلهم في مستقبلهم ، كقول فرعون لموسى ، قال تعالى : "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ" [١] ، وكذلك قال آزر لابنه إبراهيم ، قال تعالى : "أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا" [٢] وكذلك رسولنا الكريم ، قد لاقى من مشركي قريش لمَّا جهر بدعوته ، من الحملات ، والمؤامرات ما كشف الله ستره ، فقال تعالى : " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [٣] وكذلك قوم صالح عليه السلام كان شأنهم ، قال تعالى : "قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" [٤]

من أجل ذلك كله أراد الله للمصلحين ، الصالحين ، المؤثرين في مجتمعهم ، وأقوامهم ، أن يعتبروا ، ويتأسوا ، ويتبعوا ، ويحذو حذو أنبيائهم ، ورسلهم ، وألا يكونوا مصلحين لأنفسهم فقط ، وأن يقاوموا الفساد ، ويحاربوه ، ويدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة ، وبالموعظة الحسنة ، وألا يتخذوا الصمت ديدناً لهم ، بل طريق الدعوة وتجديدها ، والتضحية في سبيلها بالمال ، والنفس . هذا هو طريق الصحابة رضوان الله عليهم ، الذين ما تركوا أسلوباً من أساليب الحرب والذود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سلكوه .

فالإسلام اليوم ليس مجرد شعار يرفع ، وإنما هو حقيقة ، وقضية يجب أن تعاش ، ولا بد أن تحمل الحقيقة ، وتبنى قضايا الأمة ، والدعوة إلى الحق الذي يقتضي صياغة الحياة كلها وفق

---

[١] - سورة الشعراء الآيات من (٥٤ - ٥٦) .

[٢] - سورة مريم الآية (٤٦) .

[٣] - سورة الأنفال الآية (٣٠) .

[٤] - سورة النمل الآية (٤٩) .

شريعة الله من جديد ، ولنا في الأنبياء والرسل أسوة حسنة ، في مواجهة أنظمة الغرب التي تضرب في بلدان العالم الإسلامي ، وأن تتمسك بالشريعة وأحكامها ، ونظمها الإسلامية ، من الكتاب والسنة ، وأن تكون حياتنا عبادة الله وحده في كل الأمور ، والحكم بغيره كفر ، وظلم ، وفسق ، ونقص ومنازعة الله في أمره ومحادة له في حكمه .[١]

---

[١] - العبر والعظات من ذكر قصص الأنبياء / محمد السيد .

المبحث الثاني : علم سليمان وجندية الإنس والجن له ٠

جاءت قصة سليمان لتكملة الحلقة التي بدأت بقصة موسى عليه السلام ، وكل من نبي من أنبياء بني إسرائيل ٠ وقد بدأت السورة بالحديث عن القرآن الذي قال الله فيه : "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"[1] وقد بسط الله سبحانه وتعالى قصة سليمان عليه السلام في هذه السورة ، وخصها بسيرته ، وسرد فيها من وقائع حلقات حياته ، وقصته مع الهدهد ، وملكة سبأ ، وقد مهد لذلك بما أعلنه سليمان للملأ من تعليم الله له واختصاص علمه بمنطق الطير ، وشكره الله على هذا الفضل ، وتسخير الإنس والجن ، والطير كجنود له وحاشية ، وفهمه كلام النمل ، وخوفه من الابتلاء في هذه النعمة ، وتذكر هذا ومقابلته بالشكر حتى لا تكون عليه وبال ٠

وهذه الحقبة من أهم الحقب في حياة بني إسرائيل ، وهي فترة نبوة موسى ، وداود ، وسليمان ، وارتكزت هذه الحقبة في سورة النمل على الإعجاز العلمي ، لما جاءت به الآيات الصريحة في قوله تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا" وكذلك العلم الذي صرحت به الآيات ، مما استأثر بعلمه الله في قوله تعالى : "الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ" ٠ والربط بين ما افتتحت به السورة من الآيات التي تتحدث عن الشرك وتكذيب المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من الآيات التي جعلت ملكة سبأ وقومها يَسْلِمون ، لما فيها من الإعجاز بما سخر الله لسليمان بقدرته سبحانه وتعالى ، وما أظهر له من نعمة العلم والملك ، والنبوة ، مع تسخير الجن ، والطير مما لايقدر عليه أحد من البشر ، ولا ملك في هذه الدنيا ، مهما

---

[1] - سورة النمل الآية (٧٦) ٠

تعاقبت عليه الحقب ، ومضت السنون والدهور ، مما يبين تفرد الخالق ، وعظمته ، ووحدانيته في ملكه ٠

وقد حظيت السورة بإيراد جزء كبير من المعجزات التي أجراها الله على أيد سليمان عليه السلام ، والتي قادة أعظم ملكة ، ومالها من السلطان ، والجاه ، أن تؤمن في زمن وجيز ، ومكمن هذه المعجزات هو معجزة العلم التي هي من الإعجاز القرآني ٠

وبرز العلم الذي أتاه الله لداود وسليمان ، ما كان علماً لائقاً به من علم الشرائع ، والأحكام ، كصنعة لبوس لداود ، قال تعالى : "وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ" [1] وعلم سليمان منطق الطير ، وشرّف به نبوته ، وتنبهه بهذا العلم مضافاً لما كان في السورة من علم الله المطلق بالظاهر ، الباطن ، والآيات التي تصف خلق الله وآياته الكونية التي تناولتها العلوم بالتحليل ، والتفحيص ، والتمحيص ، من أنهار ، وجبال ، وبحار ، ورياح ، وأشجار ، ونظريات اقتصادية تضمن عدم انعدام القوت ، والسماء ، وما فيها بمحاولة الكشف عن الكواكب ، والأرض بما اكتشف فيها ، وما لم يكتشف ، والبحث عن خزائن الأرض من كنوزها الناضرة ، من ذهب ، وبترول ، وحديد وغيره ، كل هذه المجهودات الجبارة مع عدم مجرد المحاولة من أحد لخلق جزءٍ صغير من هذه الآيات الكونية مهما تقدم العلم ، وهذا فيه إثبات القدرة لله سبحانه وتعالى مع الوقوف بالدهشة أمام هذه الآيات ، مما يدل على الوحدانية ، وترسيخ العقيدة ٠

كما عرضت السورة من أهوال القيامة ، والتي تتسم بسمة الترهيب ٠ وعلامات الساعة ، كخروج الدابة ، والنفخ في الصور ، وفزع جميع الخلائق ، وسير الجبال التي هي أعمدة وأوتاد هذه الأرض التي تحمل عليها الماء والخلق ، ووجوب الشكر على هذه النعم من كل إنسان ،

---

[1] - سورة الأنبياء الآية (٨٠) ٠

والتضرع لرب العزة لقبوله كما فعل سليمان . وينتهي المشهد بوقوف الخلق أمام خالقهم ، الشاكر والجاحد ، الذاكر والغافل ، العابد والمفرط والكل يحاسب على أعماله ، قال تعالى : " وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ " فيكون حال المفرطين النار ، وجزاء العاملين من المؤمنين القانتين الصابرين المنفقين المستغفرين رياحين الجنة ، وكل هذه المشاهد تدعو للإيمان والعمل بما أمر الله ، واجتناب ما نهى ، وبها من المشاهد والإعجاز مما يجعل ارتباط ما اختص به سليمان عليه السلام ، والمواضيع المشتملة عليها السورة ابتداء من افتتاحية السورة بالحروف المقطعة . قال تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا" هذا كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أن أمة محمد عليه الصلاة والسلام تلقى القرآن من لدن حكيم عليم كما سبق ذلك في قصة موسى عليه السلام ، والقسم دليل على أهمية الأمر والتنبيه لمضمونه ، أتينا كل واحد منهما طائفة من العلم المعجز الذي يليق به من علم الشرائع والأحكام . وقد سبقت بداية هذا المقطع آية : "إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" فقد وردت في أكثر من موضع في القرآن ، ولكنها دائماً مقترنة بصفة بني إسرائيل ، وإذا كان الكلام عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ جاءت الآية " بما كانوا يعملون " ذلك لأن بني إسرائيل اختلفوا في كتابهم وفي تصديقهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو أكثر ما يحاسبوا عليه ، وأمة محمد أكثر ما تحاسب عليه هي أعمالهم .[1]

قال تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا" قال قتادة : فهماً ، وقيل : علماً الدين والحكم ، والمقصود أن الله آتاهما النبوة والخلافة في الأرض ، وعلمهما الزبور .[2] وقال الشوكاني : لقد أتيناهما علماً فعملا له ، وعقدا العزم على فعل الطاعات ، وترك المعصيات .[3] قال تعالى : "

---

[1] – روح المعاني للألوسي (١٠/ ١٦٤) ، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (٥ /٢٦٣٢، ٢٦٣٣) .

[2] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣/١١٠) .

[3] – فتح القدير للشوكاني .

وقالا الحمد لله" فحمدا الله ، دليل على شرف العلم ، وتشريفه لأهله ، ومن يؤتى العلم فقد أوتى خيراً كثيرا ، وقابلا تلك النعمة بالشكر والخضوع لله واعتبرا أن العلم أساس الفضل دون غيره مما وهبهما الله من نعمة الملك العظيم ، وفيه حث للعلماء على أن يقابلوا النعم بالشكر والامتنان لله ، وأن يتواضعوا له ، وأن يتذكروا قوله تعالى : " وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً "

وقد ورد ذكر داود ، والمراد قصة سليمان ، وما ذكر سليمان عليه السلام إلا واقترن مسبقاً بذكر داود مما يؤكد امتداد حلقة ملك داود بملك سليمان ، ونبوته ، وميراثه ، فملك داود كأنه امتداد الحكم وملك واحد ، أي ميراث النبوة والحكم من داود ، ما آتاه الله من نعم جليلة صارت إليه ، ولم يقصد به ميراث المال ، لأن سليمان لم يكن ابن داود الوحيد ، بل كان له أبناء أخر ، أومن باب ميراث العلماء الأنبياء ، بدليل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العلماء ورثة الأنبياء " [١] وسمى ميراثاً تجوزاً ، فقام بعده بنبوته . [٢]

وقول سليمان في قوله تعالى : " يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ " والغرض من تشهير سليمان بما حباه الله به من نعمة العلم ، تعظيماً لقدرها ، وشرفها ، ودعاء الناس للتصديق بنبوته ، بذكر المعجزات التي أجراها الله على يده ، لا افتخاراً ولا تكبراً . [٣]

---

[١] - أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((.. إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب كتاب العلم باب الترغيب في العلم وطلبه (١/١٠٥) برقم ٦٧ .

[٢] - اتحاد الأحكام (١٣/١١٠) .

[٣] - روح المعاني للألوسي (١٠/ ١٦٤) .

وبجمل القول : أن الله قد منَّ علينا بكرمه وفضله ، أن فهمنا معاني أصوات الطير التي في نفوسها ، وقد ذكر النمل ضمناً من هذه الطيور ، وأتانا من كل شيء تدعو الحاجة إليه ، من الضروريات ، كالعلم ، والنبوة ، والحكمة ، والمال ، وتسخير الجن ، والإنس ، والطير ، والرياح ، والدواب • والمراد من كل نوع طائفة • وقد جاءت بصيغة نون العظمة لكونه مطاعاً لا يخالف ، لا تعظيماً • [١]

ولا يتعارض ذكر النمل ضمن الطير ، فكثير منه له أجنحة ، ولأن لها أجنحة صارت من الطير • [٢] وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاجة لها • [٣] والواضح إن بعض النمل له أجنحة ، ولكن المقصود أن النمل ضمناً من جملة الحيوانات التي تعلم سليمان فهم كلامها •

وقيل إنما خص الطير بالذكر لأنها كانت تظلله من وهج الشمس ، وقال ابن العربي : إنه يفهم كلام من لا يتكلم حتى النبات ، ومن يقل إنه لا يفهم إلاَّ منطق الطير فنقصان عظيم • [٤] فيظهر ما علمه من منطق الطير ، ويجمل بقية النعم ، مع إسناد المصدر الذي علمه منطق الطير ، وإنه ليس داود ، ويخص هذا التفضل على تفرد الخالق بخلقه ، وتفرد سليمان بتعليمه • [٥]

فجعل الله لسليمان معجزة فهم الطير والبهائم والحشرات ، وقيل : إنما خص الطير لأجل سوق قصة الهدهد بعدها • وهذا أقرب •

قال تعالى : "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ" [٦]

---

[١] – فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٢٩) – (١٧/٤) •

[٢] – تفسير ابن كثير ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١١٠/١٣) • ، فتح القدير للشوكاني (١٢٩/٥) •

[٣] – تفسير ابن كثير (٤ /) •

[٤] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣/ ١١٢) •

[٥] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٣٤/٥) •

[٦] – سورة النمل الآية (١٧) •

أي جمع لسليمان جنوداً هائلة متنوعة ، من البشر ، ومن الجن طائعين ، ومردة وشياطين ، قال تعالى : " وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ " [١] وكذلك الطيور تظلله في ذهابه ، وإيابه ، فكان ركْبٌ فيه من العظمة ما فيه ، كان الإنس يلونه في مسير الركب ، ثم الجن من بعدهم ، ثم الطيور فوق رأسه تظله فإن كان حر الشمس فردت أجنحتها فأظلته . موكب فريد لم يسبق من قبل ، ولن يتكرر من بعد ، لأنه استجابة لدعاء سليمان حين قال : " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي " [٢] وكان الركب يرد أولهم على أخرهم رغم اختلاف خلقهم ، ونوعهم ، غاية التنظيم في سيرهم ، لا أحد يخرج من مكانه ولا يتزحزح عن منزلته . تدبير عجيب ، ونظام غريب ، كل هذه الجنود مؤتمرة بأمره ، لا تستطيع أن تعصيه ، ولا أن تتمرد عليه ، كما في قوله تعالى : " هذا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " [٣] وقال تعالى : " وَمَن يَزُغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ " [٤]

فالإعجاز هو أن الآيات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه مهما بلغ الإنسان من العلم والقدرة ، ومهما بلغ الملوك من التعظيم ، وامتداد السلطان ، وعلو الشأن ، فلم تتجرأ البشرية أن تخترق حدود القدرة الإنسانية عبر السنين والدهور ، على اختلافهم ، عجمهم وفصحائهم ، مسلمهم وكافرهم . أن يمتلك جنوداً كجند سليمان ، مختلفي الأشكال ، والطبائع الخَلْق و الخُلُق في جيش واحد .

---

[١] – سورة الأنبياء الآية (٨٢) .

[٢] – سورة ص الآية (٣٥) .

[٣] – سورة ص الآية (٣٩) .

[٤] – سورة سبأ الآية (١٢) .

قال تعالى : "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[١] ولما سار سليمان بجيشه أتوا على وادي النمل ـ وقد سمي باسمهم ـ فخافت النملة أن تحطمها الجيوش ، والخيول بحوافرها ، فأمرت قومها بالدخول في بيوتهم .[٢] وعبارة " وهم لا يشعرون " إما أن يكون اعتذارا لسليمان وركبه من تعمد الاعتداء على الآخرين بسبب التقوى ، وإما لصغر حجمها أمامهم ، وعدم رؤيتهم لها أثناء السير . وقال ابن القيم : " قولها جمع عشر أنواع من الخطاب في هذه النصيحة ؛ النداء ، والتنبيه ، والتسمية ، الأمر ، والنهي ، والتحذير ، والتخصيص ، والتفهم ، والتعميم ، الاعتذار . لذلك تبسم ضاحكاً من قولها ، ولأنه أعجب بأدبها في خطابها ، وتعجب من قولها ، فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته بتفهيمه لغة غير جنسه .[٣]

قال تعالى : "... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"[٤] أي : رب وإن كنت مقصراً في العمل ففضلك هو سبب الفوز بالخير ، وهذا دليل على أن دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله ، لا بالعمل ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، فيما ثبت في الصحيح : ((سددوا وقاربوا واعملوا ، إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ((ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله برحمته))[٥] وربما يكون تضرع سليمان ومقابلته النعم بالشكر لأن الله سبحانه وتعالى قال : "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

---

[١] - سورة النمل الآية (١٨) .

[٢] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧(١٣/١١٠) .

[٣] - تأملات ابن القيم في الأنفس والآفاق / أنس القوز ص١٦٧ ، ومفتاح دار السعادة .

[٤] - سورة النمل الآية (١٩) .

[٥] - رواه مسلم ، شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/٢٣٤) ، باب لا يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالى ، برقم ٧٥

عَذَابِي لَشَدِيدٌ "[١] وكفران النعم يذهبها ، قال تعالى : "فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ "[٢] وكان رسول الله يدعو : ((اللهم أعني ولا تعن عليَّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ ، واهدني ، ويسر هداي إليَّ ، وانصرني على من بغى عليَّ ، رب اجعلني لك شاكراً ، لك ذاكراً ، لك راهباً ، لك مطواعاً ، إليك أواهاً منيباً ، رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، واهد قلبي ، وسدد لساني ، واسلل سخيمة[٣] قلبي)) [٤] فمهما بلغ العبد من العبادة فإنه لن يستوف من نعم الله عليه شيئاً ، ولكن لابد من تذكر نعم الله ومقابلتها بالشكر الذي يكون قولاً باللسان ، وعملاً بالجوارح والأركان ، من فعل الطاعات ، وترك المنكرات .

قال تعالى : "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ "[٥] وهذا ما يفعله الصوفية _ الصوفية الحقة وليس المبتدعة _ إذا فقدوا آمالهم تفقدوا أعمالهم ، هذا في الآداب ، فكيف بنا ونحن نقصر في الفرائض .[٦] من المعلوم إن المؤمن المحقق للمعية ، المراقب لربه يحذر الوقوع في المحرمات ، ويدرك تقصيره في المندوبات ، يحاسب نفسه على الغفلات ، وما أصابه من خير أو شر إلا أسنده إلى عمله ، مستنداً على قوله تعالى : "ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ "[٧]

---

[١] - سورة إبراهيم الآية (٧) .

[٢] - سورة الأعراف الآية (٩٩) .

[٣] - قال النووي في كتاب الأذكار : السخيمة هي الحقد ، وجمعها سخائم . صحيح كتاب الأذكار للنووي (٩٥٢/٢)بقلم سليم الهلالي .

[٤] - رواه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه كتاب الدعاء ، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٥٣/٣) برقم ٣١٠٣-٣٨٩٨ ، وصححه الهلالي في صحيح كتاب الأذكار للنووي (٩٥١/٢) برقم١٢٠٣-٩٤٩ .

[٥] - سورة النمل الآية (٢٠) .

[٦] - أحكام القرآن لابن العربي (١٤٥١/٣).

[٧] - سورة الحج الآية (١٠) .

ويتضح من الآية أن سليمان أحس بعظمة ملكه حين خاطبته النملة ، وفهم قولها ، وفي حينه طلب من ربه أن يلهمه شكر نعمته ، والواو إذا كانت حرف عطف أو واو حالية فهي تدل على إنه لم يمض وقت كبير بين قول النملة وطلبه لربه أن يعينه على ذلك ، وإن تفقد الطير موضوع آخر ليس ثمة علاقة بما مضى من عدم شكر سليمان ، وليس في الآية مايدل على الحسرة والندم على عدم الشكر ٠

قال مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس : كان الهدهد مهندساً يدل سليمان على مكان الماء إذا خرج في فلاة ، فيأمر الجن فتحضر له فتنبسط من قرارها ٠ [١] فتفقد الطير ، ولم يجده ٠ قيل لدقة ملاحظته ، وقوة ملكه ، وإلمامه بالصغائر في أحوال رعيته ، وأن سليمان تفقد موكب جنده الذي أختير الهدهد للسير فيه ٠ [٢] وقيل : كان يأتيه كل نوب صنف من الطير ،كل يوم طائر ، فنظر فلم ير الهدهد ٠ [٣] وقيل : الطير كانت تظلله كالغمامة فلما طار الهدهد أصبح مكانه أصابته الشمس ، فتفقده فلم يجده ٠ [٤] وقول ابن كثير أقرب للمراد لأن كلمة تفقد : أي بحث عنه في مجموعة بإمكانه أن يلاحظ غيابه ٠

قال تعالى : "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

---

[١] - تفسير ابن كثير (٣٦٠/٤) ٠

[٢] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٣٤/٥) ٠

[٣] - تفسير ابن كثير (٣٦١/٤) ٠

[٤] - أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٥٤) ٠

لأعذبنه : بنتف ريشه ، وتشميسه ، أو لأذبحنه ، أو يأتي فيبين سبب غيابه بعذر مقبول . قال تعالى : "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ" أي لم تمض فترة طويلة على غيابه حتى حضر الهدهد ، وهذا المعنى في تفسير أكثر المفسرين ، ولكن ذكر أن المعنى غير بعيد : أي أنه الهدهد كان جريئاً شجاعاً ، فوقف بالقرب من النبي الملك ، ولم يهابه في الحق ، وقول الصدق ، ولم يكن سليمان يتجبر تجبر الملوك ، وعنجهية السلطان فيضع حاجزاً بين قول الحق ، وإبداء الرأي ، وتحقير الرعية ، وترهيبهم .[1] فقال في ثبات : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جندك ، وجئتك من سبأ (مأرب) بخبر أكيد ، عن امرأة هي ملكة في قومها ، ولها ملك وعرش له من العظمة لمكان ؛ وجاءت عظمته مما كان مرصع به من الجواهر واللآلئ . وهؤلاء القوم يعبدون الشمس ، ويسجدون لها ، وأضلهم الشيطان عن معرفة الحق ، فلم يهتدوا إلى أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي ينبغي له السجود والعظمة ، ولا يكون لأحد غيره .

قال الحسن البصري : هي بلقيس بنت شراحيل ، وأمها جنية ، وكان لها جيش ضخم من رجال أقوياء الأجسام ، ضعاف العقول ، ولها مجلس شورى مكون من ثلاثمائة واثني عشر رجلاً ، كل رجل على عشر الآف رجل .

وقد ذكر الهدهد صفات الله سبحانه وتعالى وما لها من العظمة والإجلال ؛ تعجباً وتعقيباً لما رأى من هول الكفر ، وعمى الضلال عند أولئك القوم ، رغم قوة ملكهم ، وعظمة سلطانهم . وضرب مثل من واقعه إذ كان ينظر إلى الماء تحت الأرض وأن الله خصه بذلك لا ينازعه في ذلك أحد ، فقال الهدهد ، قال تعالى : "أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ" والخبء : هو الماء تحت الأرض ، وذكر صفة عرش الرحمن لأنه بيَّنَ عظمة عرش بلقيس ، فكأنه يصف فارق

---

[1] – الدكتور طارق السويدان في شريط قصص الأنبياء .

العظمة ؛ عظمة عرش الرحمن التي توجب الخضوع ، والرهبة ، والعبادة له وحده [١] ويمتاز هذا الهدهد بالفطنة والذكاء ، مما أعده الله فيه خاصة لخدمة سليمان عليه السلام [٢]

(ألاَّ يسجدوا) جعل (ألا) الاستفتاحية و(ياء) للنداء ، وحذف المنادى تقديره (ألا يا قوم اسجدوا لله) ، وقيل : معناها (لئلا) فهم لا يهتدون لله و(لا) زائدة ، وهي جملة اعتراضية [٣] ويتضح من سياق الآية أنه استفهام إنكاري .

ومن تعجب الهدهد لهؤلاء القوم نجد قاعدة من قواعد الدعوة إلى الله ، هي أن تبدأ بالأهم ثم المهم ، ومن أهم ما يجب أن يدعو إليه الداعية هي العقيدة ، توحيد الله ، لا إله إلا الله ، نلاحظ هذا في كثير من آيات القرآن ، عندما يبدأ الرسول دعوته لقومه ، فإنه يبدأها بقوله : " اعبدوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيرهُ " [٤] وقال تعالى : " ولقدْ بَعَثْنَا فِي كُلِ أُمَةٍ رَسولاً أَنْ اعبُدوا اللهَ واجْتَنِبوا الطاغوت " [٥] وقال صلى الله عليه وسلم : ((من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حَرُمَ ماله ، ودمه ، وحسابه على الله)) [٦] وقال صلى الله عليه وسلم : ((من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار)) [٧] وقال ((من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة)) [٨] أنه لدى هؤلاء القوم الكثير من الأخطاء ، لكن الهدهد لم يلق لها بالاً إنما أكثر ما أهمه أنهم يسجدون للشمس ، إذن هم لا يوحدون الله ، إذن فلا بد أن

---

[١] – تفسير ابن كثير (٣٦٠/٤) .

[٢] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٣٤/٥) .

[٣] – فتح القدير للشوكاني (١٣٣/٤) ، قال الشوكاني : قال الأنباري : الوقف على (لا يهتدون) غير تام عند من شدد (ألاَّ) لأن المعنى وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا .

[٤] – سورة الأعراف الآية (٥٩) .

[٥] – سورة النحل الآية (٣٦) .

[٦] – ترتيب صحيح الجامع الصغير وزيادته كتاب الإيمان باب فضل الإيمان / (السيوطي ، النبهاني ، الألباني) على الأبواب الفقهية ، رتبه وبوبه /عوني الشريف ، شرح غريب ألفاظه / على عبد الحميد (٢٢/١) برقم ٢٨ .

[٧] – المرجع السابق (٢٢/١) برقم ٣٣ .

[٨] – المرجع السابق (٢١/١) برقم ٢٢ .

يوحدوا الله ، ولا عجب فعلى التوحيد معول الدخول إلى الجنة والخروج من النار ، ثم بعد ذلك تكون دعوتهم للأمور الأخرى ٠

قال تعالى : "قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ "[1]

يقول تعالى مخبراً عن قول سليمان عليه السلام للهدهد بعد أن أخبره بقصة ملكة سبأ ، وما لها من السلطان والعظمة ، سنرى إن كان ما ذكرته حقيقة أو خيال ، أم كذبت من أجل خوفك من العقوبة ٠ فكتب سليمان كتاباً إلى بلقيس وقومها ، وحمله الهدهد ، فوضع الكتاب تحت جناحه ، وقيل : في منقاره ، وجاء إلى قصر ملكة سبأ فألقاه بين يديها ، ثم اتبع نصيحة سليمان عليه السلام له ، وأن يتول عنهم فينظر شأنهم ٠ فدهشت بلقيس مما رأت من عجيب أمر الكتاب ، وكون حامله طائر ، فألقاه إليها ، ثم ابتعد عنها تأدباً ، وفي نفسها سؤال من يستطيع تسخير الطير من الملوك ؟ ولهذا وصفت الكتاب لقومها بأنه كريم ، أو لأن صفة الكريم جاءت من ذكر بسم الله الرحمن الرحيم ٠

قال ابن العربي : - كرامة الكتاب في ختمه ٠

- لحسن مافيه من بلاغة وإصابة المعنى ٠

- كرامة صاحبه لأنه ملك ٠

- كرامة رسوله لأنه طائر ٠

- لأنه بدأ فيه بنفسه ولا يفعل ذلك إلا الأجلّة ٠

---

[1] - سورة النمل الآية (٢٧، ٢٨) ٠

وعرفت واستدركت أنه من سليمان نبي الله *عليه السلام* وكذلك الكتاب كان مع قلة كلماته ، وافياً ، جامعاً ، فصيحاً وواضحاً ٠ معناه : أن تسلموا ولا تتكبروا ولا تتجبروا عنه [١] ٠

قال تعالى : "قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)" [٢]

فجمعت قومها وأهل مشورتها ، وأخبرتهم بالأمر ، ولكنهم كانوا أقوياء الأجسام ، ضعفاء العقول ، ففوضوا إليها الأمر مرة ثانية ، وأنهم رهن إشارتها ، منفذون لأوامرها ، فهم أهل قوة وبطش ، واستعداد وطاعة ٠ فكانت أحزم رأياً ، وأعلم بشأن سليمان وسلطانه ، وأنها لا قبل لها بملك سليمان وجنوده ، ويدل على ذلك الكتاب الذي ألقاه إليها ، فهو عنوان لتلك القوة ، وذاك السلطان ٠ [٣]

قال تعالى : "قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ" [٤] أي إني لأخشى محاربته فيدمر بلادنا ، ويُهلك جيوشنا ، ويذلنا ، ويضيع هيبتنا ، أو قالوا : ملكنا ٠ قال ابن عباس : قال الرب : " وكذلك يفعلون " [٥] ٠ أشاعوا فيها الفساد ، وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، ٠٠٠ هذا دأبهم الذي يفعلونه ٠ فسند القول لملكة سبأ [٦] قال الأنباري : (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) : هذا وقف تام ؛ فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها : وكذلك يفعلون ٠ وقال ابن شجرة : هو قول بلقيس ،

---

[١] – أحكام القرآن لابن العربي (١٤٥٩/٣) ٠

[٢] – سورة النمل الآيتان (٣٢،٣٣) ٠

[٣] – تفسير ابن كثير (٣٦٣/٤) ٠

[٤] – سورة النمل الآية (٣٤) ٠

[٥] – تفسير ابن كثير (٣٦٣/٤) ٠

[٦] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٣٤/٥) ٠

فالوقف " وكذلك يفعلون " أي : وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا ، والأجدر أن يكون كذلك ٠[1]

وبطبيعة المرأة وفطرتها التي تجنح للسلم ، وكراهية العنف ، عدلت إلى المهادنة ، والمخادعة ، والمصانعة ، فقالت : قال تعالى : "إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ"[2]

وفي قولها تلميحان : الأول - هو أن ترسل إليه بهدية ثمينة تليق بمكانته ، فإذا قبل ورضي ، كف بأسه عنها ، وضرب عليهم خراجاً كل سنة ، التزموا ذلك ، واجتنبوا القتال ٠

الثاني - أنها ترسل له هدية تجتذبه (آنية من ذهب) فإن كان ملكاً صاحب دنيا قبلها ، وتقاتله في الحال ٠ وإن ردها ، كان نبي فنتبعه ٠

قال تعالى : "وَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ"[3]

ولما جاءت الرسل سليمان عليه السلام لم يلق بالاً بهديتهم ، ولم يتفقدها ، وكفى أنه علم إنها هدية فاستنكرها ، وقال : أتمدونني بمال ؟ ! كي أترك دعوتكم إلى الحق "فما آتاني الله خير مما آتاكم" أي : الذي أعطاني الله من الملك ، والمال ، والجاه ، والسلطان ، والنبوة لم يبلغ ما جئتموني به شيئاً منه ، بل مثلكم الذي تستهويه الهدايا الثمينة ، والمال ، وغيره ٠ وربما يكون المعنى : ما آتاني الله من تبليغ الدعوة ، والتصدي لها ، وما ترونه من الملك والسلطان في الدنيا ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت في الآخرة ، في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار هو خير من هديتكم ٠ قال تعالى : "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ"[4]

---

[1] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١١٣/١٣) ٠

[2] - سورة النمل الآية (٣٥) ٠

[3] - سورة النمل الآية (٣٦) ٠

[4] - سورة إبراهيم الآية (٤٧) ٠

قال تعالى : "ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ"

قال سليمان عليه السلام : ارجع إليهم بهديتهم ـ وتوعدهم في تهديد ـ لآتينهم بجنود لم تعلموا عن قوتها شيئاً ، وتجهلون أمرها ، ولا حول ولا قوة لكم بهم ، ولنخرجنكم من أرضكم ذليلين منكسرين . فرجعت الرسل إلى ملكتهم بهديتهم ، وما علموا من ملك سليمان . فعزمت العقد على السير إلى سليمان ، والاستسلام والمبادرة بالسلام ، لأنها كانت تدرك في داخلها إن هو إلاَّ نبي ، ولن تفلح فيما أقدمت عليه . فما أن علمت بما كان حتى أرسلت إليه تعلمه إنها في طريقها إليه بقومها لترى ما أمر هذا الدين . فأمرت بسرير ملكها (عرشها) الذي كانت تجلس عليه ؛ وقيل : كان من ذهب مفصص بالياقوت ، والزبرجد ، واللؤلؤ ، فجعل في سبقه أبيات بعضها في بعض . فأمرت أن تُغلَّق عليه الأبواب ، وأن يقوم الجند على حراسته . وخرجت إلى سليمان في اثني عشر قيل من الملوك تحت كل قيل ألوف كثيرة . فأخذ سليمان عليه السلام يبعث الجن يعلمونه بأخبار مسيرها حتى دنت من ملكه . ثم جمع من تحته من الإنس والجن فقال :

قال تعالى : "يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ"[1]

---

[1] - سورة النمل الآيات (٣٨ - ٤٠) .

ذكر قتادة : إنه لما وصف له عرشها أعجب به فأراد أن يأخذه قبل أن تأتيه مسلمة ، لأنه بعد الإسلام تحرم عليه أموالهم ، ودماءهم ٠٠ هذا القول غير لائق بصفة النبوة ، أن يوصف بالخداع والأنانية ، كما أن الله سخر له من الجن وفي مقدورهم أن يصنعوا له خيرا من عرشها ، ولكن الأرجح أن يكون سليمان عليه السلام أراد أن يبين الفوارق والمعجزات التي تدل على أنه نبي ملك من تسخير الجن والطير ٠[1] وقد شددت على حراسة عرشها من قبل وهاهو بين يديها ٠ قال عفريت من الجن ـ وصف بأنه مارد ضخم ـ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، وإني على قدرة لحمله ، وأمين على ما فيه من الكنوز والجواهر ٠

فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من ذلك ؟ قال الذي عنده علم من الكتاب ـ ويقال اسمه آصف بن برخياء ـ من بني إسرائيل ، وكان يعلم الاسم الأعظم ٠ فقال : ارفع بصرك إلى السماء ، وانظر مد بصرك ، فلا يكل بصرك إلاَّ وهو شاخص أمامك ٠ ثم قام فتوضأ ، ودعا الله تعالى ، فإذا هو شاخص بين يديه ، فلما رآه سليمان عليه السلام ، قال : هذه من نعم الله عليَّ ليختبرني أ أشكر هذه النعم ، وأقابلها بالطاعات وترك المعصيات ؟ أم أكفر هذه النعم أي لا أحس بها فأترك الطاعات واتبع الشهوات ٠

قال تعالى : "قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ

---

[1] – فتح القدير للشوكاني (١٤١/٤) و أحكام القرآن لابن العربي (١٤٦٣/٣) ٠ وقد ذكر ابن جرير الطبري : أنه يريد أن يثبت إن كان الهدهد صادقاً ٠ جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري م١١ (١٩٣/٢١) ٠

مِن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "[1]

فلما أحضر عرش بلقيس أمام سليمان عليه السلام ، قال : اجروا عليه بعض التغيرات في صفاته ، وألوانه لنختبر ثباتها عند رؤيته . قيل : نزعت بعض فصوصه . وقيل : زيد فيه ونقص . قيل : قدموا وأخروا فيه . فلما جاءت عرض عليها وقيل : " أهكذا عرشك ؟" فأجابت بدقة ، وذكاء ، وحزم ، وجدية ، مما يدل على رجاحة عقلها : "كأنه هو" ولم تجزم بأنه هو لبعد المسافة ، واستحالة إحضاره ، والتغيرات التي طرأت عليه .[2] ولم تنف لعلمها بعرشها ، وأنه ليس له مثيل يشابهه ، فقالت : كأنه هو ، أي : محتمل الأمرين ، ولو قيل لها : أهذا عرشك ؟ لقالت : نعم . وقيل : سبب تنكير العرش إن الجن قد ذكرت لسليمان عليه السلام إن عقلها مختلاً كي لا يتزوجها ، فينجب منها ، فتصير الجن مسخرة تخدمهم أبد الدهر .[3] فكان نتيجة إجابتها أن تعجب سليمان عليه السلام من ذكائها ، ورجاحة عقلها ، فقال : " وأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ " وقوله : " وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ " إن الذي كان سبباً في عبادتها الأوثان وشركها بالله أنها كانت في قوم كافرين ، لا تستطيع مخالفتهم ، ولكن مثلها وما لها من عقل فيه استحالة بعدم معرفتها لله ، والوصول إلى الإيمان .[4]

ويَحْتَمِل المعنى الذي صدها في الحال ، أن تعبد غير الله ، فأسلمت لما رأت من آياته ودليله ؛ أنها دخلت في الإسلام بعد رؤيتها الصرح .[5]

---

[1] – سورة النمل الآيات من (٤١ــ ٤٤) .

[2] – جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري م١١(٢٠٤/٢١) .

[3] – فتح القدير للشوكاني (١٤١/٤) .

[4] – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص (٥٥٤) .

[5] – قول محمد بن كعب القرظي .

وكان سليمان قد أمر الشياطين أن يبنوا لها قصراً عظيماً من زجاج ، تجري الماء من تحته ، حتى يُرى كأن الماء من فوقه . قيل : سبب ذلك أن وصفت بلقيس بأن مؤخرة قدميها كحوافر الدابة ، ويريد سليمان أن يستوثق من ذلك . فلما دخلت ورأت الماء كشفت عن ساقيها قاصدة الخوض فيه ، فكانت ذات ساقين رائعة ، وأقدم أروع إلا أنها يكسوها الشعر . فسأل الجن ، فصنعت له النورة لإزالته وهو الجير . فقيل لها : إنه صرح ممرد من قوارير ، وليس ما أمامك ماء . في هذه اللحظة التي أحست فيها الملكة بالضعف والهوان ، حين رأت ملكاً لا ينبغي لها ، وسلطاناً لا تطاله ، هنا كان الوقت مناسباً أن عرض عليها سليمان عليه السلام عبادة الله وحده ، وعاتبها على عبادة الشمس من دون الله ، وقالت بقول الزنادقة . فخر سليمان عليه السلام ساجداً ، وسجد معه من كان حوله ، فلما رفع قال : ويحك ماذا قلت ؟ أنسيت ماقلت ؟ فأسلمت في الحال واعترفت بظلمها نفسها وشركها بالله .[1]

---

[1] – تفسير ابن كثير (٣٦٦/٤) .

تغتفر ، فإذا كانت عقوبة الغياب بدون إذن هو العذاب أو القتل ، فماذا ستكون عقوبة الكذب ؟ ! الهدهد يعلم أن سليمان عليه السلام لا يخفى عليه الكذب ، ومع أن كل الدلائل تشير إلى صدق الهدهد ، وبعده عن الكذب فإن سليمان عليه السلام ، لم تأخذه العاطفة ، وظل ملتزماً بمنهج التثبت : " قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " وهذا عين الحكمة وأساسها .

٥ - وكتب سليمان عليه السلام الرسالة ، بأسلوب رائع حكيم ، مع أنها لأعدائه ، وهم مشركون ، إنه أسلوب يقتحم شغاف القلوب ، ويسيطر عليها ، مع الإيجاز والقوة ، والبيان " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين " .

٦ - ويتعجب المرء لخبر الهدهد ، أن هؤلاء القوم ولوا امرأة ، أليس فيهم رجال ؟ ! ! ولكن عندما يرى كيف كانت هذه المرأة تقودهم ؟ ويرى حنكتها ، وسياستها ، وحكمتها ، لا يستغرب ، ويدرك سر هذا الاختيار ، وقد لوحظ هذا في ما مضى من تفسير الآيات وما ذكر في حق هذه المرأة ، وتصرفها الحكيم إزاء رسالة سليمان عليه السلام ، وكيف قررت أن ترسل له هدية لترى تصرفه تجاه هذه الهدية ، وبذلك تعرف قوة هذا العدو - وتولية المرأة الإمامة العظمى غير جائز عند جماهير العلماء وهو الراجح (لكن هؤلاء القوم كفار ، وليس بعد الكفر ذنب) .

٧ - فجاء جواب سليمان عليه السلام على هديتها ، بقوله : " أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون "

فما أرق الرسالة الأولى ولينها وقوتها ، وهذه الرسالة الصارمة الحازمة البليغة ، وهذه هي الحكمة ؛ وضع الشيء في موضعه ، فالبداية كانت تقتضي مثل تلك الرسالة ، والنهاية كانت

من مواقف الحكمة في قصة سليمان عليه السلام :

١ - عناية سليمان عليه السلام برعيته ، وتفقده لأحوالهم " وتفقد الطير .." .

٢ - عدم تعجله عليه السلام بالحكم على غياب الهدهد ، حيث وضع الاحتمال الأول بالسؤال عن عدم رؤيته ، " مالي لا أري الهدهد " فقد يكون موجوداً ، ولكن سليمان عليه السلام ، لم يره لسبب من الأسباب ، أم أنه كان من الغائبين !!

إنه منهج التثبت وعدم العجلة ، قبل اتخاذ القرار .

٣ - وعندما تأكد لسليمان عليه السلام أنه غائباً ، أصدر القرار العادل :

العذاب الشديد ، أو الذبح ، أو البراءة ، وهي تنجيه من إحدى هاتين العقوبتين ، إن جاء بسلطان مبين ، فسليمان عليه السلام ، لم يغتر بملكه ، وقوته ، وقدرته ليتسلط على هذا المخلوق الضعيف ، لأنه يعلم قدرة الله عليه .

وقد كان احتياط سليمان عليه السلام ، سليماً ، ووضعه للاحتمالات صائباً ، فقد تثبت براءة الهدهد ، فقد جاء بسلطان مبين : " أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين " .

إنه منهج للعدل ، يرسمه سليمان عليه السلام ، وأسلوب في القيادة يندر له المثيل .

٤ - يسمع سليمان عليه السلام خبر سبأ كما حكاه الهدهد ، والخبر في غاية الأهمية ، بل إنه خبر يزلزل الجبال ، ملك قوي ، وعرش عظيم ، ويعبدون غير الله ، كل هذا وهم في جوار نبي الله سليمان عليه السلام ، فقد يهددون ملكه ذات يوم ، وأصل المشكلة في عبادتهم لغير الله ، وتأثير ذلك على غيرهم ، ومع هذا فلا يتعجل ، ويلتزم منهج التثبت ، ومع أنه يعلم أن الهدهد أقل من أن يكذب على أحد فكيف يكذب على نبي الله سليمان عليه السلام ، وبخاصة أن الهدهد بحاجة إلى براءة ساحته بعد تخلفه وغيابه ، فمن المستبعد أن يضيف إلى ذلك جريمة لا

تقتضي مثل تلك الرسالة ، وقد فعل سليمان عليه السلام ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي ، ولا غرو فقد آتاه الله الملك والحكمة .

٨ - وأخيراً تتخذ المرأة القرار الحاسم ، الحكيم ، الذي يعجز عن اتخاذه كثير من الرجال بسبب الهوى ، والتعصب ، والتقليد ، إنه قرار الاستجابة لسليمان عليه السلام ، ودعوته ، طائعة مختارة .

٩ - أما غاية الحكمة وذروتها ، فهو موقف سليمان عليه السلام مما حدث ، فلم يداخله الغرور ، أو نسب الفضل لنفسه ؟ وحاشاه من ذلك ، بل قال : " هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم "[١]

---

[١] - شريط وكتيب / الحكمة ، د. ناصر العمر ، ص(٢٩ـ ٣٥) .

المبحث الثالث : هل التعامل مع الجن اختص به سليمان أم سائر البشر ؟

هذه الآيات التي وردت في سورة النمل دليل آخر ـ بعد سورة الجن ـ على وجود الجن ، كما ثبت بالسنة عند المسلمين ـ وليس مستحيلاً على من يستخدمون العقل في إثبات كل شيء ـ إن وجود الجن حقيقة ، وقد اجمع العلماء منذ عصر الصحابة والتابعين على ذلك ، خلافاً للفلاسفة ، والقدرية [١] ، وكافة الزنادقة [٢] ، الذين أنكروا وجود الجن . وكثير من القدرية يثبتون وجودهم قديماً (في زمن الأنبياء) وينفون وجودهم الآن ، ولم يخالف أحد من طوائف المسلمين وجود الجن .[٣]

وسميت الجن جناً لأنها مستترة عن الأعين ، والجِنُّ ضد الإنس الواحد ، وجِنّي قيل : سميت بذلك لأنها تتقى ولا تُرى ـ ولذلك سمي الولد في بطن أمه جنيناً ما دام في بطن أمه [٤] ـ وتسمى الجن شياطيناً ، لقوله تعالى : " وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ "[٦] وقيل : الشياطين هم عصاة الجن ، والمردة : هم أشد منهم عصياناً ، وتطلق العفاريت على من هم أشد عصياناً من المردة . خلق الجن قبل آدم عليه السلام بدليل قوله تعالى : " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ "[٧] والجن خلقت من نار السموم ، قال تعالى :

---

[١] – القدرية : هم الذين ينكرون القدر ، ويقولون : إن الإنسان خالق لفعله .

[٢] – الزنادقة : جمع زنديق ، وهو كل شاك ، وضال ، وهم الذين قالوا بأزلية العالم .

[٣] – عقد المرجان فيما يتعلق بالجان ، لابن برهان الحلبي ، ص ٥٧ ، من كلام ابن تيمية .

[٤] – مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ص١٠٠، باب جنن .

[٥] – كلمة جَنٌّ ، جنين ، الجن ، الجنة . القاموس المحيط للفيروز آبادي ص ١٥٣٢ .

[٦] – سورة الأنبياء الآية (٨٢) .

[٧] – سورة البقرة الآية (٣٤) .

"والجآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ" [١] وقال تعالى : " وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ" [٢]

والجن على العموم لا يُرَون ، قال تعالى : " إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .." [٣] [٤]

ولا يخف أن الجن أقسام قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، آدمية ، أو حيوانية . ولها عقول ، وأفهام ، وقدرة على الأعمال الشاقة ، وتستطيع الطير في الهواء ، لقوله تعالى : "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ" [٥] وهذا مما دعى الإنسان للجنوح للتعامل معهم ، والدليل على أن الجن تستطيع التشكل في صور مختلفة قوله صلى الله عليه وسلم ، عن أبي سعيد الخدري : ((إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا ، فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثاً ، فإن بدا له بعد فليقتله فإنه شيطان)) [٦] وهذا شاهد إن من لم يسلم

---

[١] - سورة الحجر الآية (٢٧) .

[٢] - سورة الرحمن الآية (١٥) . والمارج : هو السموم (الريح الحارة) التي تخترق مسام الجسم .

[٣] - سورة الأعراف الآية (٢٧) .

[٤] - اختلف العلماء في رؤية الإنس للجن ، فذهب فريق إلى أن الإنس لا يستطيعون رؤيتهم ، واستدلوا بالآية السابقة . فقال الزمخشري : فهي دليل على أن الجن لا يُرَون ، ولا يظهرون للإنس ، وليس باستطاعتهم ذلك . ويقول أبو القاسم بن عساكر : وممن ترد شهادتهم ولا تسلم له عدالة من يزعم أنه يرى الجن عياناً ، ويدعي أن له منهم إخوانا . قال الشافعي : من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته إلا من كان نبياً . ورأى المؤيدين لرؤية الإنس للجن بقول الخطابي ، من صحيح البخاري ، حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن عفريتاً تفلت عليَّ البارحة ليقطع علي صلاتي ، فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : "رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ")) رواه البخاري ، من فتح الباري ، باب قوله تعالى : " ووهبنا لداود سليمان .." حديث رقم ٣٤٢٣ * فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٦/٤١٥) . والحديث دليل على رؤية الإنس للجن على هيئتهم خاص بالأنبياء .

[٥] - سورة النمل الآية (٣٩) .

[٦] - رواه مسلم في صحيحه ، باب قتل الحيات (٧/١٩٧) .

من الجن يسمى شيطاناً [١] وقوله تعالى : " إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " [٢]

والجن تسكن الأودية ، وجزائر البحر [٣] وهي مكلفة بما يكلف به الإنسان لقوله تعالى : " وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ " [٤] ومنهم اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان . ومنهم المسلمين الفقهاء في الحديث ، والفقه . ومنهم الشعراء . ومنهم أهل السنة ، وأهل الشيعة ، والمرجئة ، والمتصوفة ، وكذلك أهل البدع ، والضلال ، والفسقة ، والكفار .

وهم أصناف : ((صنف له أجنحة يطيرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يجلسون ويظعنون)) [٥] وكثيراً ما أحدهم يأتي في صورة رجل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثلاً في غزوة بدر تمثل في صورة سراقة بن مالك ، وقال : قال تعالى : "لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ" [٦]

وبكل أوصافهم وأصنافهم المتناقضة ، واختلاف أديانهم ، ومللهم ، ونحلهم ، ودرجات إيمانهم وكفرهم فقد سخرهم الله لخدمة سليمان عليه السلام ، جنهم ، وشياطينهم ، وعفاريتهم . فكانوا جنداً له يطيعونه في كل أمر ـ بإذن ربهم ـ ويصنعون له ما لم يكن في قدرة البشر طائعين في قوله تعالى : "مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ" [٧]

---

[١] – فتح الباري (٦/٤١٥) .

[٢] – سورة الأعراف الآية (٢٧) .

[٣] – دلائل النبوة . عن بلال بن الحارث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((اختصم الجن المسلمون ، والجن المشركون ، فسألوني أن أسكنهم ، فأسكنت الجن المسلمين الجلس ، وأسكنت الجن المشركين الغور)) رواه أبو نعيم . باب ما أوتي سليمان ، برقم ٥٤٢ . وهو ضعيف جداً ، ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص ٣٣ ، برقم ٢٢٦ – ٧٠ .

[٤] – سورة الأحقاف الآية (٢٩) .

[٥] – مستدرك الحاكم (٢/٤٥٦) . صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/٥٩٧) ، برقم ٣١١٤ .

[٦] – سورة الأنفال الآية (٤٨) .

[٧] – سورة سبأ الآية (١٢) .

ولم يكن هناك ما يدل على أن الناس قد اختصوا بما اختص به سليمان عليه السلام ، لأن هذا الفضل كان من الآيات المعجزة ، الدالة على نبوته . وقد ورد أن سليمان قد جمع كتب السحر والكهانة ، فمن كان يسترق السمع بواسطة الشياطين من السماء ، من سماع كلمة فيزيد عليها سبعين من الكلمات ، الأمر الذي جعل البعض يعتقدون أن الجن تعلم الغيب . فجمع سليمان الكتب ، ودفنها تحت كرسيه ، فلم تستطيعها الشياطين ولو اقتربت منه لاحترقت . وذكر أيضاً أن الشياطين هي التي كتبت كتب السحر والكفر ، ودفنتها تحت كرسيه ، فلما مات استخرجتها ، وقالت للناس : هذا علم سليمان الذي كان يكتمه ، ونقشوا خاتم كخاتم سليمان ، وكتبوا عليه : هذا ما كتبه آصف بن برخياء صديق الملك _ سليمان بن داود _ من ذخائر كنوز العلم .[1]

وسواء كان الرأي الأول أصح أم الثاني ، فإن هذه الكتب تحمل بين طياتها سحر وكهانة ، وأنه بعد موت سليمان أخرجت الشياطين هذه الكتب واستعملها السحرة ، وأوهموا الناس إن الجن تضر وتنفع ، وتعلم الغيب ، وقد جعل الله موت سليمان عليه السلام دليلاً على أن الجن لا تعلم الغيب حين مات متكأً على منسأته عاماً كاملاً ، والجن تخدمه ، قال تعالى : " فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ "[2]

والسحر ليس بالشيء الجديد فقد كان قبل عهد سليمان عليه السلام في عهد نوح عليه السلام ، حين اتهمه قومه بالسحر ، وفي قوم فرعون ، وكان معجزة موسى عليه السلام تَغْلَبُهُ على السَّحرة ، وكان عند اليهود الذين اتهموا سليمان بالسحر ، فبرأه الله في القرآن ، قال تعالى

---

[1] - تفسير ابن كثير (١/١٣٦) ، وفتح الباري (١٠/٢٧٤،٢٧٥) .

[2] - سورة سبأ الآية (١٤) .

: " ... وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ... "[١] ،

[٢]

والسحر كفر [٣] وأن الجن لم تسخر إلاَّ لسليمان عليه السلام ، وإنما تعمل بترضية ، ولا ترضى إلاَّ بما يغضب الرحمن . وأن الذي يستعين بالشيطان فهو ساحر ، وكلما كان الإنسان أشد كفراً ، وأخبث ، وأشد معاداة للرسول والمؤمنين ، كان سحره أقوى [٤].

ويزعم بعض الناس أنهم يصلون إلى مرادهم بطريق السيطرة على الجن ، وأن عندهم علماً يستطيعون به تسخير الجآن لمرادهم ، وهذا هو علم العزائم ، وعرَّف حاجي خليفة العزائم فقال : مأخوذة من العزم وتصميم الرأي ، والانطواء على الأمر ، والنية فيه ، والإيجاب على الغير ، يقال عزمت عليك أي : أوجبت عليك وحتمت عليك . [٥]ويزعم الفخر الرازي : أن المعَزِّم إذا استجمع الشرائط ، وصوب العزائم ، صيرها الله ناراً عظيمة محرقة لهم ، مضيقة أقطار العالم عليهم ، كيلا يبقى لها ملجأ إلا الحضور والطاعة فيما يأمرهم به .. وإن أخلاقه حميدة مرضية فإنه تعالى يرسل عليهم ملائكة أقوياء غلاظاً شداداً ليزجروهم إلى طاعته وخدمته . [٦] ويزعم هؤلاء إن سليمان ألزمهم سكنى القفار والخراب دون العامر ، ليسلم الناس من شرهم ، فإذا فسد بعضهم ، ذكَرَ المعزِّم كلمات تعظمها الملائكة ، ويزعمون أن لكل نوع من الملائكة أسماء أمرت بتعظيمها ، ومتى أقسم عليها أطاعت ، وأجابت وفعلت ، فحين يعزم المعزِّم بتلك الأسماء يقسم على الملك فيحضر له القبيل من الجآن الذي طلبه ، فيحكم فيه بما يريد [٧].

---

[١] – سورة البقرة الآية (١٠٢) .

[٢] – عالم السحر والشعوذة ، د. عمر بن سليمان الأشقر ، ص ١٦٥ .

[٣] – فتح الباري (٢٧٦/١٠) .

[٤] – مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠٧/١١) .

[٥] – عالم السحر والشعوذة ، نفس الصفحة .

[٦] – كشف الظنون (١١٣٨/٢) .

[٧] – الفروق للقرافي (١٤٧/٤) .

وهذا كله مما لا أساس له ولا إثبات في الكتاب ولا في السنة ، ولو كان هذا صحيح لكان لكل صحابي وتابعي جني يتبعه خادماً له ٠

إن هذا من تدليس وتلبيس إبليس يضحكون به على ضعاف العقول ، ولم يدل على صدق مقالتهم عقل ولا نقل ٠ والصحيح أن الذي يفعلونه تبجيل للجن ، وهو من جنس استعاذة المشركين بالجن ، قال تعالى : " وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا "[١] إن الله استجاب لدعوة سليمان عليه السلام : " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي " فإذا حصل طاعة من الجن ـ بإذن ربهم ـ لأحد من الإنس ، فلا يكون على سبيل التسخير ، وإنما برضى الجن ٠ فلا يجوز أن يأمره إلاَّ كما أمر الله به رسوله من عبادة الله وحده ، وطاعة نبيه ، ٠٠٠ ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس ٠[٢]

ويتضح من ذلك أن استخدام الشياطين والجن بواسطة الشرك والكفر له عدة صور منها : الكهانة ، والتنجيم ، والطلاسم ، والعزائم وغيره ، والشرع فيه واضح وبين ، وأمثال هؤلاء سحرة ، والسحر كفر ٠

أما النوع الثاني وهو الذي لبست فيه الشياطين ثوباً جديداً على حسب التطور العلمي ، الاجتماعي ، واهتمام الناس بعلم النفس (سيكولوجي) فظهر استعمال الجن والشياطين في أسماء أخرى (كتحضير الأرواح) و(رجال الغيب) واستخدام الجن المسلم ، وهذا أكثر خطورة ، لأنه يأتي من أناس إما أن يتصفوا بالعلم ، وإما من عباد زهاد قد ضلوا الطريق ، وزعموا أن سليمان قد استخدم الجن بهذه الطريقة ٠ ومن العجب استعمال رموز وطلاسم مع بعض آيات القرآن ليضلوا غيرهم ، وإن هذه الظواهر وإن كانت ليست بحديثة عهد إلاَّ أن الزمن ومشاكل

---

[١] - سورة الجن الآية (٦) ٠ عالم الجن والشياطين / د٠ عمر الأشقر

[٢] - مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠٧/١١) ٠

العصر ، وتعقده تجعل الإنسان يلجأ للجأ غير المحسوسات (الغيبيات) وسرعان ما تضل الشياطين عن طريق قرنائها هؤلاء لتفتنهم في هذه الفئة من الناس ، أو إن الشياطين والجن قد اتخذت سبيلاً آخر لإفساد الدين ، فهذه الأفعال الغيبية عن الأنظار إنما هي في الحقيقة شياطين تقوم بأفعال لتحطيم الدين ونسفه ، ولتقر مبادئ ومناهج جديدة تعارض الحق ، وتزل بالإنسان عن الطريق المستقيم ، كيف لا وإنها لا تُرى ، ولا يمكن أن نستوثق منها صالحة كانت أم طالحة.

وكثيراً ما نلاحظ أن الجن إذا مس الإنسان فيظهر في بادئ الأمر كمعين على الخير ، والحث على المحافظة على العبادة ، حتى إذا أطاعه الإنسان واستسلم له ، إنعرج به لما يخالف الشرع في أدق صورة ، وهو هذا ذو دهاء ومكر، فالذين يدّعون أنهم يتعاملون مع الجن المسلم ، كيف يتسنى لهم معرفة أنه مسلم وأنه ملتزم بأمور الشرع من عمل ونهي ، وهم لا يرونه ، وإن رأوه ربما يتشكل لهم بمن يتقون كشيخ له لحية مثلاً .

ونقول إن الشياطين قد وضعت طرقاً مختلفة لتجعل الإنسان يحيد عن الطريق ، وإن الله قد بين لنا ذلك في قوله تعالى : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ "[1] وأن جميع طرق التعامل مع الجن سواء كان مسلماً أم لا ، فإنها ترضي الشيطان ، وتغضب الرحمن ، قال تعالى : " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "[2]

فالتوكل والاستعانة بما يقال ويكتب مما لا يعرف معناه فلا يشرع ، ولا سيما إن كان فيه شرك فإن ذلك محرم .[3]

---

[1] - سورة فاطر الآية (٦) .

[2] - سورة النحل الآية (٩٩) .

[3] - مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦١/١٩) .

الفصل الثالث :

ذكر العبر والعظات من قصص الأنبياء .

المبحث الأول : قصة صالح عليه السلام و العبرة فيها .

المبحث الثاني : قصة لوط عليه السلام .

المبحث الثالث : قصة موسى عليه السلام وأسباب تكرارها .

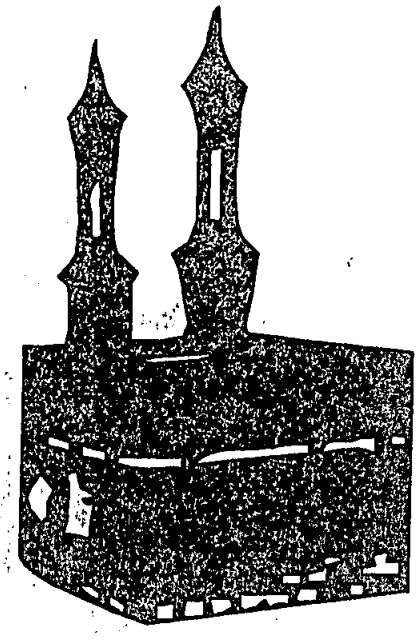

المبحث الأول : قصة صالح عليه السلام والعبرة فيها ٠

وردت قصة صالح عليه السلام في معظم آيات القرآن الكريم ، في سورة الأعراف ، قال تعالى : " وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ "[1]

وقد وردت القصة مجملة في بعض الآيات ، ومفصلة في بعضها الآخر : في سورة هود الآيات (٦١ -٦٧) ، وسورة إبراهيم الآية (٨،٩) ، وسورة الحجر الآيات (٧٠ - ٨٤) ، وفي سورة الإسراء الآية (٥٩) ، وفي سورة الشعراء الآيات (١٤١-١٥٩) ، وفي سورة النمل الآيات (٤٥-٥٣) ، وفي سورة فصلت الآيتان (١٧،١٨) ، وفي سورة القمر الآيات (٢٣- ٣٢) ، وفي سورة الشمس الآيات (١١-١٥) ٠ وكثيراً ما تقرن آيات عاد وثمود ، كما إنه تأتي ضمن قصص الأنبياء ، منها نوح ، وهود ، وصالح ٠ وفي هذه السورة والكلام على بني إسرائيل تضمنت

---

[1] - سورة الأعراف الآيات (٧٣ - ٧٩) ٠

قصة نوح ، وداود ، وسليمان · ومناسبة ذلك للموضوع ، ربط كل قصة بأخرى ، أو نبي بغيره رابط يربط بين القصتين ، غير عامل الشرك بينهم ، ومعاندة الأنبياء ، وعدم تصديقهم · فهناك عوامل أخرى عميقة سوف تتعرض لها بمشيئة الله ·

وقصة صالح عليه السلام فيها تذكرة لأمة محمد ، الذين جحدوا نعمة الله سبحانه وتعالى عليهم ، وكرهوا ألاَّ يؤمنوا لرسولهم الذي أرسل إليهم ، فيذكرهم الله ، ويضرب لهم مثلاً بقصة أمام أعينهم ، في أرضهم ـ ألا وهي الحجر التي تقع قريبة من المدينة النبوية ـ شاهدا يعتبر به من يراه ، إلاَّ من أغلق قلبه عن الإيمان ، قال تعالى : "وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ"

وهي من الأمم التي أنعم الله عليها بزروع ونخل طلعها هضيم ، ونحتوا من الجبال بيوتاً فارهين ، وهي أرض صحراوية جبلية ، فأكثر الله فيها من العيون العذبة ، والمياه الوافرة · وأجابهم الله سؤالهم لصالح حين عرض عليهم الإيمان بالله ، وعدم الشرك به سبحانه ، قال تعالى : "يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا "[1] فرفضوا كما رفض مشركي قريش ، وقالوا كما قال الذين من قبلهم "أتنهانا أن نعبد ما يعبد أباؤنا "[2] وشكوا فيه ، وشككوا فقالوا : " إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ "[3] فتلطف بهم صالح عليه السلام ، وكان لين الجانب · واتهموه بالسحر كما أتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش بعد ذلك · وتحدوه بأن يسأل ربه أن يخرج لهم من الصخرة المعينة ناقة بأوصاف معينة ، ووعدوه أن يجيبوا ما سألهم إليه ، فدعا ربه ، فاستجاب الله دعاءه ، فأخرج لهم الناقة ، وشق لهم الصخرة الصماء بأوصافها كما أرادوا ، دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً ،

---

[1] – سورة هود الآية (٦١) ·

[2] – سورة هود الآية (٦٢) ·

[3] – سورة هود الآية (٦٢) ·

فآمنت طائفة ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم ، فقال لهم صالح ، قال تعالى : "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" وفي آية أخرى " عَذَابٌ عَظِيمٌ" وفي ثالثة "عذابٌ قَرِيبٌ" ، وهذا التنويع كناية عن التأكيد ، والتهديد ، والوعيد . وقال تعالى : "لها شِرْبٌ ولكمْ شِرْبُ يومٍ مَعْلومٍ" [1] وأمرهم الله تعالى أن يشربوا من لبنها يوماً ، وتشرب من مائهم يوماً ، ولكنهم تآمروا على قتل الناقة ، فعقروها ، فتوعدهم الله فقال تعالى : "تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" [2]

فتوعدهم صالح عليه السلام بأن العذاب آتيهم ومحدق بهم فما استكانوا ، وما أرعوا عما كانوا يفعلون .

وقد تناولت سورة النمل جزئية مجملة من قصة صالح عليه السلام ، مع وصف لقوم ثمود ، وطغيانهم ، وجبروتهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

قال تعالى : "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ" [3]

فعبر القرآن عن الفريقين في قوم ثمود بالملأ الذين استكبروا من قومه ، والذين استضعفوا قال تعالى : "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" [4] . وهذا دليل تعمد الكفر ونية الاستمرار عليه وفيه .

---

[1] – سورة الشعراء الآية (١٥٥) .

[2] – سورة هود الآية (٦٥) .

[3] – سورة النمل الآيات (٤٥ـ ٤٧) .

[4] – سورة الأعراف الآيتان (٧٥،٧٦) .

قال تعالى : " قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة " وهم القوم المكذبون ـ والذين كانوا أكثر عددا ـ والذين استعجلوا العذاب فقالوا قال تعالى : "ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ "فقالوا مثل ما قال الذين من قبلهم من الأمم السابقة ، والذين من بعدهم من مشركي قريش ، حيث قالوا قال تعالى : "ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ "[1] وقالت قريش ، قال تعالى : "إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" بدلا من أن يقولوا اللهم اهدنا .

فأنكر عليهم صالح عليه السلام وسألهم أن يستغفروا ويطلبوا الرحمة من الله . فكانت إجابتهم لدعوته أن تطيروا به : "إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ "كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام " إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ "أي تشاءمنا منك ومن دعوتك إلينا ، وكذلك بمن اتبعوك ، فأصبحوا لا يروا بأساً إلا نسبوه لصالح عليه السلام وأصحابه ، فكان رده عليهم "إِنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ "أي : قوم مبتلون ابتلاكم الله ففشلتم وتنازعتم وخُذلتم ، فجعل الله فتنتهم في الناقة قال تعالى : "وما أَرْسَلْنَا النَّاقَةَ إِلَّا فِتْنَةً لَّهُمْ" وقوله تعالى : "وإنا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ"[2]

والتشاؤم عند العرب كان عادة إذ لا ارتكاز عندهم على يقين بسبب عدم إيمانهم ، وفراغ قلوبهم منه .

قال تعالى : "وكان فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ "[3]

وهم الطغاة الجبارين من قوم ثمود الذين كانوا يتزعمون قومهم في الضلالة ، والكفر ، والتكذيب . فبعد أن عقروا الناقة أجمعوا أمرهم على أن يقتلوا صالحاً ، ويكتموا الخبر عن أهله ، وأقاربه ،

---

[1] – سورة الأعراف الآية (٧٧) .

[2] – سورة القمر الآية (٢٧) .

[3] – سورة النمل الآية (٤٩) .

ويقسموا أنهم لم يرونه . وهذا دليل على أن الشرير يعتاد الشر ويألفه حتى يصبح من سمته ، فبعد أن عقروا الناقة أرادوا أن يبطشوا بصالح عليه السلام ، ويتخلصوا منه ، وقالوا إن كان صادقاً عجلنا مقتله ، وإن كان كاذباً ألحقناه ناقته . [١]

وفسادهم المقصود به قال الإمام مالك بن يحى بن سعيد عن سعيد بن المسيب : أنه قال قطع الذهب لأن عملتهم كان من الذهب ، وكذلك قطع الورق ، وهذا من الفساد بدليل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ((نهى عن كسر سكة المسلمين ، الجائزة بينهم إلا من بأس)) [٢] .

كان إفسادهم في الأرض : كفرهم بالله ، ومعصيتهم إياه ، وإنما خص الله جل ثناؤه هؤلاء التسعة رهط بالخبر ... وإن كانوا كلهم أهل كفر ومفسدة لأنهم سعوا في عقر الناقة ، وتعاونوا عليه ، وتحالفوا على قتل صالح عليه السلام من بين قوم ثمود . [٣]

قال تعالى : "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين" [٤]

فمكرهم خيانة وغدر ، ومكر الله هو أخذهم على حين غرة ، واستدراجه إياهم ، ثم إنزال العقوبة بهم ، وهو أشد من مكرهم ، وأعظم منه ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؛ فبعث الله حجارة فرجمتهم ، فلما جاء أصحابهم وجدوهم على بيت صالح عليه السلام صرعى . فهموا بقتله ، فوقف قومه الذين آمنوا دونه ، وقيل : عندما توعدهم صالح عليه السلام ثلاثة أيام كما قال تعالى : "تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب" [٥] قالوا : زعم صالح أنه يفرغ

---

[١] - شريط من قصص الأنبياء ، قصة صالح عليه السلام / د. طارق السويدان .

[٢] - رواه أبو داود وغيره ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته ص٨٦٥ ، برقم ٦٠٠١ .

[٣] - جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري م١١(٢١/ ٢٠٩) .

[٤] - سورة النمل الآيتان (٥٠، ٥١) .

[٥] - سورة هود الآية (٦٥) .

منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ذلك ، وكان له مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه ، فخرجوا إلى الكهف ، وقالوا : إذا جاء صالح قتلناه ، ثم رجعنا ، وإذا فرغنا منه ذهبنا إلى أهله ففرغنا منهم ، فبعث الله صخرة من الهضبة حيالهم فخشوا أن تشدخهم ، فبادروا الغار ، فطبقت عليهم الصخرة ، ثم ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم [٢].

---

[١] - سورة هود الآية (٦٥) .

[٢] - تفسير ابن كثير (٣٦٩/٤) .

المبحث الثاني : قصة لوط عليه السلام ٠

ولوط عليه السلام هو : لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد بعثه الله تعالى إلى قومه في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكان سكنهم منطقة سذوم ، فأتى قومه الفاحشة ، وخالفوا الفطرة السليمة ، فنهاهم لوط عليه السلام عن ذلك فلم يجيبوا ، فأهلكهم الله ، وجعل مكان القرية بحيرة منتنة خبيثة ، هي ببلاد متاخمة لجبال بيت المقدس ٠

فكانت دعوة لوط عليه السلام لقومه أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، كدعوة غيره من الرسل ، وأن يطيعوا رسوله الذي أرسله إليهم ونهاهم عن المعصية ، وارتكاب الفاحشة ، وما ابتدعوه من عمل ذميم ، مما لم يسبقهم إليه أحد من الخلائق ، من إتيان الذكور دون الإناث ، فغضب الله عليهم وعجل عقابهم ٠[1]

وقد اختصرت القصة في هذه السورة ، وتناولت جزءاً عبارة عن مختصر القصة بكاملها ، وموقف قومه منه ٠

قال تعالى : " ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤) أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥) فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين "[2]

---

[1] - تفسير ابن كثير (٣/٣٤٥) ٠

[2] - سورة النمل الآيات (٥٤ - ٥٨) ٠

يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن عبدهِ ورسولهِ لوط حين أرسل إلى قومه ، وأمرهم أن يكفوا عن فعل المنكرات التي ابتدعوها مما لا يسبقهم به من أحدٌ من العالمين ألا وهي : إتيان الذكران بدلاً عن النساء وعلى حسب مالا تقتضيه الفطرة ، فاستغنوا بالرجال عن النساء ، قال تعالى : " أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ " أي : يرى بعضكم بعضاً ، ولا تسترون حين فعل الفاحشة ، عتواً منهم (في محل نصب على الحال متضمنة تأكيد الإنكار) أي : وأنتم تعلمون أنها فاحشة ، وذلك أعظم ذنوبكم .[١] وربما تبصرون عين الحقيقة وتنصرفون عنها معاندين ومكابرين .[٢] وقد ورد في سورة العنكبوت : " وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ "[٣] والتكرار للتوبيخ ، أي وتفعلون وتقولون بما لا يليق من الأقوال ، والأفعال في ناديكم ، ومجتمعكم فلا ينكر بعضكم على بعض ، ذلك ولا عجب .[٤] بل أنتم قوم تجهلون : أي لا تعرفون شيئاً في طبعكم ولا شرعكم ، أو أنتم تجهلون التحريم ، وتجهلون العقوبة على المعصية .[٥]

قال تعالى : " أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ "[٦] وقوله تعالى : " فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ "[٧] فكان ردهم على دعواه أن توعدوه بالإخراج من القرية ، والعلة أن لوطاً وقومه أناس يتحرجون من فعل ما يفعلوه ، وينكرونه ، ويذمونه فلا تصلح مجاورتهم .وقيل : أي يتطهرون ، ويتنزهون عن أدبار الرجال _ وهذا استهزاء منهم بقوم لوط المؤمنين _ فذموهم وعابوهم بغير عيب إلا إنهم يتطهرون من أعمال السوء

---

[١] – تفسير ابن كثير (٣٦٩/٣) وفتح القدير للشوكاني (١٤٥/٣) .

[٢] – تفسير ابن كثير (٣٦٩/٣) .

[٣] – سورة العنكبوت الآية (٢٩) .

[٤] – تفسير ابن كثير (٤٢٠/٣) .

[٥] – تفسير ابن كثير (٣٦٩/٣) وفتح القدير للشوكاني (١٤٥/٣) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٤٥/١٣) .

[٦] – سورة الشعراء الآيتان (١٦٥،١٦٦) .

[٧] – سورة النمل الآية (٥٦) .

فدمرهم الله بكفرهم ، قال تعالى : "فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين "[١] أي : من الهالكين ، أي أنها من الباقين في العذاب ، ومعنى قدرنا : أي قضينا ، أي قضى الله أنها من الهالكين لما كانت عليه من مساندة ، ومؤازرة ، وتأييد لقوم لوط في فعلتهم الشنعاء _ فكانت تدل قومها على ضيوف لوط عليه السلام ، حين أرسلهم الله إليه لينذروا قومه . ولم تكن تفعل الفواحش مثلهم ، وقد منعها الله من ذلك إكراماً للنبيه لوط عليه السلام ، قال تعالى : " وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين "[٢] أي من أنذِرَ ولم يقبل الإنذار . والإنذار هنا ، الإنذار المذموم ، وهو محذوف تقديره (ساء مطر المنذرين مطرهم) ، والمُنذَرين هم قوم لوط الذين أنذِروا ولم يقبلوا ، فنجى الله لوطاً وأهل بيته ، ومن تبعه في دينة ، وأجاب دعوته ، إلا امرأته كانت مع القوم المهلكين ، الغابرين ، أي : الذاهبين ، والماضين . حين أرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين . " فساء مطرُ المنذَرين " أي : على الذين قامت عليهم الحجة ، وجاءهم الإنذار فما استجابوا للدعاء ، وما وعوا الإنذار .[٣]

---

[١] – سورة النمل الآية (٥٧) .

[٢] – سورة النمل الآية (٥٨) .

[٣] – تفسير ابن كثير (٣٦٩/٣) وفتح القدير للشوكاني (١٤٥/٣) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٤٥/١٣) .

عظم ذنب قوم لوط ، وأن العقاب من جنس العمل :

جريمة قوم لوط ، من أشنع الجرائم وأقبحها ، وهي تدل على انحراف في الفطرة ، وفساد في العقل ، وشذوذ في النفس ·

ومعناه : أن ينكح الرجل الرجل ، ويأتي الذكر الذكر ، كما ذكر الله عن قوم لوط عليه السلام ·

ومما يظهر فظاعة هذه الجريمة ، وعظيم فحشهم أن الله تعالى سمى الزنى (فاحشة)، وسمى هذه الجريمة (الفاحشة) ، والفرق بين التسميتين عظيم ، فكلمة (فاحشة) نكرة ، ويعني أن الزنا فاحشة من الفواحش ، ولكن عند دخول الألف واللام عليها تصير معرفة ، ويكون حينئذ لفظ الفاحشة جامعاً لمعاني اسم الفاحشة ، ومعبراً عنها بكل ما فيها من معنى قبيح ·

ومما يهول أمر تلك الفاحشة : ما أخرجه ابن أبي الدنيا ، وغيره عن مجاهد رحمه الله : أن الذي يعمل ذلك العمل لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة من الأرض لم يزل نجساً · أي أن الماء لا يزيل عنه ذلك الإثم العظيم الذي أبعده عن ربه ، والمقصود تهويل أمر تلك الفاحشة

أوصاف من يفعلون هذه الفاحشة :

١ - فطرتهم منكوسة مقلوبة عن فطرة الله التي فطر الرجال عليها ، وكذلك طبيعتهم مغايرة للطبيعة التي ركبها الله في الذكور وهي اشتهاء النساء وليس الرجال ·

٢ - لذتهم وسعادتهم في قضاء شهوتهم بين النجاسات والأوساخ ·

٣ - هم دون الحيوانات حياءً وطبيعة ونخوة ·

٤ - يظهر عليهم الفكر والشرود والرغبة في الرجال لعمل الفاحشة كلما رأوا رجلا أو شابا أو طفلا .

٥ - قلة الحياء قد مصت الأرض ماء الحياء من وجهه فلا يستحي من الله ولا من خلقه ، فلا خير ولا فائدة ترجى منه .

٦ - ليس فيهم قوة الرجال ولا بأسهم ولا صرامتهم .

٧ - وصفهم الله بأنهم فاسقين .

٨ - وسماهم مفسدين في قول نبيهم : " وانصرني على القوم المفسدين " .

٩ - وسماهم ظالمين في قوله : " إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين " .

عذاب قوم لوط وعقوبتهم :

شدة العذاب دليل على أن هذه الفاحشة من أعظم الفواحش ، عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ملعون من سب أباه ، ملعون من سب أمه ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من غير تخوم الأرض ، ملعون من عمل بعمل قوم لوط)) [١]

واللعن هو : المقت والطرد من رحمة الله عز وجل أعاذنا الله من ذلك .

قال الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار : وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارف هذه الرذيلة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ، ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين ، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم

---

[١] - مسند الإمام أحمد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/١٠٢٤،١٠٢٥) برقم ٥٨٩١ .

وقد عاقب الله أهل هذه الجريمة النكراء بأقسى عقوبة ليكونوا عبرة لأسلافهم ، وليس ما حدث للسلف ببعيد عن الخلف : " وما هي من الظالمين ببعيد "

فخسف الله تعالى بهم الأرض وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود . قال الجوهري : منضود أي : متتابع . كل هذا جزاء فعلتهم الشنيعة ، قال ابن القيم رحمه الله : وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ، ونهيق الحمير .....بأن قلبها عليهم كما قال تعالى : "فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود "[١] ، [٢]

---

[١] - سورة هود الآية (٨٢) .

[٢] - ولا تقربوا الفواحش / جمال بن عبد الرحمن اسماعيل ، ص (٥٥ــ ٦٥) .

المبحث الثالث : قصة موسى وأسباب تكرارها في القرآن .

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى : " واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا (٥٢) ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا "[١] هذا ما وصفه الله به وأثنى عليه .

جاءت قصة موسى في القرآن في أماكن كثيرة متفرقة ، ولكنها مجتمعة تتحدث عن موضوع واحد ، مفسرة بعضها البعض ، ومكمل أحدهما للآخر إيجازا وإطنابا ، أو إجمالا وبيانا ، أو عموما وخصوصا ، مما يؤدي إلى كمال القصة ، وترابط الأحداث ، ويظل الهدف واحدا وهو بيان الصراع بين الحق والباطل بين موسى عليه السلام وفرعون ، والذي هو مستمر بين الشعوب والديانات ، البلدان ، والجماعات ، والأفراد إلى يوم القيامة .

ومن فضائل موسى عليه السلام ، أنه كليم الله ، ومن أنبياء بني إسرائيل ، وهو من أولي العزم من الرسل الخمسة ، إبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال تعالى مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل "[٢] .

ومن فضائل موسى عليه السلام ، ما انفرد به عن الأنبياء والرسل من نداء الله سبحانه وتعالى إليه ، وتكليمه من غير واسطة الملك (الوحي) كما بينا فيما سبق من الآيات .

---

[١] - سورة مريم الآيات (٥١ – ٥٣) .

[٢] - سورة الأحقاف الآية (٣٥) .

كذلك من تلبية الله لسؤال موسى في الحال لربه فقال تعالى : " وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون "[١] فاستجاب الله له فقال : " سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون "[٢] فقد انفرد بهذه الصفة بأن جعل الله له معينا ، هو أخوه هارون . كذلك كلمه الله ، وقربه إليه مناجاة منه ، واصطفاه من جميع الأخيار بهذه الصفة الكريمة الغالية . قال تعالى : " وكلم الله موسى تكليما "[٣] وقوله تعالى : " وقال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي "[٤] وتولاه منذ طفولته ، وشمله برعايته ، وعنايته ، ثم بعثه رسولا ، فقال تعالى : " ولتصنع على عيني "[٥] و " واصطفيتك لنفسي "[٦] وألقى الله عليه محبة منه حتى يحبه كل من يراه ، وقال تعالى : " وألقيت عليك محبة مني "[٧]

ومما جاء في السنة النبوية ما جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ((الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور))[٨]

ومن فضل موسى علينا أمة الإسلام فضلا عظيما ، إذ كان موسى سببا في تخفيف عدد الصلوات من خمسين إلى خمسة مرات في اليوم والليلة ، حين كان يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطلب من ربه التخفيف إلى أن استجاب الله لرسوله الكريم صلى الله عليه

---

[١] - سورة القصص الآية (٣٤) .

[٢] - نفس السورة الآية التالية .

[٣] - سورة النساء الآية (١٦٤) .

[٤] - سورة الأعراف الآية (١٤٤) .

[٥] - سورة طه الآية (٣٩) .

[٦] - سورة طه الآية (٤١) .

[٧] - سورة طه الآية (٣٩) .

[٨] - رواه البخاري ، من فتح الباري ص٤٩٥ ، حديث رقم ٣٣٩٨ ، باب قوله تعالى : " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة .. "

وسلم ، فصارت خمسة صلوات ، وخمسين في الأجر ، وجاء في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فإذا سواد عظيم ، فقيل انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون))[1] ،[2]

هذه مجمل فضائل موسى عليه السلام ، ولم يكن هذا هو المغزى الأساسي من تكرار القصة ، بل هناك مغازي جليلة نستقيها من قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، نتناول منها :

لابد لتالي كتاب الله تعالى من أن يتدبر معانيه ، وإخلاص النية حتى يلهمه الله ولو قليلاً من المعاني السامية لهذا القرآن ، التي يتميز علمه عن بقية العلوم ، ولا بد من النظرة الثاقبة ، والوقوف عند الدروس ، والعبرة فيها .

فأول ما نجده من الدروس والعبر في قصة موسى عليه السلام : هو الصبر ، فحياة موسى عليه السلام كلها محن وابتلاء ، فصبر موسى ، واحتسب الأجر عند الله في معاندة فرعون وتعنته ، وعدم استجابته لنداء الحق ، فلم يئس موسى عليه السلام ، ولم يقنط من رحمة الله ، فكان كلما زاد فرعون تكبراً وتجبراً ، كلما ازداد موسى إصراراً وتمسكاً بالدعوة حتى نصره الله .

---

[1] - رواه البخاري ومسلم ، مختصر صحيح مسلم ١٠١ ، وقد ورد في الحديث قوله (هم الذين لا يرقون) وقد علق عليه الألباني بقوله : هو مما تفرد به مسلم دون البخاري وغيره ، ثم هو شاذ سنداً ومتناً ، وحسبك دليلاً على شذوذه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رقى غيره أكثر من مرة ! صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني (٧٤٠/٢) حديث رقم ٣٩٩٩ـ ١٤٧٥ .

[2] - نظرات في أحسن القصص (١٣١/٢ـ١٣٣) ، د. محمد السيد الوكيل . قصص الأنبياء لابن كثير ص٤٢٣ .

ومن أهم العبر والعظات تلك القيمة العظيمة من الإيمان التي وهبها الله لسحرة فرعون ، الذين سارعوا بجمع أكبر السحرة والسحارين ، ما أن رأوا معجزة موسى الخالدة حتى خروا لله سجدا ، فآمنوا رغم توعد فرعون إياهم بالقتل ، والتنكيل ، قائلين في ردهم على فرعون ، قال تعالى : "قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا" [١] تضحيات في سبيل الإيمان بالله ، الذي لن ولم يكن وليد اللحظة ، ولكن تكبر فرعون ، وجبروته كان حائلا بين إيمانهم ، وقول الحق . فآثروا الموت وطلب الغفران من الله على بقائهم في ملة فرعون .[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا أول النهار سحرة فصاروا في آخره شهداء بررة .

قال الله تعالى : " نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون "[٣] إن آيات الله وعبره في الأمم السابقة ؛ إنما يستفيد منها ، ويستنير بها المؤمنون ؛ والله يسوق القصص لأجلهم .

وفي قصة موسى عليه السلام : أن الله إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ، وأتى به شيئا فشيئا بالتدرج ، فالمسلم يجب عليه التروي ، وإدراك حكمة الله فيما منع عنه ، وفيما لا يتحقق من فوره ، وأن يكون دائم الثقة في نصر الله للحق .

ومنها أن الأمة المستضعفة مهما بلغت من الوهن ينبغي ألا تستسلم ، ولا يستولي عليها اليأس ، ويبدو فيها الكسل عن السعي في حقوقها ، وطلب الوصول إلى غايتها ، خاصة إن كانت مظلومة . وإن الأمة إن لم تطالب بحقوقها لا يقوم أمر دينها ولا دنياها .

---

[١] – سورة طه الآية (٧٢) .

[٢] – نظرات في أحسن القصص ، د. محمد السيد الوكيل (١٥٥/٢، ١٥٦) .

[٣] – سورة القصص الآية (٣) .

وأن الرحمة والإحسان من الله لخلقه ، فلابد أن نحسن على من نعرف ومن لم نعرف ، وأن من صفات الأنبياء إعانة المحتاج ، وإغاثة الملهوف ، ومساعدة العاجز ، ومن مكارم أخلاق العبد تحسين خُلقَهُ مع الغير سواء كان في مقامه أو أدنى منه .

وان من أعظم نعم الله على العبد أن يثبته عند الشدائد ، والمخاوف ، والابتلاءات ، وأن يلهمه رشده عند الزلل ، بما يزيد يقينه ، ويقوي إيمانه .

كذلك تبين لنا أن في شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت ما ينسخه ، وأن في هذه الآيات البينات التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام تأييداً لصدق نبوته ، ودليلاً على وحدانيته سبحانه ، وأنه على كل شيء قدير ، وإن ما في هذه القصة من تفصيل مطابق ، وتأصيل موافق دليلاً على صدق رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن من كان عمله في طاعة الله ، فهو مستكملاً الوحدانية ، واثقاً بها ، رجاءً ، وتوكلاً ، واستعانة ، واستغاثة ، وخوفاً فإن الله يحميه ، ويرعاه .

وأخيراً مما في قصة موسى من ربط الآيات بسابقتها ، إذ كل يتحدث عن الإيمان ، والإقرار ، والتصديق الجازم بكل ما يخبر به الله ورسوله ، الموجب لأعمال القلب ، والجوارح ، وعدم الشك فيما أرسل وما أخبر من أخبار البعث ، واليوم الآخر .[1]

ومن أهم أسباب تكرار قصة موسى في أكثر من موقع :

١. الاهتمام بشأن القصة ، لتمكين العبرة منها في النفس ، فالتكرار من طرق التأكيد ، وإمارات الاهتمام مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

---

[1] – قصص الأنبياء ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، علق عليه أشرف عبد المقصود ، ص (١٠٤ ــ ١٠٧) .

٢. بلاغة القرآن في أعلى مراتبها ، فمن خصائص البلاغة : إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، وترد القصة في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر . وتصاغ في غالب مُغاير ، فلا يمل الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان جديدة .

٣. قوة الإيجاز في إيراد المعنى الواحد بصور متعددة .

٤. اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة ، فتذكر معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتذر معان أخرى في سائر المقامات ، حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .[١]

---

[١] – مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ، ص (٣١٨، ٣١٩) .

[illegible] : القصص المذكورة في السورة ومناسبتها لبعضها .

قد أوردت سورة النمل قصة موسى ، وداود ، وسليمان ، وصالح ، ولوط عليهم السلام ، وقد عودنا القرآن في كثير من السور ذكر قصة موسى عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ، وقصة عاد وثمود ، ونوح ، وهود ، ولوط ، وشعيب وقد تسبقهما قصة إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام ، والشريعة السمحة ، الذي قال الله فيه : "ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس"[1]

وكثيراً ما تكون القصص حسب التسلسل الزماني الذي بعث فيه الأنبياء والرسل ، كما في سورة الأعراف ، والشعراء . وأحياناً تأتي بعض القصص على غير ذلك كما في سورة النمل ، فلا بد من رابط يربط بين هذه القصص .

وإذا تدبرنا الإعجاز الذي نحن بصدده في هذه السورة ، بالرغم من عدم ذكر القصة كاملة إلا إنها اهتمت بالجانب الإيماني ، وما آتاهم الله من معجزات ، ودلائل ، وبراهين على وجود الله ، وأنه هو المعبود بحق ، ولا شريك له في ألوهيته ، وربوبيته ليؤمنوا به ، ويوحدوه ، ويفردوه بالعبادة . فأبوا ، وتكبروا ، وتجبروا ، فقصم الله ظهورهم ، كلٌ بما يناسب كفره ، وطغيانه .

تصدرت القصص قصة موسى عليه السلام ، والتي عرضت اختيار الله له ، اصطفاؤه نبياً رسولاً ، وأظهر معجزة العصا ، وإبراء يده . وتعرضت الآيات لذكر عدد آخر من المعجزات له

---

[1] - سورة الحج الآية (٧٨) .

عليه السلام ، ثم طلب موسى عليه السلام من فرعون وقومه الإيمان ، والاعتراف بالله الواحد الأحد ، فكان فرعون أكثرهم ظلماً ، وتكبراً ، وتجبراً ، وطغياناً ، وكفراً فاق كل ظلم وطغيان ، لذلك استفتحت بقصته ، وشاركه عليه السلام في ذلك كلٌ من صالح عليه السلام ، الذي طلب من قومه الإيمان ، فدعاهم مرتين ، الأولى قبل أن يُرسل الله الناقة لهم ، فطلبوا معجزة ، ولبى الله طلبهم ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، وطغى في كفره ، حيث بيت الرهط التسعة المفسدون النية بقتل صالح عليه السلام وأهله ، ومكرهم به وهو لا يشعر ، فدمر الله عليهم ، وقومهم أجمعين ، ومكر بهم أشد مكراً من مكرهم ، وترك بيوتهم خاوية على عروشها ، وتركها آية للعالمين .[١]

ولوطاً الذي خالف قومه الطبيعة البشرية ، وجنحوا إلى الكفر بفطرة الله _ ميل الجنس إلى الجنس الآخر _ فلما دعاهم إلى الحق ، توعدوه بالطرد من القرية ، وتشريده وأهله _ إلا امرأته التي كانت معهم ، تقر ما يفعلون من الأفعال الشنيعة _ فأمطر الله عليهم مطراً العذاب ، فأهلكت قريتهم بكاملها : أناسها ، وأنعامها فلم يبق لهم أثر إلا مساكنهم ، ونجى الله لوطاً وأهله .

فهذه مشاهد لمن جاءتهم آيات الله تدعوهم إلى الإسلام ، والإيمان فعصوا ولم يؤمنوا ، بل تمادوا في كفرهم ، وعتوا عن أمر ربهم ، آذوا أنبياءهم ، أو هموا بإذائهم ، بعد أن استجاب الله لطلبهم من أنبيائهم ، لإثبات صحة دعوتهم ، كالإتيان بالمعجزات ، فاستجاب الله لهم ، فلما لم ينصاعوا لأمر الله جاءهم غضبه الذي لا مفر ، ولا منجا ، ولا ملجأ منه إلا إليه ، فكبتوا عن آخرهم ، ولم يبق إلا العظة والعبرة منهم ، وفي هذا ذكرى لقريش التي ضربت لها الأمثال ، وكان الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والذي فعل قومه من قريش كما فعل وقال الأولون : "اللهم

---

[١] – في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٢٦٤٤) .

إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" [١] واتهموا نبيهم بالسحر والكهانة ، والشعر والجنون . فليس ببعيد أن يمطر الله عليهم كما أمطر على غيرهم من قبل ، فكان عرض قصص الأمم المُهلكة بمثابة إنذار وأيُ إنذار ، فيه المشهد المجسد أمامهم ، في بيوت قوم صالح عليه السلام ، يمرون بها في سفرهم وترحالهم .

ثانياً : صور الإعجاز البياني التي جمعت بين القصص ، وأصحاب المعجزات الباهرات .

موسى عليه السلام ، في العصا التي صارت حية ،فلقفت كل حية سحر أمامها ، حتى آمن السحرة ، وخروا ساجدين ، وعلموا أن الله واحد ، وأن موسى عليه السلام لم يكن ساحراً بل نبياً رسولاً .

وهناك معجزات في قصة سليمان عليه السلام ، حيث سخر الله له الجن جنداً له ، طوع له تحت أمرته . وعلمه منطق الطير ، يعلم لغتها ، ويتفاهم معها . وحضور عرش بلقيس بغمضة جفن ، إضافة إلى المعجزات العلمية التي صحبت تغير هيئة عرش بلقيس ، الذي قوائمه من لؤلؤ ، وجوهر ، وكان مستراً بالديباج ، والحرير ، وعليه تسعة مغاليق ، وفصص بالياقوت ، والزبرجد واللؤلؤ . والإعجاز في خروج الناقة من الصخرة ، كما طلب قوم ثمود من نبيهم ورسولهم صالح عليه السلام ، لتكون دليلاً على صدق نبوته ، فاجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم من بين هذه الصخرة ناقة عشراء _ وأشاروا إلى صخرة بعينها _ وصفتها أنها عشراء تمخض . فأخرج الله لهم ناقة جوفاء يتحرك جنينها بين جنبيها ، فآمن الضعفاء ، وكفر الكبراء منهم ، بعد أن أخذ عليهم صالح عليه السلام المواثيق أن يؤمنوا ، ولم يوفوا بما عاهدوه ، فتوعدهم الله ثلاثة أيام ثم دمر عليهم .

---

[١] – سورة الأنفال الآية (٣٢) .

وكذلك في بناء مدائن صالح عليه السلام ، الذي ذكرها الله كنعمة لم يمتن بها على قومٌ من قبلهم : "وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين"[١] وقال : "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"[٢] فهي آية من آيات الله خالدة إلى اليوم ، وهي من الأماكن الأثرية التي تضم نقوش ، وطريقة تحويل قوم ثمود هذه الجبال إلى بيوت ، ـ وأخرى ينتظر الكشف عنها ـ فهي حضارات تكتشف ، تركت آثارها الدالة على العلم الأزلي الذي أودعه الله في الإنسان منذ خلقه ، بعيداً عن تأثير المؤسسات العلمية الحديثة ، كذلك تكشف مهاراته الشامخة عبر العصور ، لتبرهن للعالم التقدم الهندسي بتعليم رباني ، معلن التحدي بعلم الإنسان العربي في مهد الديانات ، والرسالات .

فهذه معجزات من الله ، مع التحدي ، والبطش في حالة الكفر بها .[٣]

وهناك رابط آخر بين قصة صالح عليه السلام ، وقصة لوط عليه السلام ، فمن الأسباب المؤدية إلى عقر الناقة ، والوصول بقوم صالح عليه السلام إلى النتيجة المهلكة هو ، الدافع الأشد تأثيراً في النفوس من الدوافع المادية ، والعقدية ألا وهو دافع الإغراء الجنسي ، الذي أثير في النفس البشرية ودفعها إلى التصرف بغير وعي ، ولا تفكير . وقد اجتمعت هذه الدوافع لدى الجناة ، فجعلتهم يخططون لجريمتهم ، وينفذونها دون أن يقدروا العواقب الوخيمة التي ستحل بهم

كانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزه بنت غنم ، وكانت ذات بنات حسان ، ومال ، وإبل ، وبقر ، وغنم . وامرأة أخرى يقال لها صدوف بنت المحيا ، كانت من أحسن النساء ، وكانت غنية ذات مال ، وإبل ، وبقر ، وغنم ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ،

---

[١] – سورة الشعراء الآية (١٤٩) .

[٢] – سورة الأعراف الآية (٧٤) .

[٣] – تفسير ابن كثير (٢٢٩/٤) .

وأعظمهم كفراً ، وكانتا تحبان أن تُعقر الناقة . فنزلت صدوف ودعت رجلاً من ثمود يقال له الحبان لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها إن فعل ذلك فأبى ، فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج ، وجعلت له نفسها إن هو عقر الناقة ، فأجابها لذلك . ودعت عنيزة قدار بن سالف ، فقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة . وكان قدار منيعاً في قومه . فانطلقا واستنفرا الغواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر فكانوا التسعة نفر ، فرصدوا الناقة ، فمرت على مصرع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم عنيزة ، وأمرت ابنتها فأسفرت عن وجهها لقدار ، فشدَّ على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها ، فخرت ، ورغت تحذر فصيلها ، ثم طعنها في لبتها فنحرها .

فنلاحظ أن الدوافع تضافرت لتنفيذ المؤامرة لقتل ناقة صالح عليه السلام ، وكانت أقوى هذه الدوافع هو الإثارة الجنسية . وهموا بقتل صالح عليه السلام فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .[1]

وهنا نلمح ذلك السلاح الخطير الذي تلعبه الشهوة ، والإثارة الجنسية حيث توضع لتذليل العقبات ، والتغلب على الصعوبات ، واستعمال هذا السلاح الوضيع لنيل المطالب ، ونقف على صورة المؤمن الذي راودته صدوف ، حيث عرضت عليه جمالها ، رخيصاً ، فأبى صوناً لدينه ، وحفاظاً على كرامته ، وأن الإيمان إذا استقر في القلب تحطمت أمامه كل دواعي الهوى .

وكذلك قوم لوط ، استحوذت عليهم شهواتهم الجنسية ، التي لم ينزل الله بها من سلطان فجمعوا مع الشرك هذا العمل المنكر ، الذي حال بينهم وبين الإيمان ، لما فيه من الانحراف الخطير عن الفطرة ، لأن الله خلق الإناث لتكون متعة الرجال ، وهذا هو طريق البشر الأسوياء ،

---

[1] - جامع البيان في تأويل أي القرآن للطبري م٨ (١٥/٢٢٧،٢٢٨) .

فانتكست عندهم الجبلة التي خلق عليها البشر ، فدل هذا على طبع فاسد لا يرجى إصلاحه ، ففقدوا العقول التي يخاطبون عن طريقها ، فدلهم لوط عليه السلام على الطريق السوي ، فأنكروه ، وأصروا على غيهم ، وجاهروا بمعصيتهم ، فاستعجل لهم لوط عليه السلام العذاب ، لاتباعهم تزيين الشيطان ، وهموا بطرد لوط وأهله ، فأهلكهم الله .

فكما اتفقت الصورتين في أثر المعصية ، واتباع الشهوة ، كذلك اتفقت في تزيين الشيطان للإنسان الشهوات من المال ، والحلال ، والشهوة ، وهي سبب الكفر ، ومن باب آخر ، ربط القصتين ، قصة صالح ، وقصة لوط عليهما السلام مع قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ ، حين زين الشيطان لبلقيس لما لها من ملك ، فصدها عن السبيل في كفرها .

وسبب تكرار القصص ، والحكمة من ذكرها : عدم الوقوع في المحذور ، أو ما لا يكون محظوراً ، لأن عَمَلَ عَمَلُ المغضوب عليهم يورث عدم الكراهية لهم ، ونحن مطالبون بالتعبد بكراهية المغضوب عليهم . وقد أخذ الله كل من قوم صالح عليه السلام بعذاب خاص ، هو الصيحة ، وليس صناعته . وأخذ قوم لوط بعذاب خاص هو قلب الأرض بهم ، وإكفائهم ، وليس زلزالهم ، وهذه خوارق كونية ، لا مثيل لها ، ولا تكرار ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً .

الباب الثاني

الآيات الكونية وعلاقتها بالإيمان .

الفصل الأول : مقارعة القرآن المشركين بالحجة

الفصل الثاني : الإنسان أمام التحديات .

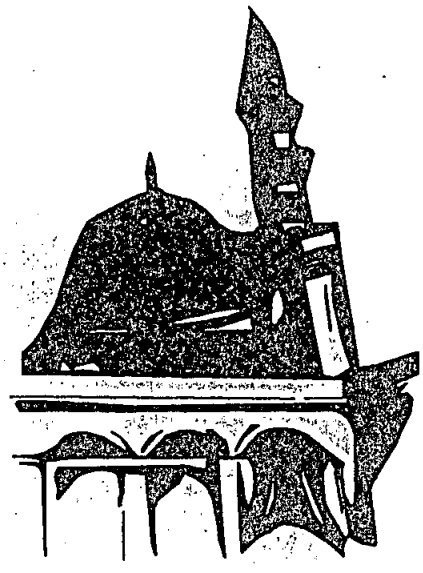

الفصل الأول :

مقارعة القرآن المشركين بالحجة

المبحث الأول : خلق السماوات والأرض وزينتها .

المبحث الثاني : روعة الأسلوب والأداء البياني في ربط الآيات بخواتيمها ..

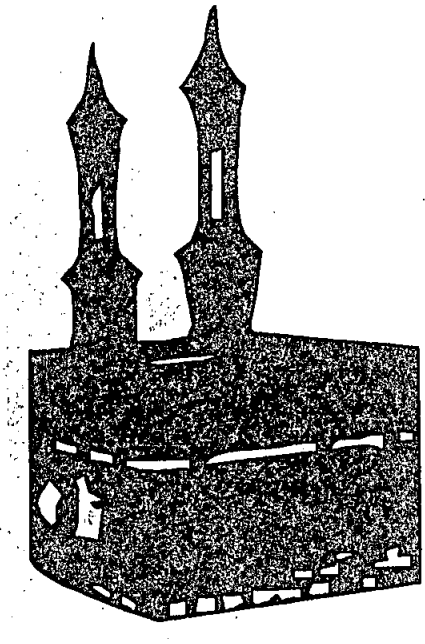

المبحث الأول : خلق السماوات والأرض وزينتها .

قال الله تعالى : "قلِ الحمد للهِ وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى آللهُ خيرٌ أمّا يشركون (٥٩) أمّن خلقَ السماواتِ والأرضَ وأنزلَ لكمْ من السماءِ ماء فأنبتنا بِهَا حدائقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لكمْ أن تُنبِتُوا شجرَها أإلهٌ مع اللهِ بلْ هم قومٌ يعدِلون "[1]

قال الله : يا محمد الثناء والشكر لله على ما أنعم على عباده الذين اصطفاهم ، واختارهم لرسالته ، والمقصود به رسلِه ، وأنبيائه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام وأتم التسليم .[2] كما قال سبحانه وتعالى : "سبحانَ ربكَ ربِ العِزةِ عما يصِفُون (١٨٠) وسلامٌ على المرسلين (١٨١) والحمدُ للهِ ربِ العالمين "[3] وقال الثوري ، والسدي : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا تعارض إذ الجميع مأمور بحمد الله على نعمة الإيمان ، والتسليم به ، وأن يُسَلِّمُوا على من اصطفاهم الله ، وخيَّرهم لرسالاته .

والسؤال عن (آلله خير) استفهام إنكاري قصد به التهكم والاستخفاف بعقولهم التي تدرك عظمة الله ، ووجوده من خلال آياته ، ولكنهم يجحدون الحقيقة ، وينكرونها ، ويرفضوا التسليم بها .[4] وقد وضع السؤال أولاً للانتباه ، والتركيز على ما سيأتي بعده من تدليل بالآيات التي لا مناص من الغفلة عنها . وقد عقد مقارنة ولله المثل الأعلى ـ في صيغة الكلام ـ بين الله وبين ما يعبدون ، وأن الله تفرد بقدرات لا ينازعه فيها أحد ، ثم استطردت الآيات تبين عظمة الله ، وقدرته في خلق الكون ، وآياته ، حيث ذكر أول ما ذكر خلق السماوات والأرض ، ولم يقل

---

[1] – سورة النمل الآيتان (٥٩،٦٠) .

[2] – قول عبد الرحمن بن يزيد .

[3] – سورة الصافات الآيات (١٨٠ – ١٨٢) .

[4] – تفسير ابن كثير (٣٠٧/٣) .

الذي خلقكم ، لأن الله تعالى خلقها أولاً ، وذكر في كثير من الآيات ، وأقسم بخلق السماء والأرض ، وأن خلقها أعظم من خلق الإنسان ، قال تعالى : "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ مِن خَلْقِ النَّاسِ" مع أن خلق الإنسان لا يخلو من التعقيد من الإعجاز الذي لا يضارعه فيه أحد ،[١] ولكن بالنظر إلى ملكوت السماوات ، وعلوها ، وسعتها التي لا يعلمها إلا الله ، وصفة بعد مساحتها ، وزرقة لونها ، وطبقاتها ، قال تعالى : " وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً "[٢] وإمساكها بغير عمد ، وعظمة شمسها ، والقمر يزينها ، والكواكب ، ومقاديرها ، وأشكالها ، وحكمة تماسكها ، فلا تنشطر واحدة ، ولا تتأرجح الأخرى ، ولا تتساقط شهبها ، كما قال تعالى : " أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا "[٣] فبدأ بخلق السماوات لأن ما دونها لا يساويها ، ولا يضاهيها ، خلقاً وجمالاً ، وقوة ، ومنعة وإحكام . فجعلها سقفاً ، قال تعالى : "وجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً "[٤] وزينها ، قال تعالى : " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ "[٥] بالكواكب ، والتي أقسم بها من عظمتها فقال تعالى : " والسماءِ والطارقِ "[٦] وقال تعالى : " فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ "[٧] وهي مخلوقة بحكمة ، مقدارها ، وشكلها ، ولونها ، وفي بعدها وقربها من الأرض ، وطبقات السماء التي تبعد بين كل سماء وسماء خمسمائة سنة .[٨] وتكوين السحب ، وتجميعها على الأرض بواسطة الرياح ، فتصير سحاباً ممطراً ، لتنبت الزرع والضرع ، وهي سبب حياة الناس بعد الخلق ، روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال : ((هذه روايا

---

[١] – تفسير ابن كثير (٣٠٧/٣) .

[٢] – سورة النبأ الآية (١٢) .

[٣] – سورة النازعات الآية (٢٧) .

[٤] – سورة الأنبياء الآية (٣٢) .

[٥] – سورة ق الآية (٦) .

[٦] – سورة الطارق الآية (١) .

[٧] – سورة التكوير الآيتان (١٥،١٦) .

[٨] – مفتاح دار السعادة ، لابن قيم الجوزية (٢٧/٢،٢٨) .

الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ، ولا يذكرونه))[١] ثم تكوين السماوات من سبع طبقات ، وتزيينها بالنجوم ، والكواكب من الشمس والقمر ، والأفلاك السيارة ، مع علوها ، وشموسها بلا عمد ، والله أقسم بها في كثير من الآيات . قال تعالى : " والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ "[٢] " والسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا "[٣] " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا (١٦) وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا "[٤] وقال تعالى : " فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ "[٥] وجاء في السنة المباركة إن الله خلق كل السماء طبقات بعضها فوق بعض ،[٦] وهذا مدرك بالحس ، مع السمع ، وما توصل له الإنسان من العلم الذي أثبت أن الكواكب السيارة يكسف بعضها بعض ، فأدناها القمر في السماء الدنيا ، وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة . وبواسطة الشمس والقمر اللتان في السماء يعرف المشرق والمغرب ، واليوم ، والساعة ، والشهر ، والسنة ، قال تعالى : " لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا "[٧] وكثيراً ما تذكر السماوات والأرض معطوفة عليها كأنها شيء واحد لأن كل خير ومنفعة من السماء معكوسة على الأرض ، فالسماء بزينتها تضيء الأرض ، والسحاب يروي الأرض ، وينبت الزرع ، وشمسها سبب الحياة في الأرض ، فهما مرتبطتان بعضهم ببعض في المصالح ، والدوران ، فإذا اختل واحد منهم تعطلت الحياة في الأخرى .

---

[١] – رواه الترمذي برقم ٣٢٩٨ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٩٩، ٤٠٠) ، وضعفه في العلل المتناهية (١٣/١) بأنه مرسل .

[٢] – سورة البروج الآية (١) .

[٣] – سورة الشمس الآية (٥) .

[٤] – سورة نوح الآيات (١٥ــ ١٧) .

[٥] – سورة فصلت الآية (١٢) .

[٦] – تفسير ابن كثير (١٣٧/٤) ، من تفسير سورة نوح .

[٧] – سورة الإسراء الآية (١٢) .

وكذلك خلق الأرض له من العظمة ما يوازي خلق السماوات ، وكذلك الأرضين سبع طبقات ، كل منها بكثافتها ، وانخفاضها ، وجبالها ، وبحارها ، وقفارها ، وعمرانها [١] وما فيها من المنافع من اختلاف الليل والنهار طوله وقصره ، ليشهد الناس منافع لهم مما تمدهم به السماء من ماء بإذن ربها ، فتحيى به الأرض ، وتصير مخضرة ، ذات بهجة ، بساتين لا تخلو من الطبيعة الساحرة الجذابة ، والحدائق التي تعم بالفواكه المختلفة المذاق ، والخضراوات المتنوعة الشكل ، والتي لا يمكن للإنسان أن يهيئ هذه الظروف الملائمة من ماء ، ومطر ، وشمس ، وضوء ، وعتمة ، وجفاف حتى ينمو الزرع ، وتكثر الخضر ، وتتفتح الأزهار ، والورود بالألوان الخلابة التي تذكر بعظمة الله ، والسجود له أمام عظمة هذا الكون البديع ، الذي في كل لون شجرة وأخرى إعجاز يخرُّ له الإنسان المؤمن المتأمل المتدبر له ساجداً شاكراً لنعمة الله .

قال تعالى : " أفرأيتم ما تحرثون (٦٤) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء جعلناه حطاماً فظلتم تفكهون " [٢]

وتختم آية النمل السالفة الذكر باستفهام " أإله مع الله " أي : بعد هذا كله يحق لكم أن تعبدوا مع الله إلهاً آخر ، أم هناك من يستحق العبادة غير الله ؟! سبحانك ربنا لا إله إلا أنت .

إنها دعوة للتأمل في كل زمان ، وكل مكان ، وكل عصر وأوان ، موجهة للقلوب الذاكرة العابدة الخاشعة ، إلى من يعون ويتفكرون ويعقلون ويفقهون ويؤمنون ، إلى أولي الألباب والنهى والأبصار ، إلى من يتأملون ويتدبرون وينتفعون ، وإلى قدرة القادر ينظرون ولسان حالهم ومقالهم : لا إله إلاَّ هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون .

وكذلك دعوة إلى الساهين اللاهين ، المعرضين ، من لهم عيون لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وقلوب لا يفقهون بها ، من هم كالأنعام بل هم أضل ، يأكلون ويتمتعون ، ولم يفقهوا

---

[١] - تفسير ابن كثير (٣/٣٧٠) .

[٢] - سورة الواقعة الآيتان (٦٤،٦٥) .

معنى " إلا ليعبُدُونِ " الذين ينظرون آيات الله في الكون وهم عنها معرضون .. إليهم علَّهم يستيقظون . وما قدروا الله حق قدره سبحانه أنى يؤفكون .

فالكون كتاب مفتوح لمن أراد أن يتدبر ، أو أراد شكورا من إبداع ينطق بعظمة الخالق ، تأملته في جولات ترتاد آفاق السماء ، وتجول في طبقات الأرض ، عند زهرات الحقول ، وتصعد مدارات الكواكب والنجوم ، قد وضع كل شيء في وضع مناسب ، وخلق بمقدار مناسب ، يبين عظمة ، وقدرة الله ، وتقديره في خلقه ، ومخلوقاته ، تهديك إلى الحكمة ثم يقرع القلوب ، والفؤاد بقولِه تعالى : " أإلهٌ مع الله تعالى الله عما يُشرِكون " السماء بغير عمد ترونها ، من رفعها بالكواكب زينها ، الجبال على الأرض من نصبها ، الأرض من سطحها وذللها ، وقال امشوا في مناكبها . وفي الأرض آيات عظيمة لو تأملتها وحدها لكفتك [1]، وصدق من قال :

للهِ في الآفاق آياتٍ لعل أقلها هو ما إليه هداك

ولعل ما في النفس من آياته عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكَ

والكون مشحونٌ بأسرارٍ إذا حاولت تفسيراً لها أعياكَ

وإذا ترى الثعبانَ ينفثُ سمهُ فاسألهُ من ذا بالسموم حشاكَ

واسألهُ كيف تعيش يا ثعبان أو تحيى وهذا السمُ يملأُ فاكَ

واسأل بطون النحل كيف تقاطر الشهدَ وقل للشهدِ من حلاكَ

بل سائل اللبن المصفى كان بين دمٍ وفرثٍ مالذي صفاكَ

وإذا رأيت الحيَّ يخرج من حنايا ميتٍ فاسأله من أحياكَ

قل للهواء تحسهُ الأيدي ، ويخفى عن عيونِ الناس من أخفاكَ

قل للنبات يجف بعد تعهدٍ ورعاية من بالجفافِ رماكَ

---

[1] – شريط دعوة للتأمل للشيخ علي القرني .

وإذا رأيت النبت في الصحراء يربوا وحده فاسألهُ من أربـــــاكَ

وإذا رأيت البدر يسري ناشراً أنواره فاسألهُ من أســـــــراكَ

واسأل شعاع الشمس يدنوا وهي أبعد كلُ شيءٍ ما لذي أدنـــاكَ

قل للعرير من الثمار من الذي بالمر من دونِ الثمارِ غـــــذاكَ

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله من يا نخلُ شق نـــــواكَ

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فاسأله من أرســـاكَ

وإذا ترى حجراً تفجر بالمياهِ فاسأله من بالماء شق صـــــفاكَ

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلالِ جرى فاسأله من الذي أجـــــراكَ

وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى فسله من الذي أطـــــغاكَ

وإذا رأيت الليل يغشى داجياً فاسألهُ من يا لليلُ حاك دجـــاكَ

وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً فاسألهُ من ياصبح صاغ ضُحَاكَ

هذي عجائب طالما أخذت بها عيناك وتفتحت بها أذنـــــاكَ

يا أيها الإنسان مهلاً مالذي بالله جل جلاله أغـــــــــراكَ [١]

التفات : " أءلهٌ مع الله بل هم قومٌ يعدلونَ " فيه التفات قوم يميلون عن الحق ، ويجنحون للباطل ، ويجحدون ، وينكرون ، وهو الله في السماء والأرض ، لا إله إلا هو ، الكون من آياته ، يشهد بوحدانيته ، من تأمل عرفَ أن الله خلقهُ وهو عبداً مخلوقاً ، والكون والآفاق كتاباً مسطوراً ينطق تسبيحاً ، وتوحيداً ، وذراته تهتف تمجيداً وتحميداً : " هذا خلقُ الله فأروني ماذا خلقَ الذين من دونهِ " ؟!

---

[١] – من شريط مواعظ وحداء (حادي الطريق) الجزء الأول .

قال تعالى : " أَمَّنْ جعلَ الأرضَ قراراً وجعلَ خلالها أنهاراً وجعلَ لها رواسيَ وجعلَ بينَ البحرينِ حاجزاً أإلهٌ مع اللهِ بل أكثرهم لا يعلمونَ (٦١) أمَّنْ يُجيبُ المضطرَ إذا دعاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلكُم خُلفاءَ الأرضِ أإلهٌ مع اللهِ قليلاً ما تذكَّرونَ (٦٢) أمَّنْ يهديكُمْ في ظُلماتِ البرِ والبحرِ ومنْ يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بينَ يديْ رحمتِهِ أإلهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عما يُشْرِكونَ "[١]

وذكرت الأرض مرتين : مرة مرتبطة بذكر السماوات لما فيها من المنافع المرتبطة ، ثم فصل الأرض لأهميتها عند الإنسان ، لأن الله خلقها ، وهيأ فيها وسائل الحياة قبل خلق الإنسان ، ففطرها ، ودحاها ، وذللها ، وجعلها فراشاً ، ومهداً ، وجعل فيها أرزاقهم ، ومعيشتهم ، وجعل فيها السبل لنقل حوائجهم ، وأنفسهم ، وثبتها بالجبال لئلا تميد بهم ، ووسع مداها ، وأحاطها بالمياه العذبة ، والمالحة ، وجعلها كفاتاً تضمهم أحياءً وأمواتاً .[٢]

قال تعالى : " وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كلِ زوجٍ بهيجٍ "[٣] فالله خلق الأرض فرشاً ومهداً وتذليلاً للعباد ، وجعل فيها أقواتهم ، وأرزاقهم ، ومعايشهم ، وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً لها ، ووسع مدارها فبسطها ، فهي ميتةً هامدةً إذا لم ينزل عليها الماء ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وتحركت ، وارتفعت ، واخضرت ، وانبتت من كل زوجٍ بهيجٍ رزقاً للعباد على اختلاف ارزاقهم ، فيها من مقادير وألوان ، ومنافع من فواكه وثمار ، وأدوية ، ومراعي للدواب والطير . وبين السماء والأرض الرياح بهبوبها ، وعواصفها ترحم من يشاء الله ، وتكون وبالاً على من يشاء الله تعالى . وهي تسوق السحاب المسخر بين السماء والأرض ، الذي يؤلفهُ الله بقدرتهِ ثم يسوقهُ إلى الأرض المحتاجة إليه ، فإذا علاها سال

---

[١] – سورة النمل الآيات (٦١ – ٦٣) .

[٢] – مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (٣١/٢) .

[٣] – سورة الحج الآية (٥) .

ماء عليها بمقدار فارتوت وأنبتت من كلِ زوجٍ بهيجٍ رزقاً للعباد من البشر ، والجن ، والطير ، والدواب .[١]

وما يذكر لفظ (أمن هو ...) وإلاَّ يكون تقديره : أفمن يفعل يفعل كمن لا يفعل ، وقد ورد في سور كثيرة : " أفمن شرح الله صدرهُ للإسلامِ فهوَ على نورٍ من ربهِ فويلٌ للقاسيةِ قلوبهم من ذكرِ الله أولئك في ضلالٍ مبين "[٢] وقد حكى سيبويه : أن العرب تقول : أن السعادة أحب إليك أم الشقاوة ، ولا خير في الشقاوة أصلاً . أي : من باب التهكم .[٣] وفي المعنى : أثواب الله خيرٌ أم عقابُ ما تشركون به .

وتستطرد الآيات تعدد آيات الله في الأرض تفصيلاً ، ويبدأ بوصف الأرض قارة ثابتة لا تهتز ، ولا ترتجف من ثقل ما عليها من جبال ، وبحار ، بل جعل الجبال دعائم تثبتها ، قال تعالى : " ألم نجعل الأرض مهاداً (٦) والجبال أوتاداً "[٤] والمراد من الاستفهام : الخبر .[٥] قال تعالى : " والأرض بعدَ ذلكَ دحاها (٣٠) أخرجَ منها ماءَها ومرعاها (٣١) والجبالَ أرساها "[٦] وأجرى بحارها وأنهارها ، وطاب عيشها .[٧] بشق بحارها ، وأنهارها صغاراً وكباراً ، عذباً ومالحاً ، فالماء يملأ سطحها ولولا رحمة الله لطفح وأغرق الأرض ، وجعل عاليها وسافلها ، فالنهر عذب يروي الأرض ، ويسقي الزرع ، والإنسان ، والحيوان . والبحر ماؤه أجاج يحيط بالأقطار والبلدان وهو الذي مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخا وحجرا محجورا ، وقيل : هذا وما

---

[١] – مفتاح دار السعادة (٢/٤١ – ٤٣) .
[٢] – سورة الزمر الآية (٢٢) .
[٣] – فتح القدير للشوكاني (٤/١٤٦) .
[٤] – سورة النبأ الآيتان (٦،٧) .
[٥] – فتح القدير المرجع السابق .
[٦] – النازعات الآيات (٣٠ – ٣٢) .
[٧] – تفسير ابن كثير (٣/٣٧١) .

بعده من الآيات الثلاث ، أضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع بأن آخر ، والخلال هو : الوسط ، والرواسي هي : الجبال ، والبحرين : هو المالح والعذب . [١]

فتلتقي في إيران ، فترجع المياه إلى مجاريها التي أتت منها ، ونهر الأفرون يجعل مياه المحيط الأطلسي عذب لمئات الكيلو مترات لمصبه فيه فلا يختلط بمياه المحيط الأطلسي ، وتلتقي مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر الأبيض المتوسط أسفل لثقلها ، وتعلو مياه المحيط الأطلسي لخفتها ، ولا تختلط مياه البحر الأبيض المتوسط بمياه البحر الأسود عندما تلتقي ، بل تشكل مجريين متلاصقين فوق بعضهما البعض . فجعل الله بينهما مكاناً محفوظاً فلا تبغي محتويات بحرٍ على بحر ، ولا خصائص بحرٍ على آخر عندما يلتقيان : " إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ " [٢] فتبارك الله أحسن الخالقين ، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون . ومرج البحرين أي : أجراهما ، ومنعهما من التمازج ، وهذا لا يقدر عليه بشر : " بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " عُمِيَ البصر ، والبصيرةَ في التفكر ، والعبادة . [٣]

قال تعالى : " أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ " وهذا استدلال على أن الله هو المدعو عند الشدائد ، والكرب : " بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ " [٤] .

---

[١] – تفسير ابن كثير ، وفتح القدير نفس المرجعين السابقين .

[٢] – سورة طه الآية (٥٤) .

[٣] – شريط دعوة للتأمل للشيخ / علي القرني .

[٤] – سورة الأنعام الآية (٤١) .

المبحث الثاني : روعة الأسلوب والأداء البياني في ربط الآيات بخواتيمها .

من أكبر نعم الله علينا أن أنعم علينا ، وميز الإنسان بالتفكر ، والتدبر ، وجعله من أفضل العبادات : " وما يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ "[١] ، " وما يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ "[٢] ومن أعظم التدبر هو : تدبر آيات الله في كتابه العزيز ، والأسلوب الإعجازي الذي أراده الله ليكون معجزة لا يقدر عليها فطاحلة اللغة من العرب .

فالقرآن الكريم عجيب التنويع في أساليب الأداء البياني حتى في عرض الأقسام التي محورها واحد ، وحتى في الآية التي تتضمن معنى واحد ، إيثاراً للجمال الغني بالتنويع المجدد ، لتنبيه الفكر الإنساني ، والمحرك للذهن في مختلف الأساليب . كاختيار الأسلوب الذي هو أكثر ملائمة للقسم الذي جرى التنويع فيه ، في الأسلوب عند ذكره ، أو الأسلوب الذي يتضمن معاني أفكار متعددة يراد الدلالة عليها ، والتي غالباً ما تكون أكثر بلاغة وإيجازاً . كل ذلك يتطلب فكراً حياً يقظاً ، وإلا فاته عدم الإدراك للترابط الفكري في موضوع النص ، فيحس كأن آيات القرآن وحدات مجزأة غير مترابطة . فتفوت عليه روعة المفهوم ، وغاية المقصود بصفة عامة . وخاصة في خواتيم الآيات ، والتي تستحق وقفة من المتدبر ، ليلقي الضوء ، ويبحث عن التناسب والترابط بين مضمون الآية ، وما جاء في آخرها من قضايا شاملة .

يقول تعالى : " قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ

---

[١] – سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

[٢] – سورة العنكبوت الآية (٤٩) .

حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦١) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "[1]

اشتملت هذه الآيات على مناظرة منهجية ، تدور حول موضوع واحد هو توحيد الألوهية لله عز وجل ، مبنية على وحدانيته في الربوبية ، من الظواهر الكونية التي تضمنتها الآيات ، واللجوء إلى الله بالدعاء عند الاضطرار ، في الحاجة ، والرزق ، فهذا يلزم عقلاً توحيد الألوهية ، وإسنادها إلى الله عز وجل وحده ، فعبارة " الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى " أسلوب ابتدائي في علم افتتاح الخطابة والمناظرة . وتبدأ المناظرة بأسلوب طرح السؤال في كل آية مما يجعله المشركون آلهة يعبدون من دون الله ، ولا تنزاع الجواب من الفريق المناظِر غصباً : " آللهُ خيرٌ أم ما يشركون " ؟ ! فيقف المسؤول من المشركين في موازنة بين الرب الخالق لكل شيء ، وبين كل ما يعبدون من دون الله في الماضي ، من ملائكة ، وجن ، وأنبياء ، ورسل ، وأصنام ، وشجر ، وحجر . وفي الحاضر ، من بشر ، وقبور ، وطبيعة ، وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان . وهوخالق كل شيء ، والكون من وضعه وتدبيره فكل إنسان ذي فكر ، وعقل ، وإيمان متى وقع قرع هذه الكلمات في نفسه ، وصرف فكره لها زاد إيماناً وتعظيماً للخالق ، واحتقاراً لنفسه ، حين تسول له بارتكاب أصغر الذنوب والآثام ،

---

[1] - سورة النمل الآيات من (٥٩ – ٦٤) .

وهو يتمتع بنعمة الإيمان التي صرف غيره عنها ، والتقاليد الاعتقادية ، وتسوّل الشيطان وتزيينه له الباطل فلا يعترف بالحق ، فيساوي بين الخالق ، والمخلوق ، وهذا غير معقول . ولو اعترف المشرك بهذه الحقيقة ووجد الألوهية فقد قطع شوطاً في مناظرته ، وانتقل في طريق القناعة إلى موقع أقرب إلى المطلوب ، وإن كان المدعو ممن يرون توحيد الربوبية لله عز وجل ، استطاعت الآيات أن تقنعه ، وتقيم عليه الحجة بأن الخالق ـ الرب الأحد ـ لكل شيء في الوجود ، فهو المستحق للعبادة ، ولا أحد غيره ، لأنه بيده وجود الإنسان وعدمه ، وحياته وموته ، وصحته ومرضه ، ونفعه وضره ، دنياه وآخرته . وإن كان ممن يشك في توحيد الربوبية دعته الآيات بالاستدلال بظواهر خلق الله في الكون مرحلة فمرحلة منتقية الظواهر العظيمة التي يمكن الوصول بها إلى إقناعه . مثلا : خلق السماء والأرض والجبال والبحار تثبيتاً وتزييناً ، وعندما يذكر الله سبحانه وتعالى السماء إشارة إلى السماء ، والنجوم ، والفلك التي تجري فيها من كواكب سيارة ، فزينها بها ، وتبين منافعها من سحب ، وأمطار ، وزرع ، وشمس ، وقمر ، وتعاقب الليل والنهار ، وعلم عدد السنين ، والحساب . وعقب كل فقرة يأتي بالسؤال عن من أوجد هذه النعم ، ومن ينبغي أن يعبد مع الله ، فتأتي لزوم الإجابة بتوحيد الربوبية . وهذا استفهام إنكاري ، تعجبي ، تهكمي ، إي: إذا كان الله هو وحده الرب الخالق باعترافك ، أفيصح عقلاً أن تعبد غيره معه ، أو من دونه؟ ويأتي الرد من الله جل جلاله :"بل هم قوم يعدلون" أي : بل هم يعدلون عن الهدى و الحق والحقيقة ، إلى الضلال والباطل والخيال .

قال تعالى : "أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي ... بل أكثرهم لا يعلمون"

تستطرد الآيات تعدد مظاهر الكون كوكباً تلو الآخر ، بإطلاق الكل وإرادة الكل والجزء ، أي : السماء ، وما فيها ، والأرض ، وما عليها من بحار ، وأنهار ، ومواخر ، وحياة داخل

البحر ، وأنواع المياه ، عذب فرات ، وملح أجاج ، وتصريفها ، وجبال راسيات أوتاداً ، مثبتات للأرض ، وهي لا تتحرك من تحتكم ، ولا تتزلزل ، فيدل ذلك على نعم الله على عباده ، فيما خلق في السماء والأرض ، وسخر لهم فيها ليتفكروا فيها ، وليعلموا علومها ، ويتذكروا ظلماتها ، ومخاطرها ، ويشكروا حين ينجيهم منها .

قال تعالى : " أءلهٌ مع الله بل أكثرهم لا يعلمون " أي : لا يعلمون دلالات هذه الظواهر ، بما فيها من آيات داله على وحدانية الرب الخالق ، حين اختلت أي من هذه الظواهر ، فلا يدعون إلا الله ، في الخسوف ، والكسوف ، والاستسقاء ، وحين تضيق الأرزاق ، وتظهر الفتن ، والإعانة على الخير والعبادة ، وغير ذلك ، وكل أمور العبد ، خيرها ، وشرها لا يعين على جلبها ، ولا كشفها إلا الله . دعاء المضطر الذي يجعل الله عز وجل استجابته له برهاناً تجريبياً على وجوده ، وإنه سميع بصير ، وعليم خبير ، يلبي دعاء الداعي إذا دعاه بحكمته ، فيكشف السوء ، فيعجل بعض ، ويصرف بعضه إلى يوم القيامة ، الحاجة إليه ، وجعلكم خلفاء الأرض وفضلكم بالخلافة على بقية المخلوقات ، فيثبت بذلك أنه هو الرب الذي بيده ملكوت كل شيء ، وإليه يرجع الأمرُ كله ، فينزل الأمر بإحياء قوم ، وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم ، إذلال آخرين ، من سعادة ، وشقاء ، ويهب الملك ، ويسلب الحكم ، بيده النعمة ، وبيده النقمة ، وقضاء الحاجات ، والفقر والغنى ، والشفاء ، وتفريج الكرب ، وكشف الضر ، ومغفرة الذنب ، ونصرة المظلوم ، وهداية الضال ، وتعليم الجاهل ، وأمان الخائف ، وقوة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة العاجز ، وكف العدو ، لا يشغله شيء عن شيء ، لا يسهو ، ولا يغفل ، ولا تعجزه الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، هو الله في السماوات والأرض .

ويطرح سؤاله عز وجل : أبعد هذا كله : "أءلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون " أي : قليلاً ما تتعظون وتنتفعون بآيات الله وأدلته ، وبرهانه في وحدانيته ، وتواتر نعمته التي لم تذكركم به : "

تعالى الله عما يشركون "تجيء رداً حاسماً منه عز وجل ، بعد أن عدد ظواهر تدبيره في خلقه ، وتصريف أمور الكون ، ومعناه : تنزه وابتعد إلى جهة العلو الأكمل عما يشركون .

وأخيراً التساؤل المتضمن بدء الخلق وإعادته ، وعمن يرزق بسبب ما تقدم ذكره من السماء وأمطارها ، والأرض وتربتها ، وما اشتملت عليه هاتين الدعامتين بسبل معايش الإنسان ، وختمها بقوله تعالى : " ..قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " أي : هاتوا ما عندكم من أدلة وبراهين مثبتة بحق أن ما تدَّعون أنهم شركاء لله في ملكوته إن كانوا حقيقة ، تعالى الله عما يقول الظالمين علواً كبيرا .

ومن الملاحظ أن ختم كل فقرة من الآية يصلح أن يكون ختاماً لكل من الآيات ، مع أن كل آية قد ختمت بما هو ألصق بها ، وأكثر ملائمة لها ، فاختيار كل خاتمة ليكون رأساً لآية بعينها فيه مراعاة الأمر المناسب ، مع صلاحية الجمع للتعميم على كل الآيات .

في ترابط آخر كلمات الآيات في هذا الجزء من السورة : بأنه لو لم يعدل الإنسان عما خلقه الله إليه ، بالتفكر ، والتبصر ، والعبادة ، ومسؤوليته التي خلق من أجلها ، لو لم يعدل عن الحمد بالجحود ، والشكر بالبطر ، وكمال الخلق بنقوص عقله ، لعلم ، ولو علم حقيقة العلم من كمال الله في أسمائه وصفاته ، وما عليه من عبادة ، وماله من حقوق تجاه ربه ، لتذكر كل من غفل ونسي ، وانتبه كل من سهى ، ولشكر وما جحد ، ولعبد وما فرط ، ولوصل إلى الغاية المرجوة

فالمعاني مرتبطة ببعضها البعض في الآيات فهل من مدكر ؟! .

ويمكن أن نقول في كل آية منها " بل هم قوم يعدلون ـ بل أكثرهم لا يعلمون ـ قليلاً ما تذكرون ـ تعالى الله عما يشركون ـ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " وهذا التكامل من روائع الإعجاز البياني لخواتم الآيات في القرآن الكريم .[١]

---

[١] – قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل / عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني .

وقفه مهمة : إتيان الاستفهام في نهاية كل آية .

إن المتدبر لكتاب الله بتعمق لابد أن يقف وقفه في معنى الكلمات التي وردت في نهاية كل آية من هذا الجزء من سورة النمل ، ليبحث فيها بحثاً لغوياً ، ليجد التناسب ، والعلاقة بين رأس الآي ومقدمتها ، ليصل إلى حقيقة المعنى المراد ، والاستراحة النفسية التي تتبع ذلك البيان الرباني من الله عن نفسه ، وملكوته ، وعظمته ، وقدرته ، وعلمه بحقيقة البشر وكنة نفسياتهم التي عبر بها الله في آيات أخرى بأنهم " قوماً طاغين ـ جاحدون ـ كافرين " وجاء بمعنى بارد على النفس ، آيات في دلالتها تقذف النبال ، عميقة تخترق الفؤاد ، تصعق الروح في مواجهة صريحة ، لا تكل منها النفس ، ولا تمل ، فهذا هو أسلوب القرآن الذي لا يضارعه أسلوب .

الفصل الثاني :

الإنسان أمام التحديات .

المبحث الأول : خطاب الله وتوجيهه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني :القرآن هدى ورحمة للمؤمنين .

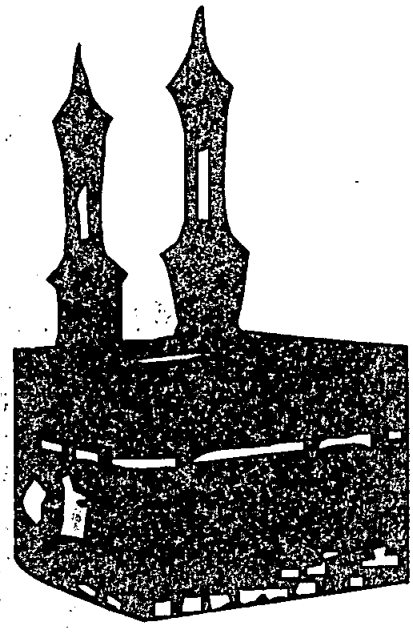

المبحث الأول : خطاب الله وتوجيهه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : " ... قل لا يعلمُ من في السماواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ وما يشعرون أيانَ يُبعثون (٦٥) بل ادّارك علمُهم في الآخرة بل هُم في شكٍ منها بل هُم منها عَمُون "[١]

بعد أن عددت الآيات آيات الله في الكون الدالة عليه ، والباعثة على الإيمان ، والهادية إلى طريق الحق وصراطٍ مستقيم ، وجّه الله خطابهُ لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، آمراً إياه أن الله هو فوق هذا وذاك ، هو المنفرد بعلم الغيب ، لا يعلمه أحد سواه . قال تعالى : "عالم الغيبِ فلا يُظهرُ على غيبِهِ أحداً "[٢] يعلم ما في السماوات والأرض وما بينهما ، وما من دابة في الأرض إلا هو يعلمها ، ولا صغيرة ولا كبيرة إلا هو يعلمها ، إلاَّ هي في محيط علمه .

" إلا اللهُ " استثناء منقطع . أي : لكن الله يعلمه ، ورفع ما بعد (إلاَّ) على اللغة التميمية . أو ما بعد إلا هو الفاعل ، وعلم الغيب عند الله وحده ، إلا إذا أراد أن يخص رسول أو نبي بعلم شيء ، استثناه وعلمهُ إياه ، كقوله تعالى : " إلاَّ من ارتضى مِن رَسولٍ " وهناك أشياء لا يطلع عليها أحد غير الله ، قال تعالى : " وعندهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمُها إلاَّ هوُ "[٣] ولا أحد يعلم متى يبعث إذا مات ، أي وقت الساعة ، وفي ذلك قال تعالى : " إنَّ اللهَ عِندهُ عِلمُ الساعة ويُنزِلُ الغيثَ ويَعلمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري

---

[١] – سورة النمل الآيتان (٦٥، ٦٦) .

[٢] – سورة الجن الآية (٢٦) .

[٣] – سورة الأنعام الآية (٥٩) .

نفسٌ بأيِ أرضٍ تموت إن الله عليمٌ خبير" [١] وقد أخبر الله عن علم الساعة ، بعلاماتها ، وأنها سوف تأتي بغتة ، و" أيانَ " معناها : متى . [٢]

قال تعالى : " بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شكٍ منها "

ادارك أي : أدرك ، استثناء على قراءة أبي جعفر ، وابن كثير ، وأبو عمر . أي : تساوى علمهم في ذلك ، كما في حديث جبريل الطويل : ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة : ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل)) [٣] أي : تساوى في العجز عن إدراك ذلك علم المسؤول والسائل . [٤]

قال قتادة في قوله تعالى : "بل ادارك علمهم بالآخرة " : يعني جهلهم بربهم ، أي : لم ينفذ لهم علم في الآخرة . وقال ابن جزع ، عن ابن عباس : حين لم ينفع العلم . وقال سفيان ، عن عمرو بن عبيد عن الحسن : أي اضمحل علمهم في الدنيا حين ينسوا الآخرة .

وقوله تعالى : "بل هم في شك منها " عائد على الجنس ، المراد الكافرون ، كما في قوله تعالى : "وعُرِضُوا عَلَى رَبِكَ صفاً لقد جِئْتُمُونَا كما خَلَقْنَاكُمْ أول مرةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أن لن نَجْعَلَ لكُم موعداً " [٥] وهذا هو الرأي الراجح . وكانوا في شك من مجيء ذلك اليوم فلما وقع بهم ، كأنهم كانوا عُمي عنها ، وليس عمى بصر ، بل عمى بصيرة من أمرها كل ماذكر ليذكرهم وينبئهم إليها لم يدركوه ، وهذا دليل على عدم علم أحد من الخلق بما عند الله ، ولو اطلعوا على شيء منه لعلموا بالآخرة وعملوا لها . [٦]

---

[١] - سورة لقمان الآية (٣٤) .

[٢] - تفسير ابن كثير (٣٧٣/٣) وفتح القدير (١٤٧/٤) .

[٣] - رواه البخاري من فتح الباري ص١٥٢ ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، برقم ٥٠ .

[٤] - تفسير ابن كثير (٣٧٣/) وفتح القدير (١٤٧/٤) .

[٥] - سورة الكهف الآية (٤٨) .

[٦] - تفسير ابن كثير وفتح القدير المرجع السابق .

قال تعالى : " وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون (٦٧) لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٦٨) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين (٦٩) ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون "[١]

وهذا سؤال الكفرة حين يدعون إلى الإيمان فيكفرون ، فيظنون أن هذا السؤال الرد عليه شاق صعب ، كأنه شيء مستحيل ، أو فيه تعجيز ، فيبادرون بالقول كما قال آباؤهم : "بل قالوا مثل ما قال الأولون (٨١) قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون "[٢] أي : أيمكن لله أن يبعثنا وآباؤنا كما كنا من قبل ، لقد وعدنا كما وعد آباؤنا من قبل ، وإلى الآن لم يبعث أحد ، بل هذه أكذوبة في أساطير السابقين منا . فيقول الله سبحانه وتعالى : يا محمد قل لهم سيروا في الأرض وانظروا ماذا فعل الله بالمعاندين ، فإنكم مجرمون مثلهم ، وسوف تعلمون ، ويصيبكم ما أصاب الذين من قبلكم من المكذبين برسالات الله ، فكان عاقبتهم الخسران في الدنيا والآخرة .

ثم يسلي الله رسوله الكريم ، ويخفف من حزنه ، ويأمره بعدم تضيق صدره بما يحيكون لك من دسائس ومكر ، ولا تأسف عليهم ، فإني خاذلهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيد دينك دين الحق .

قال تعالى : "ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون (٩٧) فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين (٩٨) واعبد ربك حتى يأتيك اليقين "[٣]

---

[١] - سورة النمل الآيات من (٦٧ ـ ٧٠) .

[٢] - سورة المؤمنون الآيتان (٨١، ٨٢) .

[٣] - سورة الحجر الآيات (٩٧ ـ ٩٩) .

قال تعالى : "ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٧١) قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون (٧٢) وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون (٧٣) وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٧٤) وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين"[١] ويقولون متى يأتي الوعد بالعذاب الذي تزعمونه ، نسمعه ولا نراه .[٢] بمعنى الآن هم في الدنيا ينتظرون الرد في ذلك والنتيجة الحاسمة .

أي : سؤال المشركين يوم القيامة ، يسألون عن العذاب الذي وعدوه .[٣] والقول الأول أقرب لأن ما بعده يوحي بسؤالهم في الدنيا لإجابة الله عليهم بقوله تعالى : قل لهم يا محمد قد يكون تبعكم ولحقكم ما توعدون .[٤] وقول ابن عباس : أن يكون قَرُبَ منكم ما تستعجلون .[٥] وبه قال مجاهد وقتادة وغيرهم ، وهو القول المرجوح في معنى (ردف) في هذا المجال .

وفيه استشعار بما يثير الخوف والهلع في قلوب الكافرين ، وهم في حالة كونهم مستهزئين ومستهترين كغيرهم من الذين لحق بهم العذاب ، من قبلهم ، وقد تكون : عسى أن يكون أجلكم قد دنا فتعلمون العذاب وتحسونه .[٦]

وإن من رحمة الله على الناس إنه لا يعجل لهم العقوبة في الدنيا ، ولكن ينذرهم ، ويحذرهم ، ثم يؤخر عقوبتهم في الآخرة ، بعد هلاكهم . وتحمل الآية على عموم اللفظ لأن هناك من الأمم من عجل الله لهم العذاب واهلكهم في الدنيا . فمن أخر عذابهم إلى يوم القيامة فليشكر الله ، ويحمده على ذلك ، ولكن شيمة الإنسان وطبعه إنه جحود كفار ، إلا من رحم

---

[١] - سورة النمل الآيات (٧١ —٧٥) .

[٢] - فتح القدير (١٥٠/٤) .

[٣] - تفسير ابن كثير (٣٧٤/٤) .

[٤] - فتح القدير (١٥٠/٤) .

[٥] - تفسير ابن كثير (٣٧٤/٤) .

[٦] - في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٦٦٤/٥) .

مع علم الله بخفايا الأمور ، وأكنة الصدور ، كما يعلم الظاهر منها . قال تعالى : " إن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " وكذلك يعلم كل شيء في السماوات والأرض لا يعلمها إلا هو ، ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء . (وما تكن الصدور) أي : تخفيه وتستره عن الأعين . و(الكتاب المبين) هو : اللوح المحفوظ ، قال تعالى : " ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين "[1] إن ذلك على الله يسير .

وفي هذا المقطع من السورة جاء التفات مرتين ، مرة في صورة المشاهدة المادية المحسوسة بالبصر والبصيرة ، والخطاب يشمل : الخطاب العام من حيث الموضوع ، حين يخاطب الله الجميع بآياته ، المشركين والمسلمين ، والأنبياء والرسل ، وإظهار العظمة والكبرياء لله وحده ، فهو الإله ، وهو الرب ، ويجب توجيه كل العبادة له ، فالتفت الخطاب في الأشياء غير المحسوسة ، بأن وجه الكلام للرسول صلى الله عليه وسلم ، لتبليغه ، وكأنه يقول هذا قول ك قاطع حاسم لكل من ادعى علم الغيب ، فبلغهم يا محمد أنه لا يعلم الغيب إلا أنا ، ودليله : إنهم لا يعلمون موتهم ، ولا نشورهم ، ولو كان لديهم علمٌ بالغيب لكان أحق أن يعلموا ذلك للعمل ، والاستعداد له . ثم الالتفات مرة أخرى في الآية التي تليها (بل ادارك علمهم) من الخطاب المباشر ، إلى الخطاب غير المباشر ، في أن الله عَلِم منتهى علمهم واضمحلاله ، وإنهم في شك من حقيقة اليوم الآخر (يوم البعث) وهم عمي من ذلك . فوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لتبليغه إياهم ... فآيات الله في الكون شاهدا على وجود الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم شاهداً عليهم ، حيث أبلغهم عن رب العزة سبحانه وتعالى : "ألم تكن تأتيكم رسلنا بالبينات" قالوا : بلى . ثم انتقل الحوار المباشر في قول المشركين والرد عليهم : "وقال الذين كفروا أإذا متنا

---

[1] - سورة هود الآية (٦) .

وكنا تراباً ..." "قل سيروا في الأرض فانظروا" ومخاطبة الله لرسوله في مواساة وتخفيف وتثبيت له : "ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون" وهذا نسق الآيات من بعدها . وقد كرر علم الغيب لتأكيد أنه لا يعلمه إلا الله ، وترسيخ المعنى في الصدور ، في قوله تعالى : "إن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٧٤) وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين" [1] جميع صور الغيب ، في صدور الناس ، وفي السماء والأرض ، وربما المقصود هنا : خصوصية السماء الدنيا لأنه سبق علمه بقوله : "قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله" والله أعلم .

---

[1] - النمل (٧٤،٧٥) .

المبحث الثاني : القرآن هدى ورحمة .

قال تعالى : "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ "[1]

القرآن اسم لكلام الله عز وجل ، الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، معجزة له إلى الأبد ، وأنه محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف . وهو كلام الله الذي صفته القدم ، لا ينقسم ولا يتجزأ ، قال الإمام الشافعي رحمه الله : سمى الله تعالى كلامه قرآناً بمثابة اسم علم لا يسوغ اجراؤه على موجب الاشتقاق .

وقال ابن اسحق صاحب المغازي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

الحمد لله ربي لا شريك له ... ذي الحول والقوة المسترزق الباقي

القاهر المنزل القرآن ندرسه ... فيه أحاديث عن موسى وإسحاق

على نبي من الأخيار مؤتمن ... يأتي على كل تنزيل بمصداق

صدقت بالحق منه واستجبتُ له ... وما ركبت على العمياء أوراقي [2]

فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم عليم ، واتضح به سلوك المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين

---

[1] – سورة النمل الآيات من (٧٦ــ ٨١) .

[2] – كتاب التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي ، تحقيق بشير العيون ، ص٢٥ .

الحلال والحرام ، فهو الضياء والنور، وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور، ومن خالفه قصمه الله ، ومن ابتغى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والعروة الوثقى ، والمعتصم الأوفى ، وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى ، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد ، هو الذي أرشد الأولين والآخرين ، ولما سمعه الجن ولوا إلى قومهم منذرين ، فمن آمن به فقد وفق ، ومن قال به فقد صدق ، ومن تمسك به فقد هدى ، ومن عمل به فقد فاز .[١]

فالقرآن كلام رب العالمين ، ليس كمثله شيء ولا شبيه ولا ند ، ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروه وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولتدكت بثقله ، وأنى تطيقه والله يقول فيه : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله "[١] . فأين قوة القلوب من قوة الجبال ؟ ولكنَّ الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمة .[٢] وعن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((ستكون فتن كقطع الليل المظلم)) قلت يا رسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : ((كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغ الهدى من غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لا تنته الجن إذا سمعته أن قالوا : "إنا

---

[١] – إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٢٧٢/١) .

[١] – سورة الحشر الآية (٢١) .

[٢] – كتاب التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي ص٣٩ .

سمعنا قرآناً عجباً " من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراطٍ مستقيم)) [١]

وفي علو القرآن على سائر الكتب المنزلة ، قال تعالى : " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه " [٢] . وإن به سور وآيات لم تنزل لنبي قبله كأم الكتاب وآية الكرسي وأواخر البقرة . وقال القاضي عياض : اعلم أنه من استخف بالقرآن أو بالمصحف أو بشيء منه ، أو جحد حرفاً منه ، أو كذّب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته وهو عالم بذلك ، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين [٣].

فالإيمان بالقرآن وبكل ما جاء فيه أول طرق الإسلام ومعاهدته والاعتناء به تلاوة وفهماً وتعهداً من وسائل الإيمان .

ويستحب في قراءة القرآن ترتيله ، وتمكن حروفه من غير تكلف ، وكره السرعة في قراءته إلا للحافظ ، فترك العجلة من الإبانة ، والوقف فيها من التؤدة ، ويؤدي إلى الفهم ، والاعتبار فيه ، وإن قلت القراءة فهو أفضل من إدراجه بغير فهم . وأن يحسّن القارئ صوته بالقرآن ، وأن يقرأ بحزن ، أن يتفاعل مع آياته ، فيحزن ، ويبكي مع آيات الوعيد ، ويطلب الرحمة من الله ، وأن يسأل الله أن يكون من أهل الرضا إذا أتى آية وعد . وخشوع القلب وتفريغه أثناء التلاوة ، أو الاستماع ، والإنصات من الواجبات ، ومن أهم الوسائل لفهم معانيه .

قال تعالى : "وقال الرسول يا ربِ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً " [٤] وذلك أن المشركين إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه ، فهذا من

---

[١] – رواه ابن اسحاق عن محمد بن كعب عن الحارث ، مسند أحمد (٩١/١) وعن المدارمي رقم ٣٣٣٤ ، محمد بن سلمة عن أبي سنان سعيد بن سنان ... عن الحارث (الأعور) ، وقال الألباني ضعيف جداً في ضعيف الجامع الصغير وزيادته ، برقم ٢٠٨١ – ٦٤٦ ، ص ٣٠٢ .

[٢] – سورة المائدة الآية (٥١) .

[٣] – الآداب الشرعية لأبن مفلح (٢٨٦/٢) ، وهو شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي .

[٤] – سورة الفرقان الآية (٣٠) .

هجرانه ، وترك الإيمان به ، وعدم تدبره ، وترك العمل به ، والعدول إلى غيره ، وكل ذلك من هجرانه .[١] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم منادياً ربه ، وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به ، ومتأسفاً على ذلك ، فهم : "اتخذوا هذا القرآن مهجورا" أي : قد أعرضوا عنه ، وهجروه ، وتركوه ، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه ، والإقبال على أحكامه ، والمشي خلفه .[٢] ومن تمر عليه أيام ولم يتلوا شيئاً من كتاب الله ، فليبكِ على نفسه ، فوالله ما حرم الطاعة عبداً إلا دلَّ ذلك على بعده عن الله عز وجل . قال سفيان الثوري رحمه الله : أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل ستة أشهر .[٣]

وقد قسم ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ هجر القرآن إلى أنواع :

أولها : هجر سماعه والإيمان به ، والإصغاء إليه .

ثانيها : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به .

ثالثها : هجر تحكيمه ، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه ، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين ، وإن أدلته لفظية ، لا تحصل العلم .

رابعها : هجر تدبره وتفهمه ، ومعرفة ما أراد المتكلم به (الله)منه .

خامسها : هجر الاستشفاء به والتداوي به في جميع أمراض القلوب والأبدان ، ودوائها ، فيطلب الشفاء ذاته من غيره ، ويهجر التداوي به .[٤]

تدبر القرآن :

---

[١] – مختصر تفسير ابن كثير / نسيب الرفاعي (٣/٣١١) .

[٢] – تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للسعدي (٥/٤٧٦) .

[٣] – شريط : جيل القرآن للشيخ محمد الشنقيطي .

[٤] – الفوائد لأبن قيم الجوزية ص١٥٦ .

قال تعالى : "فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها" [١] وقال تعالى : "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" [٢] قال تعالى : "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" [٣]

فالإعراض عن القران وعدم الاعتناء به والتهاون به له من التفريط الشديد ، والحرمان العظيم . قال تعالى : "ومن يهن الله فماله من مكرم" [٤]

ومن أكثر من تلاوته واستذكاره ، وتعاهده ، وحفظه ، يأتي تدبره ، والله أنزل علينا هذا الكتاب لتدبر آياته ، فلا نهجره ، أو تتخذ آياته مجرد ترانيم ، أو تتخذها تمائم تعلقها . وتدبر القرآن واجب لقوله تعالى : "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" [٥] فهذا الكتاب قد أنزله الله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وهو مبارك ، لا تغيب فيوض معانيه ، ولا يقتبس منها إلا الذين يتدبروا آياته . فالغاية من إنزاله أن يتدبر الناس آياته . وليس الغرض من التدبر مجرد العلم والافتخار بتحصيل المعرفة ، وإنما وراء الفهم غرض التذكرة ، والعظة ، والعمل بموجب العلم .

معنى التدبر لغة : التفكر ، لكن مادة الكلمة تدور حول أواخر الأمور وعواقبها ، وأدبارها ، ومن هذا نستطيع أن نفهم أن التدبر ، هو : التفكر الشامل ، الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة .

أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : "أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين" [٦] فيها تأنيب شديد للذين أعرضوا عن القرآن ، وهجروه ، ولم يعبأوا به ، ولا بما

---

[١] – سورة الأنعام الآية (١٥٧) .

[٢] – سورة محمد الآية (٢٤) .

[٣] – سورة طه الآية (١٢٤،١٢٥) .

[٤] – سورة الحج الآية (١٨) .

[٥] – سورة ص الآية (٢٩) .

[٦] – سورة المومنون الآية (٦٨) .

جاء فيه فلم يدبروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالته حتى يهتدوا بهديها ، ويعملوا بما جاء فيها ، ثم ارتقى البيان من دعوتهم إلى التدبر إلى تلومهم على تركه ، وتوبيخهم عليه ، وتأنيبهم بأن قلوبهم مقفلة فهي لا تسمح بدخول هداية المعرفة إليها .

وإن تدبر آيات الله ذات المعاني المباركة هي المعين الذي لا ينضب ، فهو يحتاج إلى بصيرة منيرة ، وفهم ثاقب ، وهذا يأتي من معاهدته ، وتطبيق أحكامه .

والبحث في تدبر معاني كتاب الله فهو طريق طويل يحتاج إلى جهد ، وكد للوصول إلى الغاية المرجوة ، واستكشاف كنوزه العظيمة ، وعلومه الصالحة لكل زمان ومكان .[١]

وأول عتبة في التدبر التفكر في عظمة الله ورحمته بنا إذ سهل علينا كتابه ، قال تعالى : "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر"[٢] فينبغي لتالي القرآن أن ينظر كيف لطف الله بخلقه في تيسيره معاني كلامه إلى أفهامهم ، وليعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه .[٣]

ومعنى (يسرنا القرآن) أي : هوّنا قراءته ، ويسرنا فهمه ، فهل من متذكر بهذا القرآن ، الذي يسره الله ، لفظاً ومعنى ، وهل من منزجر به عن المعاصي ، ومتبع للأوامر ، فيحل له نعيم الله ورضوانه .[٤] فهذه أول نعم الله علينا أن جعل القرآن رحمة لنا إذ بين لنا طريق الخير والشر ، ونهانا عنه ، ووضح لنا الصراط المستقيم ، ومن رحمته أن جعل القرآن مفهوماً للبشر ، وسهله وقربه لنا ، وجعله بلغة العرب ، لتسهل معانيه ، ويتيسر فهمه ، ويستخلص العلم . ومن جعل القرآن رحمة لنا أن بين لنا فيه الحلال والحرام ، وأحكام الأمر والنهي ، والجزاء والحساب ، والعظة والعبرة ، والعقائد والتوحيد ، والأخبار الصادقة بالمفيد . فإذا طلبه العبد أعين عليه ،

---

[١] – قواعد التدبر الأمثل / عبد الرحمن بن حنبكة الميداني ، الصفحات من (٩ ــ ١٢) .

[٢] – سورة القمر الآية (١٥) .

[٣] – مختصر منهاج القاصدين لأبن قدامة المقدسي ، تعليق وتحقيق / علي حسن عبد الحميد ، ص٦٨ .

[٤] – مختصر تفسير ابن كثير / محمد نسيب الرفاعي (٤/٢٧٠) .

فهو بهذا أجلّ العلوم على الإطلاق ، فبه يحصل البعد عن المعاصي ، لأن المعاصي تحجب القلب عن نور الإيمان ، والعلم . وليست الرحمة في قراءته وتدبره بل في سماعه ، قال تعالى : "وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمِعُوا لهُ وأنصِتوا لعلكُم تُرحَمونَ" [١] والرحمة في السماع بعدم الغفلة ، والسهو عما يسمع .

ويكره الحديث بما لا فائدة فيه عند سماعه . [٢]

ويكون القرآن هدى تحصل به الهداية من الله ، واختص بالهداية قلوب المؤمنين المصدقين الموقنين . يهدي من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وهو وسيلة يبتغونه بها من رب العباد في سبل عيشهم ، ويوم القيامة يكون لهم شفيعاً في الميعاد ،فتبيض به وجوه الفائزين التالين الذاكرين المتدبرين .

قال تعالى : "وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لتبينَ لهم الذي اختلفُوا فيهِ وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنُونَ" [٣] فقد كان فاصلاً ، أرسل ليبين الذي اختلفت فيه الأمم السابقة ، الذين كذبوا الرسل ، ولنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ليكون أسوة حسنة ، ويوضح الذي كانوا فيه يتنازعون ، ويؤكد الله عز وجل أنه رحمة للمؤمنين الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا بجوارحهم ، وتمسكوا به .

كما جعله الله حياة للقلوب الميتة بكفرها فيحييها ، ويزيل صداها بإنارة الطريق أمامها بالبيان ، ضارباً مثلاً حياً ، موجهاً ومبصراً إلى ذلك بالآيات الكونية ، والقصص السالفة من الرسل والأنبياء ، فيخرجها من العمى والغي ، ويهديها إلى طريق الحق والرشاد بالعمل الصالح ، بالذكرى والتهديد والوعيد .

---

[١] – سورة الأعراف الآية (٢٠٤) .

[٢] – منظومة الآداب للسفاريني (٣٩٧/١) .

[٣] – سورة النحل الآية (٦٤) .

والرحمة والهدى بحسن العمل ، واتباع الشرع للعقول السليمة ، والفطرة الصحيحة .

هدى ورحمة للمؤمنين أي : زاجراً لهم عن الفواحش والشبه ، والشكوك ، وإزالة ما في القلوب من رجس ودنس ، فتحصل به الهداية والرحمة من الله . وهدى في الحياة ، فيه العيش الكريم ، والعلم النافع ، والتعبد المعتدل ، والسلوك القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والتأدب المتزن ، والقصاص العادل . فإن اتبعناه كنا خير أمة أخرجت للناس .

الباب الثالث :

مقاصد الشريعة في سورة النمل .

الفصل الأول : الإيمان بالغيبيات .

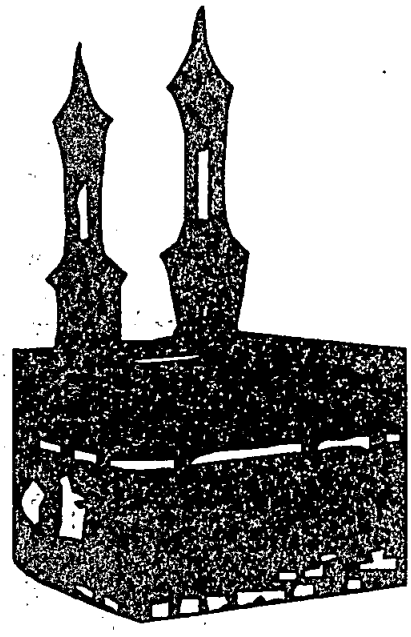

المبحث الأول: أ - خروج الدابة .

قال الله تعالى : " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (٨٢) ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون (٨٣) حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أما ذا كنتم تعملون (٨٤) ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون (٨٥) ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " [١]

خروج الدابة من علامات الساعة التي قال الله تعالى في علمها: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري بأي أرض تموت " [٢] فقد نسب الله علمها إلى ما استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أحد ، ولكن بين علاماتها وأشراطها فقال تعالى : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة " [٣] وقال تعالى : "هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها " [٤]

فعلم عن مجيئها بغتة بالنسبة للإنسان ، وهو يعلم وقت مجيئها ، وبين علاماتها حتى يكون الإنسان على استعداد وحيطة وحذر ، وقد جاء في يومها ما قاله صلى الله عليه وسلم :

---

[١] - سورة النمل الآيات من (٨٢ - ٨٦) .

[٢] - سورة لقمان الآية (٣٤) .

[٣] - سورة الأعراف الآية (١٨٧) .

[٤] - سورة محمد الآية (١٨) .

((ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)) [١]

فوضح يومها ، وبين أشراطها التي من بينها الدابة التي تخرج في آخر الزمان ، حين يفسد الناس ، وتكثر معصيتهم ومخالفتهم الدين الحق ، إنذاراً بقرب مجيء الساعة ، ونهاية الحياة الدنيا . فإذا وقع غضب الله عليهم ـ قول قتاده ـ أو أنهم لم يؤمنوا ـ قول مجاهد ـ وحق العذاب عليهم خرجت الدابة .

وقيل في خروجها : أنها تخرج من قلة . وقيل : من اليمن " فتخاطب الناس "على قراءة أبيَّ حيث قرأوا " تكلّمهم" و " تُكْلِمُهُم " بمعنى : تجرحهم ، على قراءة ابن عباس وآخرين . وتخبرهم وتنبئهم بأن لا دين إلا دين الإسلام ، وها قد جاءت الساعة وكنتم في ريب من قيامها ، أو تخبرهم إن من أسباب مجيئها إن الناس لم يؤمنوا بآيات الله ، ولم يصدقوا، فقد حدثت الآيات الكبرى التي منها خروج الدابة .[٢] وقال الأخفش : تخبرهم أن الكفار بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم - القرآن - لم يؤمنوا .

وجاء في علامات الساعة التي تصحب الدابة : ما جاء في خبر وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال : (وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كلٌ بسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء ، وتحرق الحكمة ، ويرفع العلم ، وتكلم الأرض التي تليها ، وفي ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون)[٣]

---

[١] - الحديث : ((إن افضل أيامكم يوم الجمعة فيه النفخة))"فتح الباري" نفس المرجع حديث أوس بن أوس الثقفي . أخرجه أحمد وأبو داود كتاب الجمعة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة برقم ٩٢٥ – ١٠٤٧ تحقيق الألباني (١/١٩٦) والنسائي .

[٢] - فتح القدير للشوكاني (٤/١٥١) .

[٣] -رواه ابن أبي حاتم عنه .

ولم تكن الدابة أول علامات الساعة ، بل تسبقها علامات ، كما روي عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ، ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : ((لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج و مأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، والدجال . وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونارٌ تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا)) .[١]

وفي وصف الدابة ما رواه ابن جريج ، عن ابن الزبير : أنه وصف الدابة فقال : (رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إبل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتفشوا تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشوا تلك النكتة حتى يسود بها وجهه ، حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ؟ بكم ذا يا كافر؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم ، فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة : يا فلان ابشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار) .[٢]

وفي الهيئة التي تخرج بها الدابة ، ما رواه ابن أبي حاتم قال : حدثنا عبدالله بن رجاء، حدثنا فضيل ابن مرزوق ، عن عطية قال : (قال عبد الله تخرج الدابة من صدع الصفا ، كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها) وقيل : أنها فصيل ناقة صالح ، يخرج عند اقتراب القيامة

---

[١] – رواه مسلم كتاب الفتن و أشراط الساعة برقم ٣٩ –٢٩٠١،شرح النووي ورواه أهل السنن ، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن حذيفة مرفوعاً

[٢] – صحيح مسلم .

الفصل الأول :

الإيمان بالغيبيات .

المبحث الأول: أ ـ خروج الدابة

ب ـ النفخ في الصور .

المبحث الثاني: أ ـ خلافة الله للإنسان في الأرض

(ب) الترغيب والترهيب

من وسائل الدعوة

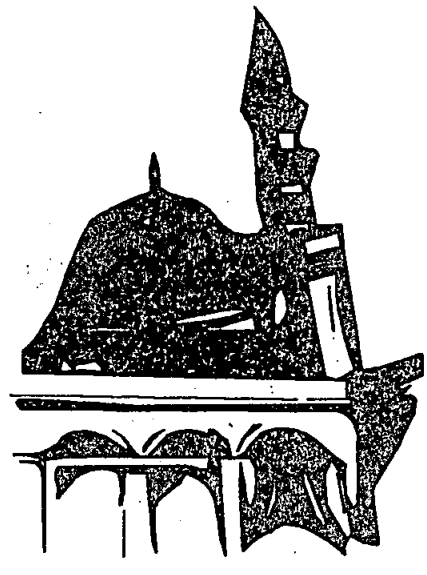

ويكون من أشراط الساعة .[١] وقيل : أنها دابة ذات شعر وقوائم طوال ، يقال لها الجساسة . وقيل : إنها على خلقة بني آدم ، وهي في السحاب وقوائمها في الأرض . وقيل : هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة ، التي أقتلعها العقاب ، حين أرادت قريش بناء الكعبة .[٢]

وفي حديث ذكره أبو داود في مسنده عن حذيفة : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : ((تخرج الدابة ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خرجةً أخرى دون ذلك ، فيفشو ذكرها في البادية ، ويدخل ذكرها البادية)) يعني مكة ، وقال صلى الله عليه وسلم : ((ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة ، خيرها وأكرمها على الله ، المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب ، فأرفض الناس شتى ومعاً ، وتثبت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدُّرِّيُ ، وولت في الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلي ، فتقبل عليه فتسمه في وجهه ، ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ، ويصطلحون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن المؤمن يقول : يا كافر اقض حقي)) . وهذا الحديث يؤيد أنها من فصيل ناقة صالح يقول صلى الله عليه وسلم : ((ترغو)) والرغاء معلوم للإبل ، وهناك قول : بأن الفصيل حين قتلت الناقة هرب إلى صخرة فانفتحت له ودخل فيها .[٣]

---

[١] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣/١٥٦) .

[٢] - فتح القدير للشوكاني (٤/١٥١_١٥٣) .

[٣] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٣/١٥٦) .

وكثير من الناس ممن يسكنون بالقرب من مدائن صالح يقولون : بأنهم يسمعون صوته يوم الجمعة المغرب ، وقد قمت باستبيان كثير منهم ، ولم أصل إلى حقيقة مؤكدة ولكن كثير منهم يدعي سماع صوت الفصيل .

وقد ذكرت الدابة كعلامة من علامات قيام الساعة للترهيب ، وخصصت الدابة من بين علامات الساعة بالذكر في السورة لهول مطلعها ، وإما لأنها تبين المؤمن من الكافر ، وتخاطب وتوحي بإيذان قرب ما يأتي بعدها من علامات ، أو ربما العلاقة بين عصا موسى وخاتم سليمان اللذان تبوأ قدراً من السورة ، وعلاقة استعمال الدابة لهاتين المعجزتين والله أعلم . أو لأنها من أوائل العلامات ، والنفخ من آخرها ،

وتستمر الآيات تعرض حال الناس يوم الحشر ، جماعات وزرافات من كل أمة من الأمم ، المكذبين بآياتنا ، وخصت الآيات هنا بوصف بعث الظالمين ، الكافرين ، الذين عتوا عن أمر الله ، ولم يستجيبوا لنداء الحق ، والصراط المستقيم ، والإسلام لدين محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بالله . فيحشرون وهم يدفعون ، ويساقون إلى الحساب ، تكبيتاً لهم وتوبيخاً لمعاندتهم ، فيسألهم الله عند الحساب تقريعاً : أكذبتم بآياتي التى جاءتكم بها رسلي ولم تكونوا عالمين بصحتها أو بطلانها ، وعماذا كانوا يعملون فيقولوا كما قال الله عنهم : " لَمْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)وَلَمْ نَكُنْ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ " [١] وقال تعالى عنهم : "هذا يومُ لا يَنطِقُونَ (٣٥)ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ " [٢]. وقال تعالى : " فَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ " فلا سبيل للكذب والمداهنة في ذلك اليوم بل "بُهِتَ الَّذِي كَفَرَ" ، " وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا

---

[١] - سورة المدثر الآيات من (٤٣ - ٤٧) .

[٢] - سورة المرسلات الآيتان (٣٥،٣٦) .

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ "[١] فكأنهم يقولون : " لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ "[٢] ويعلموا أنهم ظلموا أنفسهم ، بما قدمت أيديهم ، وما الله يريد ظلماً للعالمين .

ثم يذكّرهم الله بآيه أخرى من آياته ، وهي أجل عظمة فيقول :" أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " أي : قل لهم يا محمد ألم نجعل لهم الليل مظلماً ليستريحوا فيه ، وتسكن نفوسهم ، ويأخذوا قسطاً من الراحة ، ثم يجئ النهار مشرقاً ، ليكدوا ويطلبوا معايشهم ، وهذه نعمة من الله ، فماذا إذا كان ليلاً فقط ؟ أو نهاراً فقط ؟ قال تعالى : " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٤) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "[٣] ولكن قابلتم تلك النعم بالجحود والكفران ، فذوقوا ما كنتم تعملون . وتلك النعم يعلمها العالمون بالله فيؤمنون به ويجلونه ويعظمونه ويشكرونه[٤] .

---

[١] – سورة الزمر الآية (٤٨) .

[٢] – سورة الزمر الآية (٥٨) .

[٣] – سورة القصص الآيتان(٧١،٧٢)

[٤] – المراجع السابقة : تفسير القرطبي ، وتفسير ابن كثير .

ب – النفخ في الصور:

قال تعالى : "ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٨٧) وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون (٨٨) من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون" [١]

كذلك بين الله في آية من آيات يوم القيامة الفزعة الا وهي النفخ في الصور كما قال تعالى : "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" [٢] وقال : "ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون" [٣] وقال :"فإذا نقر في الناقور" [٤] وقال "يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة" [٥]

قال ابن عباس : الناقور الصور الراجفة النفخة الأولى .

والرادفة النفخة الثانية . "ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم" [٦] قال مجاهد الصور كهيئة البوق .[٧]

---

[١] – سورة النمل الآيات من (٨٧–٩٠) .

[٢] – سورة المؤمنون الآية (١٠١) .

[٣] – سورة الزمر الآية (٦٨) .

[٤] –المدثر الآية (٨) .

[٥] – سورة النازعات الآيتان (٦،٧) .

[٦] – سورة يس الآية (٤٩) .

[٧] – وصله الفريابي عن طريح أبي نجيح ، فتح الباري ، نفس الباب .

أشهر أن صاحب القرن الذي ينفخ فيه هو إسرافيل . [١] فيأمره الله تعالى أن ينفخ النفخة الاولى وهي أطولهم عند نهاية عمر الدنيا حين قيام الساعة فيفزع كل خلق الله " إلا ما شاء الله " قال مسلم : هم الشهداء ولأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ـ قول الحليمي ـ . [٢]

وفي حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء وهو الصحيح من حديث الحسين ابن عمر الكوفي عن شعبة عمارة بن حفصة عن سعيد بن جبير قال هم" الشهداء " قال أبو الحسن : هم طوائف من الملائكة وقال يحي بن سلام : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

"قيل أنها ثلاث نفخات نفخة الفزع " يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات والأرض " [٣] ونفخة الصعق ، قال تعالى : " ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله " [٤] ونفخة البعث " ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " [٥] قال القرطبي : والصحيح انهما نفختان فقط لثبوت الإستثناء " إلا من شاء الله " وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة لنفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما . [٦]

وقد ثبت في حديث مسلم انهما نفختان وهو حديث مرفوع : ((ثم نفخ في الصور فلا يسمعه أحد الا أصغى ليتاً ورفع ليتاً)) [٧] ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [٨] ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ

---

[١] – فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (٦٥١٧/١١، ٦٥١٨) باب النفخ في الصور ، كتاب الرقاق ، حديث وهب بن منبه من حديث أبي سعيد عند البيهقي .

[٢] – وضعفه غيره ، التذكرة للقرطبي (١٩٧/١) .

[٣] – سورة النمل الآية (٨٧) .

[٤] – سورة الزمر الآية (٦٨) .

[٥] – سورة الزمر نفس الآية .

[٦] – قول ابن العربي .

[٧] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م٧ (١٥٩/١٣) .

[٨] – أخرجه البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود موقوفاً ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٦٥١٧/١١) .

فيه ، والصور: قرن ، فلا يبقى لله خلق في السماوات ولا في الأرض إلا مات ، إلا من شاء ربك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون ، وبين النفختين أربعون .[١]

فيقول الله سبحانه وتعالى (أنا الجبار لمن الملك اليوم) حيث لم يبق إلاَ هو فلا يجيبه أحد فيقول : (لله الواحد القهار) وذلك بعد الحشر .

وفي قوله تعالى : " إلا من شاء " قيل : هم الملائكة أو الشهداء أو الأنبياء أو حملة العرش أو ملك الموت .... روى الأئمة عن أبي هريرة قال : قال يهودي في سوق المدينة : لا والذي أصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من الأنصار يده فصك بها وجهه ، قال : تقول هذا وفينا نبي الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ((" وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ " فأكون أول من رفع رأسه ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ، أم كان ممن استثنى الله . ومن قال : أنا خيرٌ من يونس بن متى : فقد كذب)) [٢] والصحيح أنهم الشهداء لأنهم : "أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ" قال القرطبي : وحاصل ما جاء فيها عشرة أقوال :

الأول : أنهم الموتى ، فلا إحساس لهم فلا يصعقون . وهو قول القرطبي في المفهم .

والثاني و الثالث : الأنبياء . وهو قول البيهقي .

والرابع والخامس : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل . وهو قول يحى بن سلام في تفسيره .

السادس : الملائكة المذكورين ، وحملة العرش ، في حديث أبي هريرة ، وسنده ضعيف .

السابع : موسى عليه السلام وحده ، أخرجه الطبري بسند ضعيف .

---

[١] – حديث أبي هريرة (إتفاق الروايات) المرجع السابق .

[٢] – التذكرة للقرطبي (١٩٦/١) ، والحديث أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، قال الترمذي : حسن صحيح ، وأخرجه البخاري في فتح الباري كتاب الرقاق باب نفخ الصور برقم ٦٥١٧ ومسلم بمعناه . فتح الباري المرجع السابق . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٠٠/٣) برقم ٢٥٨٧ – ٣٤٧٣ ، الباب (٤٠)سورة الزمر .

الثامن : الولدان ، والحور العين .

التاسع : إضافة إليهم خازن النار ، وخازن الجنة ، حكاه الثعلبي عن الضحاك بن مزاحم .

العاشر : الملائكة كلهم ، جزم به أبو محمد بن حزم في الملل والنحل .

وحاصل القول والله أعلم به كما أورده البخاري عن الأعرج : ((فما أدري أكان فيمن صعق)) [١]

ويقف الناس أمام رب العالمين للمحاسبة ، والمساءلة عما فعلوه من أعمال ، فمن عمل ذرة من خير ، أو مثقال ذرة من شر ، وجده ، قال تعالى : " إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير " [٢] ثم النفخة الأخيرة ، وهو ساعة النشور ، والمثول أمام رب العزة سبحانه ، وكل الخلائق متجهة نحو ربها صاغرة ، ذليلة ، منكسرة ، تطلب الرحمة قال تعالى : "يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون " [٣]

قال تعالى : " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون " [٤] أي : تراها وكأنها لم تزلزل ، ولم تتحرك من مكانها ، وهي التي قال الله فيها : " وتسير الجبال سيراً " فينسيفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ، وهذا صنع الله الذي أحكمها حين صنعها ، وجعلها أوتاداً تثبت الأرض . ثم تنشق السماء بقدرته ، وجده ، وله حكمة حين خلقها ، وحين أزالها ، وهو عالم بما فعلتم ، وما تفعلون ، منذ خلقكم ، واليوم يوم الحساب ، فالخير سعد وهناء ، والشر عذاب وشقاء .

---

[١] – فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلانيكتاب الرقاق باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٤٥١/١١) برقم ٦٥١٩-٦٥٢١ .

[٢] – سورة لقمان الآية (١٦) .

[٣] – سورة المعارج الآية (٤٣) .

[٤] – سورة النمل الآية (٨٨) .

قال تعالى : " مَن جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون " [١]

قال قتادة : المقصود بالحسنة ؛ الإخلاص . وقال زين العابدين : هي ؛ لا إله إلا الله . وقد بين القرآن أن الحسنة بعشر أمثالها ، ولكن ما هي الحسنة التي تضاعف ؟ والتي لا تضاعف ؟ فهذه علمها عند الله .

فيتضح من السياق إطلاق الجزء ، وإرادة الكل ، فأطلقت كلمة الحسنة ؛ كناية عن أعمال الخير التي تستوجب الحسنات ، التي جزاؤها الجنة ، ونعيمها ، وأعظم نعمة في ذلك اليوم أن أصحاب الجنة في أمن لا يفزعون من هول اليوم وما فيه من مشاهد عظيمة ، ومحاسبة دقيقة ، وأهوال فظيعة . [٢] وهم الذين قال تعالى فيهم : "لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون " [٣] والفزع الأول الذي يعتري كل أحد ، ولا يخلو عنده من الإحساس بالشدة ، وهول المطلع ، وفجأة الموقف ، ورعب ، ورهبة .

أما الفزع الثاني : فالخوف من العذاب ، والعقاب . على قراءة من قرأ بالتنوين (من فزعٍ) من النهيب ، والعظائم ، فالجميع فيه سواء . وأما على قراءة من قرأ بالجار (من فزعِ يومئذٍ) فهو مكر الله .

وقيل السيئة : الإشراك [٤] لأن الله يقول : "فكبت وجوههم في النار" فذلك حال المشركين ، يكبون في النار على وجوههم ، قال تعالى : "فكبكبوا فيها هم والغاوون " [٥] فمن لقي الله وسيئاته أكثر من حسناته فهذا هو جزاؤه ، وفيه التفات : "هل تجزون إلا ما كنتم

---

[١] – سورة النمل الآيتان (٨٩،٩٠) .

[٢] – تفسير ابن كثير (٣/٣٧٩) .

[٣] – سورة الأنبياء الآية (١٠٣) .

[٤] – قول ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وآخرون .

[٥] – سورة الشعراء الآية (٩٤) .

تَعْمَلُونَ" وإضمار القول : إي يقال لهم ، والقائل هو خزنة جهنم ، أي : إنما تجزون حصاد عملكم .

قال تعالى : "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"[١]

يقول الله تعالى آمراً رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، أن يقول : أن الله أمرني أن أخصه بالعبادة ، وحده لا شريك له ، وقيل البلدة هي (مكة) وإضافة الربوبية لها علة سبيل التشريف ، كما قال تعالى : "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ"[٢] والذي هو البيت الحرام ، شرعاً ، وقدراً ، كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها))[٣] ومكة هي أحب بلاد الله إلى الله ، وأكرمها عليه ، وأعظمها عنده ، فهي موطن نبيه ، ومهبط وحيه . نهى أن تنتهك فيها حرماته ، كما قال تعالى : "وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ"[٤]

" وله كل شيء " تحت ربوبيته ، خلقاً ، وملكاً ، وتصرفاً ، من باب عطف العام على الخاص ، وأمرت أيضاً أن أكون من الثابتين على التوحيد ، المخلصين ، الطائعين لأوامره ، المنفذين لأمره

---

[١] - سورة النمل الآيات من (٩١ - ٩٣) .

[٢] - سورة قريش الآية (٣) .

[٣] - حديث صحيح .

[٤] - سورة الحج الآية (٢٥) .

، المجتنبين لنواهيه .

" وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ " أي : أتلوه قراءة ، وحفظاً ، وتبليغاً للناس ، ومنذراً به . والتلاوة : الإخبار ، والتبليغ . "ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ"[١] "ونتلو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ"[٢]

"فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ" فإني على أسوة من الرسل قبلي ، أبلغ ما أمرتُ به ، وأنذر ، وأحذر ، وأؤدي الرسالة ، واجب عليَّ ، وحسابهم عند الله ، بما أجابوا واستجابوا ، فمن اتبع ما جئت به من توحيد الله ، ونفي الأنداد ، وعمل بما أنزل الله فأن النفع يكون راجع إليه ، ومن أبى وكفر ، وأعرض ، فإنما ينتظره عذاب الله في الدنيا ، والآخرة ، وما أنا إلا رسول مُبَيِّنَ ، كما قال تعالى : " فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ "[٣] وقال تعالى : "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ"[٤] وقال تعالى : " فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ "[٥]

فلله الحمد والمنة إنه لا يعذب أحداً إلا بعد أن يقيم عليه الحجة ، بالدعوة ، والإنذار ، وهذا قوله تعالى : "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ فَتَعْرِفُونَهَا" وقيل آيات الله التي يراها الإنسان قبل موته ، فيرى كل منكم انشقاق القمر ، والدابة ، والدخان ، والدابة ، والنار ، ويريكم ما عملتم ، وكنتم تعملون ، لأن الغفلة والنسيان ، والسهو لا يجوز في حق الله ، والله شهيد على كل شيء ، هو الذي قال : "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

---

[١] – سورة آل عمران الآية (٥٨) .

[٢] – سورة القصص الآية (٣) .

[٣] – سورة آل عمران الآية (٢٠) .

[٤] – سورة آل عمران الآية (٩٢) .

[٥] – سورة الأنعام الآية (١٠٤) .

الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ "[١] وقال تعالى : "وما رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" .

---

[١] - سورة فصلت الآية (٥٣) .

المبحث الثاني أ: خلافة الله للإنسان في الأرض .

قال تعالى : " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة "[١] أي : قوماً يخلف بعضهم بعضاً ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل . وكذلك الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ، ويرد عنهم المحارم والمآثم .[٢] والصحيح أنه خليفة الله في أرضه ، لإقامة أحكامه ، وتنفيذ قضاياه .[٣] وقال محمد بن إسحاق : أي ساكناً ، وعامراً يعمرها .[٤] وقال ابن القيم رحمه الله : مظهر هذا الخليفة من خيار خلقه ، وأنبيائه ، ورسله ، وصالحي عباده ، والصديقين ، والشهداء ، والعلماء ، وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة . ولما أراد الله إظهار تفضيل آدم عليه السلام ، وتمييز فضله ، ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز ، وجهل ما لم يعلموه فقالوا : " سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ... "[٥] فحينئذٍ أظهر لهم فضل آدم بما خصه الله به من العلم ، فقال : " يا آدم أنبئهم بأسمائهم "[٦] أقروا بالفضل ، لما آتاه الله من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم . إنه سبحانه لما جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد

---

[١] – سورة البقرة الآية (٣٠) .

[٢] – تفسير ابن كثير (١/٧٠) .

[٣] – معالم التنزيل للبغوي تحقيق / خالد العك ، مروان سوار (١/٦٠) .

[٤] – تفسير ابن كثير (١/٧١) .

[٥] – سورة البقرة الآية (٣٢) .

[٦] – السابق .

أن يظهر للملائكة فضله ، وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، ألا وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله ، وشرفه إنما هو العلم .[١]

ويتضح مما ورد أن كل الأقوال تجتمع فيما أفصح عنه ابن القيم رحمه الله ، عن علاقة الخلافة (الإنابة) بالفصل في المظالم ، وإمضاء الأحكام ، والأوامر ، وتنفيذ القضايا لا تكون إلا بالعلم ، وقد وضح فأوفى .

والشاهد من هذا قوله تعالى : " إني أعلم ما لا تعلمون " وذلك إن الإنسان رغم فساده ، وعدم طاعته ، فإنه طائعاً لي بالتسبيح والتقديس والصلاة .[٢] وهذا كله مرتبط بالعلم ، وما أرسل الله من رسول إلا أيده بالعلم المعين له في دعوته ، من الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، والمعرفة بأصول دعوته ، وقواعدها . قال تعالى : " قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ "[٣]

قال تعالى : "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" قال قتادة : فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليفة أنبياء ، ورسل ، وقوم صالحون ، وساكنوا الجنة .[٤] وقد استدل القرطبي بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن الفواحش .[٥] وكل هذه الأعمال لا تقوم إلا بالعلم فهناك رابط بين الخلافة والعلم ، أو أصل الخلافة هو العلم ، الذي ميزه الله به على الخلائق ، ولا يقصر جعله خليفة أن يكون في خدمة الإنسان في علم محصور ، إلا إنه يتدرج مع الزمان في

---

[١] – بدائع التفسير (محاولة لجمع ما قام ابن القيم بتفسيره من الآيات من كتب ابن القيم المختلفة) يسري محمد السيد (١/٦٠) .

[٢] – تفسير ابن كثير (١/٧٢) .

[٣] – سورة يوسف الآية (١٠٨) .

[٤] – تفسير ابن كثير (١/٧٣) .

[٥] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م١(١/ ٧٩، ٨٠) .

أن العلماء حصروه في وقتها فيما كان ضرورياً لتثبيت الشرع ، وقواعد الإسلام والإيمان ، أما وقد انتكس العالم ، وبدأت عودة الدين من جديد فمهمة الإنسان ، وبين يديه معجزة الإسلام الخالدة القرآن ، ليبحث في علومه المعاصرة الدالة على وجود الله تعالى ، وأنه أحق بالألوهية ، والربوبية ، ويخرج الناس من عبادة المخترعات لما يخرجهم من التيه الذهني ، والفراغ الإيماني ، بأن يظهر للناس ويخرج للوجود العلوم التي تدهش الفرد ، وتجبر العقل فيرتد تسبيحاً ، وتعظيماً لله سبحانه وتعالى .

والخليفة تعني النائب ، وليس معنى هذا أن الإنسان سيصير نائباً لله في ملكه ، ولكن الله خلق الإنسان ، ومهد له سبل عيشه ، وسخر له ما في الأرض جميعاً من بحار ، وأنهار ، ورياح ، وأمطار ، وجبال ، ووديان ، وحيوان ، ونبات إلى سائر مخلوقاته . وحمله الأمانة التي هي الغاية العظيمة ، والمهمة الشاقة ، والأمانة الثقيلة التي حملها الإنسان ، وانفرد بها من دون سائر المخلوقات ، والكائنات وهي خلافة الله في أرضه ولكنها مشروطة حتى يكون الإنسان قد قام بالتكليف ، وقبل الأوامر والنواهي ، التي إن قام بها أثيب ، وإن تركها عوقب . وشروطها : الالتزام بطاعة الرب الملك صاحب الأمر والنهي ،من تحقيق أوامره طمعاً في ثوابه ، واجتناب نواهيه خوفاً من عقابه ، وذلك يؤدي إلى التوقير ، والمحبة ، والتعظيم لخالقه تبارك وتعالى .

فقضية الخلافة تعني العبادة لله ، واكتمال الإيمان ، والبحث عن العلم الذي لا ينتهي ، فيكون ذلك معنى قوله تعالى : " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "[1] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فيعبد في كل زمان ، بما أمر به ذلك الزمان .[2]

---

[1] - سورة الذاريات الآية (٥٦) .

[2] - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٦٧٥) .

فالعلم عبادة وأشرف عبادة ، وليس في العقول أبين وأجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم ، وتنزيهه من العيوب والنقائص · وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها ، وفي الفطرة إقرار بسعادة النفوس ، وشقاوتها ، وجزاؤها بكسبها في غير هذه الدار ··· ولهذا كان العقل الصريح موافقًا للنقل الصحيح ، والشرعة موافقة للفطرة يتصادقان ولا يتعارضان ·

ومهمة الإنسان إلى غاية محددة ، ووظيفة معينة ، ومهمة مقدرة ، فلابد للإنسان أن يكون أهلاً لهذه الخلافة ، وتلك الغاية ، فيكشفوا عن القوانين الطبيعية ، ونواميس الحياة ، ووسائل سعادتها · وغالباً ما تسهل عملية الكشف ، والبحث عند من يحفظون كتاب الله ، ويتبعون آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسنته ، فقد بان علمهم فينا ، وهو بين أيدينا ، ممن عاصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، وتابعيهم فنبغوا في كل مجال ، وأعدوا وألّفوا المؤلفات العظيمة · وعندما تجددت الأجيال ، وضعفت ، وغلبت الشهوات ، وقست القلوب ، وقل الاقتداء ، وغابت السنن ، وظهرت البدع ، واختلط الحق بالباطل ، وظهرت الفلسفات الدينية ، وتفرق الناس ، واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وتقطع أمرهم بينهم ، وابتعدوا عن كتاب ربهم ، وسنة نبيهم فضلوا عن صراط الله المستقيم ، فضلت الأجيال ، وأصبحت قلوب المسلمين غلف ، وآذانهم صماً ، وظهرت الفرق ، والأحزاب ، والملل ، والنحل ، فغاب المنهج العلمي ، والاستقراء الدقيق للواقع العالمي في كافة المجالات ، وذلك لضعف العلم الشرعي ، وغياب الربط بين الفكر والسلوك في القضايا ، واختلفت العقليات ، فأصبحنا فريسة تنهال علينا العلمانية نظرياً ، وعملياً في اكتشافاتهم الخطيرة منها ، والمفيد فنتقبل من غير تقدير لما وراء هذا الاكتشاف ، وتلك القوانين ، من بعيد وقريب · فأصبحنا أمة ضعيفة مستضعفة ، فتشبهنا بهم في أقوالهم ، وأفعالهم ، ولباسهم ، وعاداتهم ، وأعيادهم ، مصداقاً لما قاله صلى الله عليه وسلم :

((حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) [١]، ولكننا نحاذلنا عن مجاراتهم في اختراعاتهم من طائرات ، والدبابات ، والغواصات ، وكل ما يساعد على تقوية المسلمين ، كما قال تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... " [٢]

والله سبحانه وتعالى يريد لعلمه في الكون أن يظهر ويبهر الألباب ، ويحير العقول ، فيكون داعياً إلى معرفته ، وتعظيمه ، وإجلاله أبداً ، وقد علمنا أن كثيراً من الملاحدة والكفار قد دخلوا في الإسلام بسبب اكتشافاتهم ، مقارنين ذلك بآيات القرآن ، فخير عند الله أن يسلم كافر يدل بعلمه على قدرة الله ، من مسلم متواكل ، مقصر في حقوق نفسه ، وغيره ، والبشرية جمعاء .

وكثيراً ما يصف الله نفسه بالعلم ، خاصة في الآيات التي تتطلب استخراج العلوم لقوله تعالى : " فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم " [٣] وهذا علم يبرز إحاطة الله بما فيها من العوالم العظيمة ، ووضعها لعباده ليبينوا حكم صنعها بدراسة الأفلاك ، والكواكب ، وغيره ، مما يدل على وجود ومعرفة الله كدليل عقلي مرتبط بالعلم . وقال تعالى : " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم " [٤] أي واسع الملك ، جميع العالم العلوي ، والسفلي ، واختلاف أشكاله ، وأوانه ، وطباعه ، ومنافعه . ملكه وأتاح للإنسان أن يبرهن على الأمور الماضية ، والمستقبلة ، علم بها الله وأخبر عنها ، حيث يتوجه عبده بالدعاء حين استقبال القبلة ، وإن أخطأها فهذا يدل على ارتباط العباد بربهم ، وفيه تقوية لأواصر الإيمان والمحبة بين العبد وربه ، وهكذا . وهناك أمور ظاهرة وأخرى خفية في القرآن يجب البحث ، والكشف عنها ، وأمر عباده بالتفكر ، والتدبر لهذا الكتاب العظيم .

---

[١] - سورة الأنفال الآية (٦٠) .

[٢] - سورة الأنفال الآية (٦٠) .

[٣] - سورة البقرة الآية (٢٩) .

[٤] - سورة البقرة الآية (١٥) .

المبحث الثاني :ب- الترغيب والترهيب من وسائل الدعوة ٠

إذا استعرضنا تفاصيل عرض السورة ، نجد أن الله تعالى يعلّمنا كيف تكون الدعوة إليه وفي سبيله ، متبعين المنهج الرباني الحكيم من رب العالمين ، الذي خلق فسوى النفس البشرية ، وهو عالم بخفايا الصدور ، وضيقها عندما تدعى إلى الصراط المستقيم ـ إلا من رحم الله ـ

تدرجت لنا الدعوة في هذه السورة من بدايتها ، فعرضت السورة في مقدمتها باختصار شديد حال المؤمنين ، وهم يستقبلون الدعوة ، ويعملون بها ، وينفذون لأوامر الله فمصيرهم في الآخرة الجزاء الأوفى من الله عز وجل ٠ كما عرضت صورة الكافرين ، المشركين ، المعرضين عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الله ، وعدم تصديقهم له ، وكفرهم به ، وخسرانهم في الآخرة نتيجة لهذا الإعراض ، وتكبيلهم بالعذاب الأليم ٠ وكان هذا بمثابة المقدمة التي تعرض ، وتوجز ، وتبين النتيجة والغرض من الدعوة ٠

ثم فصلت لنا السورة بضرب الأمثال ، والتسلية التي تضم في جوانبها الترغيب ـ لأهل الإيمان ـ في حياة الرسل ، وهم مطيعون لله سبحانه وتعالى فيما أرسلوا به ، مؤمنون إيماناً تاماً بما جاءوا به ، مجيبين لله تعالى ، تعظيماً ، وإجلالاً ، مسلّمين لما ابتلاهم به من المنكرين في أقوامهم ، ومطبقين لما أمرهم به ، فأدوا الأمانة ، وبلغوا الرسالة ، ونصحوا للأمة ، وجاهدوا في سبيل الدعوة إلى الله حق الجهاد ، وتحملوا الأذى ، والبطش ، والعنت ، فرفعهم الله أعلى ، وأسمى مكانة ، حيث استجاب لطلباتهم ، ولبى دعواتهم ، وأيدهم بالمعجزات الباهرات ، وانتصر لهم ، وانتقم من منكريهم ٠

تجلى هذا فيما ذكر من القصص (قصة موسى مع فرعون ، وسليمان مع ملكة سبأ وقومها ، وصالح مع قوم ثمود ، ولوط مع القوم الذين يعملون الخبائث) على كل رسولٍ منهم الصلاة والسلام ـ والتهديد للمنكرين ، وتحبيب الإيمان للمستجيبين ، فمن أراد التنكيل ، والعذاب فليعرض عن الحق ، ومن أراد الإيمان فإن الله يكافئه بالخيرات في الدنيا والآخرة .

ثم عرضت السورة التذكرة التي يحتاجها كل مدعو ، من فضل الله على العباد ، فعرضت الآيات الكبرى في أجمل ما يمكن أن يعرض متحلية بزينتها من سماء ونجوم ، وكواكب . والأرض ، وعظمتها ، وهي تدور متماسكة ، وعليها الخلق ، من أناس ، وحيوانات ، وجبال ، وبحار . ثم بعد ذلك حاجة الإنسان لخالقه مهما تيسرت له السبل ، وطاب له العيش . ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بخلق الإنسان من العدم ، وعدم مقدرة غيره لذلك ؛ لتلين القلوب القاسية ، وترعوي النفوس الشاردة ، وتنكسر وتذل المتكبرة ، وتفكر وتقدر العقول العمية . فتضع الدعوة كل الوسائل المساعدة لرجوع النفس البشرية إلى فطرتها ، وهي : الإقرار بوجود الله ، وتوحيده ألوهيته ، وربوبيته . ثم مواساة الداعية بعدم اليأس من الدعوة ، وإن طالت به السبل بلا استجابة ، وإن البلاغ لا يستوجب على الداعية الإجابة إلا أن يهدي به الله رجلاً هو خير عند الله ، وإن الله مقدر لمعاناة عبده الخارج في سبيله ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .

وأخيراً لا مناص من التهديد ، والوعيد ، والترهيب الذي عقب الترغيب ، ووضع كل وسائل التمهيد ، والمساعِدة للمدعو ، وبسط الصورة الغائبة عنه بالأمثال المضروبة ، من الجانب المشرق في حياة الرسل ، والأنبياء ، والجانب المهلك في أقوامهم الذين لم يؤمنوا ، ووضع نهاية المطاف في أفظع ما يمكن من صور علامات الساعة التي أختير منها الدابة وهي بداية أشراط

الساعة ، في الحياة الدنيا ، والنفخ في الصور ، وأهل أول علامات الساعة في الآخرة ، والوقوف بين يدي الله للمحاسبة ٠

عرضت السورة ملامح من أهوال ذلك اليوم ، كسير الجبال ، والفزع الذي يعتري الخلق في أرض المحشر ، والحال الذي يصير إليه الناس ، فمن آمن ، وعمل صالحاً ، أمّنَهُ الله ، وأدخله جناته جزاء بما كانوا يعملون ٠ ومن اقترف السيئات ، وأشرك به ، وباليوم الآخر ، فمصيرهم جهنم خالدين فيها ٠ ولا بد أن نعرض ما بين خروج الدابة والنفخ في الصور ، حتى نعرف ما سيقع فيها من أهوال مرعبة ، مفزعة ، ومهيبة ، وهي خاتمة مطاف الدعوة ٠

جاء في حديث أبي زرعة عن عمر ، قال : جلس إلى مروان ثلاث نفر بالمدينة ، فسمعوه يحدث عن الآيات أن أولها خروج الدجال ، فقام النفر من عند مروان ، فجلسوا إلى عبد الله بن عمر فحدثوه بما قال مروان ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها ، أو الدابة ، أحدهما قريبة على أثر الأخرى)) [١] وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رفعه : ((ثلاث إذا خرجت لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، الدجال ، ودابة الأرض)) [٢] وربما كان هذا سبباً لذكر الله للدابة ، لآية من الآيات العظام في أول الحشر ، أو أنها تأتي متتابعة في وقت واحد ٠ وعند طلوع الشمس من مغربها تخرج الدابة في ذلك اليوم ؛ والعلة من ذكر الدابة أنه عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ، فتخرج الدابة ، لتمييز المؤمن من الكافر ، فلا ينفع الإيمان حتى المؤمن الذي لم يكن يعمل الصالحات من قبل ، فلا ينفعه عمله بعد هاتان العلامتان ٠ وهذا الذي قاله الله تعالى : " يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربك لا ينفعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو

---

[١] - صحيح البخاري من فتح الباري (٤٢٩/١١) باب الرقاق ٠

[٢] - صحيح مسلم ٠ باب الفتن وعلامات الساعة ٠

كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ "[١] وقد أشير إليها في السورة بقوله تعالى : " وقلِ الحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا "[٢] وعن الحسن ، عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ((إن الدجال خارج ، وهو أعور العين اليمنى ، وإنه يبري الأكمه ، والأبرص ، ويحي الموتى ، فيقول للناس : أنا ربكم ، فمن قال : أنت ربي فقد فتن ، ومن قال : ربي الله ، حتى يموت على ذلك ، فقد عصم من فتنته ، فليلبث في الأرض ما شاء الله أن يلبث ، ثم يجيء عيسى ابن مريم عليه السلام ، من قبل المغرب ، مصدقاً بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقتل الدجال ، ثم قال : ((إنما هي قيام الساعة))))[٣]

وفي رواية لمسلم قال : ((فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سائمتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبقه ضروعاً ، وأمده خواصر ، ثم يأتي القوم ، فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين))[٤] وهذه هي فتنة الدجال . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، من قوله صلى الله عليه وسلم : ((... وأنا أولاهم بعيسى ابن مريم ... وإنه خليفتي في أمتي ، وإنه نازل ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، وتضع الحرب أوزارها ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً ، وظلماً ، حتى يرعى الأسد مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئب مع الغنم ، وحتى يلعب الصبيان بالحيات ، فينزل عيسى كالجمانة من السماء فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الشحم فيقتل الدجال ويتفرق عنه اليهود فيقتلون حتى أن الحجر ليقول يا عبد الله المسلم هذا اليهودي تواري تعال فاقتله . وأن يأجوج ومأجوج يحفرون الردم كل يوم حتى إذا كادوا أن يروا شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً فيعيده الله كما كان حتى

---

[١] - سورة الأنعام الآية (١٥٨) .

[٢] - سورة النمل الآية (٩٣) .

[٣] - رواه البخاري باب الفتن ومسلم باب الفتن وعلامات الساعة .

[٤] - صحيح مسلم .

إذا بلغت مدتهم حفروا حتى كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته التي تركوها بالأمس فيخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس في حصونهم فيبعث الله عليهم نغفاً في أعناقهم فيهلكهم الله بها))[١].

وهناك أحاديث تبين اصطحاب الدخان[٢] لهذه العلامات والقذف والمسخ[٣] أخرج مسلم عن رواية حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر، فقال ما تذاكرون قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلثه خسوف يخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم))[٤].

((وبعد نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله المسيح الدجال فيراه أميرهم فيقول تعال صلّ لنا فيقول: لا إن لبعضكم على بعض أمراء تكرمة الله على هذه الأمة))[٥].

ثم يبعث الله ريحاً من اليمن فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، فلا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.

ثم يأمر الله بانقراض الكون وانتهاء الحياة الأولى فيأمر إسرافيل بالنفخ في الصور نفخة واحدة متصلة بائذان الفناء فيصاب الكون بخلخلة عنيفة فتخل بها كل الروابط التي تربط أجزاء الكون فترج الأرض رجاً عنيفاً وتزلزل زلزالاً مروعاً وتندك جبالها فتصير هباء منثوراً والإنسان الذي

---

[١] – أخرجه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٤٩).

[٢] – رواه أحمد بن ماجه من حديث قتادة وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة ثم قال " غريب ".

[٣] – حديث أبي هريرة " بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن ظهر الست " رواه الترمذي عن عائشة ...

[٤] – صحيح مسلم (٨/ ١٧٩).

[٥] – من حديث رواه البخاري (٤/٢٠٤، ٢٠٥٥).

يزعم أنه سيد هذا الكون ويتطاول على خالقه ويتعالى عليه جلَّ وعلا فإنه في هذه اللحظة وما يشاهده بعينه ويسمعه بأذنه فإنه يفقد رشده وتخف أحلامه ويفقد صوابه فيصبح هائجاً مائجاً كالسكران من شدة الفزع والهول وما هو بسكران كم تضع الحوامل ما في بطنها من شدة الفزع [١] كما قال تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " [٢] .

وما بين النفختين أربعون سنة ثم ينزل ماء من السماء فينبتون من عجب الذنب كما ينبت البقل فيحشروا يوم القيامة حفاة عراة . ويحشر الكافرون على وجوههم عمياً وصماً ومأواهم جهنم كلما خفت زادهم الله سعيراً جزاء على كفرهم واستبعادهم للبعث وقولهم : " أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " [٣] ثم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم فتشتد الحرارة ويعرق الناس حتى يصير العرق سبعين ذراعاً - مقدار ميل - فيكون على قدر أعمال الناس فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حلقه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما . [٤] . وهم في هذا العناء من شدة الهول وصعوبة الموقف يريدون ويرغبون أن يحكم الله فيهم وكلاً بما هو أهل له فمنهم من تلقته الملائكة وهو في أمن من هذا الفزع ومنهم من دون ذلك فيتمنون أن يحاسبوا فيرحمهم الله من شدة الموقف : " ذلك اليوم الفصل وما أدراك

---

[١] - عقيدة المؤمن / أبي بكر الجزائري ، ص ٢٦١ .

[٢] - سورة الحج الآية (١،٢) .

[٣] - سورة النمل الآية (٦٧ ، ٦٨) .

[٤] - رواه مسلم (٨ / ١٥٨) .

ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين "[١] .

قال تعالى : "إن يوم الفصل كان ميقاتا "[٢] يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ولكن هيبات لا أحد يستطيع أن يتكلم قال تعالى "وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا "[٣] فيقول بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بلغكم ألا ترون ما أنتم فيه والأنبياء كل يقول نفسي نفسي والملائكة تقول ربي سلم سلم إلاَّ محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : ((أنا لها)) أي : الشفاعة فيأتي عرش الرحمن ويخر ساجداً ثم يرفع فيطلب الله فيجيبه فيقول يا محمد ادخل من أمتك الجنة من لا حساب لهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة فتعطى بعد ذلك الكتب : " فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً "[٤] ومن أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية "[٥] . ووضع الميزان بالقسط "فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية" . فهو العرض الأكبر لمحاسبة كل فرد على ما أقترف من ذنوب أو زرع من حسنات فحصاده اليوم "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً "[٦] . ففي ساحة فصل القضاء يقرأ كل واحد من أهل الموقف كتابه فمن أعطي كتابه بيمينه ومن أمامه فقد فاز ومن أعطي كتابه بشماله أو من وراء ظهره فتلتف بهم ظلمة حالكة لا يستطيع البصر نفاذها يحار فيها الكافر ويتردد فيها المرتابون والمؤمن نوره يسعى بين يديه فينير له تلك الظلمات وتلك الشدة فيطلعه الله على عذاب الشقي .[٧] قال تعالى : "وإذا

---

[١] - سورة المرسلات اللآيات (١٢ ، ١٣ ، ١٤) .

[٢] - سورة النبأ الآيتان (١٧، ١٨) .

[٣] - سورة طه الآية (١٠٨) .

[٤] - سورة الانشقاق الآيات (٧ـ٩) .

[٥] - سورة الحاقة الآيات من (٢٥-٢٧) .

[٦] - سورة الإسراء الآية (١٣) .

[٧] - التذكرة للقرطبي ج١ ص٢٣٣ .

صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "[١] ويحشر الكافرون على وجوههم صماً وعمياً وبكماً ، قال تعالى : " وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ "[٢] وقال تعالى : " وَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "[٣] وقال تعالى : " فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ "[٤] فتلك الشياطين بعد تمردها ، وعتوها ، تقبل خاشعة ذليلة على الله سبحانه وتعالى ، والكل من الإنس والجن حفاة عراة ، والوحوش من خلفهم كذلك ذليلة ، من غير بلية جنتها ، ولكن من هول المطلع ، والعرض ، والنشور ، فإذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها ، وجنها ، وشياطينها ، ووحوشها ، وسباعها ، وأنعامها ، وهوامها ، واستوى الجميع ، وتناثرت نجوم السماء ، وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض ، وانشقت السماء ، ودوّى صوت انشقاقها ، والملائكة قيام على أرجائها ، فصارت كالدخان ، وتكون الجبال كالعهن ، حتى إذا بلغ من الكل منتهاه ، وأصوات الخلائق ينادون النجاة من الكرب العظيم ، إذ سطع نور العرش ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، فينادي الله جبريل : (ائتني بالنار فيقول جبريل : يا جهنم أجيبي) فتوهم اضطرابها وارتعادها ، وزفرت ، وجذبت خزائنها ، غضباً لغضب ربها ، وطار فؤاد كل فرد فزعاً ، ورعباً ، وفر الخلائق هرباً من زفيرها ، وفي الزفرة الثانية يزداد الرعب ، والخوف ، وفي الزفرة الثالثة : تتساقط الخلائق على وجوههم ، ينظرون من طرف خفي ، وفي هذه اللحظة يتبرأ الوالد من ولده ، والولد من والده ، والأخ والصاحب والعشير الكل نفسي نفسي بينما الناس على ذلك ، إذ ترتفع عنق النار ، وتنطق بلسان فصيح ، بمن وكلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب وهم من جعل مع الله إلهاً آخر ، وكل جبار عنيد ،

---

[١] - سورة الأعراف الآية (٤٧) .

[٢] - سورة الشورى الآية (٤٥) .

[٣] - سورة الانعام الآية (٢٧) .

[٤] - سورة الصافات الآية (٢٧) .

فتلتقطهم لقط الطير للحب ، ثم تبتلعهم في جهنم ، ثم ينادي منادٍ : فيعلم الجمع من أولى الكرم ، ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيسرحون إلى الجنة ، ثم أهل قيام الليل ، ثم من لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله ، ثم بعد ذلك تنصب الموازين)[١] .

---

[١] – مقتطفات من كتاب أشراط الساعة لمصطفى أبو النصر الشلبي ، الطبعة الثانية ١٤١٤ ١٩٩٤

من قصيدة ذكر أحوال وأهوال القيامة

إذا قربت الساعة يالها ... وزلزلت الأرض زلزالها

تسير الجبال على مسرعة ... كمر السحاب ترى حسالها

وتنغطى الأرض من نفخة ... هناك تخرج أثقالها

ولا بد من سائل قائل ... من الناس يومئذ مالها

وترى النفس ما عملت محضراً ... ولو ذرة كان مثقالها

يحاسبها مالك قادر ... فإما عليها وإما لها

نسيت المعاد فياويلتي ... وأعطيت النفس آمالها[1]

---

[1] — من قصيدة لمجهول .

الخـــاتمة

وتشمل خلاصة البحث والنتائج .

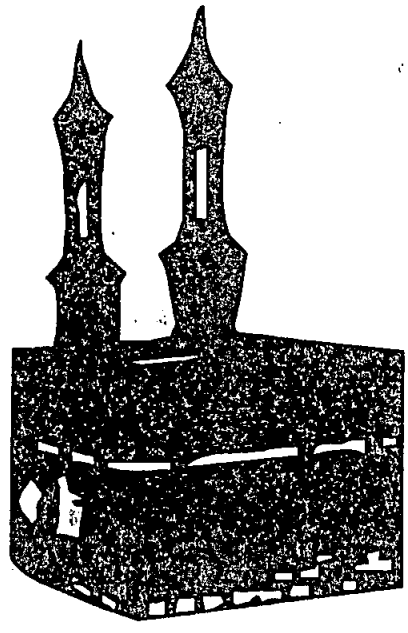

لاشك أن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بالإسلام ، والإيمان ، وسخر لنا الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر لنا الأرض والسماء ، وما بين الأرض والسماء .

والامتنان الإلهي معناه : دعوة صريحة للمسلمين بأن يستجيبوا للتوجيه الإلهي ، فيسخروا كل ذلك للعلم ، والمعرفة ، ويمتلكوا الكون ، لنفع البشرية والإنسانية .كما إن علم المسلمين لم يقتصر على علم المادة فقط ؛ لأن النظرة الإسلامية إلى العلم أوسع وأعمق من النظرة الغربية الحديثة ، والتي تقصر العلم على الجانب المادي فقط ، الذي لا يرتبط بالجانب الروحي ، وهنا مفترق طرق ، حيث يقوم الدين بتربية النفس ، وتهذيبها ، فتسمو الروح وتعلو ، فيصبح الجسد منقاداً لها ، مقيد الجوارح لقوانين ربانية ، في إتباعها راحة الفكر والنفس ، وهدوء العيش وطيبة . فلا قلق في النفس ، ولا اضطراب في الفكر ، وعلى ضوء هذا تأخذ علمها من تربية قرآنية إعجازية ، تمكّن العلم بدرجة الإيمان ، وتمكينه في القلب ، وصرف العقل عن كل ما يبعد عن الخالق عز وجل .

وعلى العكس من النظرية الغربية التي لا تحدها ضوابط ، ولا تقيدها أحكام ، ولا يؤمن بالغيبيات . فلا بد لمن سلك العلوم أن يكون مسلكه واقعياً، يختلف عن منهجهم ، الذي أساسه الجدلية ، والظنية ، التي تختلف فيها العقول ، وتتفارق فيها الأفهام ، وأن نرتكز في علمنا إلى دعامتين قويتين :

أولاً : أن يكون مدار كتبنا يرتكز على الكتاب والسنة .

ثانياً : أن نستفيد من تجارب غيرنا من السابقين ، واستعمال العقل والتجارب في طلب الحقيقة ، لنهتدي إلى ما لم يهتد إليه غيرنا .

فالعلم عندنا هو : نقل صورة المعلوم من الخارج ، وإثباتها في النفس [١] .

والإيمان : يكمن في العمل المنبثق عنهما يكنه القلب ، والعمل وهو : نقل صورة علمية عن النفس وإثباتها في الخارج ، فإن كان الثابت مطابقاً للحقيقة في نفسها فهو علم صحيح .

وكثيراً ما يتراءى في النفس صور ليس لها وجود حقيقي ، فيظنها الذي قد أثبتها في نفسه علماً وإنما هي مقدرة ، لا حقيقة لها وأكثر علوم الناس من هذا الباب .

وأعلى الهمم في طلب العلم ، على الكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد .

وأخس همم طلاب العلم ، قصر همتهم على تتبع شواذ المسائل ، وما لم ينزَّل ولا هو واقع ، أو كانت همته معرفة الاختلاف ، وتتبع أقوال الناس ، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال [١] .أو حرق العلم في المعطيات ، وليس البحث والاكتشاف عن المعجزات في كتابه الله العزيز من علومه النافعات . وأعلى الهمة أن تكون في باب الإرادة متعلقة بمحبة الله ، والوقوف على مراده مما يحتمله العلم ، وتفصح عنه الآيات .وأسفلها أن يكون المراد منها دحض آية في القرآن ، أو تعطيلها ، أو إبطالها ، كما يفعل علماء السوء .

وقلما كان العلم مطابقاً للحقيقة ، بحيث تمكن الإيمان بالله ، والعظمة لجلاله في النفس ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لا ينفع [٢] .

فهذا حال العلوم اليوم فآفتها عدم مطابقتها لمراد الله ، وهو من فساد العلم تارة ، ومن فساد الإرادة تارة أخرى .وفساد العلم من إرادة الشهرة به ، ولا يقصد به إرضاء الله ، وفساد القصد أنه يقصد به الدنيا ، والخلق .

---

[١] – الفوائد/ ابن القيم الجوزية ص (١١١ – ١١٢).

[١] – الفوائد/ابن القيم الجوزية ، السابق .

[٢] – رواه أحمد في المستدرك (٢ / ١٠٦٢) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان يقول : ((اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، وعلم لا ينفع ، ومن نفس لا تشبع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربعة)) حديث صحيح . صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٧٨/١) برقم ١٢٩٧ .

والإيمان ، واليقين ، يورثان صحة المعرفة ، والإرادة ، فيورثان الإيمان ، ومن لم يورث هاتان ، فهو على انحراف عن صحة المعنى ، وصحة الإرادة ، فكيف إذا أتانا علم من عقيدة منحرفة أصلاً ؟

وأحياناً يكون مطابقاً لإرادة الله ، ولكن تمَّ ذلك ببحث من لم يؤمن بالله ، فما يكون منا إلا تأييد ذلك فقط ، وهذا قمة التقاعس .

ومن هذا فقد عرَّفتْ المدارس الفكرية القديمة الإنسان بأنه : حيوان ناطق ، وعرفه رجال الفكر الحديث ، بأنه : إنسان مفكر. وقد سبق القرآن إلى ذلك ، بقوله :"هل يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" [١] . فقيمة الإنسان الحقيقية إنما تكون وتتحقق ببلوغه العلم ، وتقدمه في مضمار الثقافة .

فالعلم في الإسلام دعامة من دعائمه ، وركن من أركانه ، وقد مدح الله العلم والعلماء في قوله : "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [٢] وقال تعالى : "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" [٣]

وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحض أصحابه رضوان الله عليهم ، على تعلم اللغات الأجنبية – مثلاً – ليضموا إلى معارفهم ثقافة غيرهم من الأمم ، بل أنه حدد واحداً لمحو الأمية ، ومحاربة من يقصرون في طلب العلم ، والقضاء على الجهالة ، والجهل ، ولا عجب في ذلك ؛ لأن أول ما نزل من القرآن كان دعوة إلى العلم ، والثقافة ، والفكر ، وإلى البحث في آفاق السماء ، وفي بطون الأرض ، وعلى قمم الجبال ، وفي أعماق البحار ، وفي كل خلق الله .

---

[١] – سورة الزمر الآية (٩) .

[٢] – سورة فاطر الآية (٢٨) .

[٣] – سورة المجادلة الآية (١١) .

اتسم الاسلام بالطابع العلمي،كما كان القرآن معجزة العلم الخالدة ، قال تعالى : " وقُل رَبي زِدْنِي عِلْماً " ولابد أن يكون شعار المسلم هذه الآية، ومن استوي يوماه فهو مغبون ، وإذا لم يكن إلى زيادة، فهو حتما إلى نقصان .

إن مداد العلماء المتقين ليوزن في ميزان الخير والحسنات ، بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء .

والعلم حق متاح للإنسانية جمعاء ، وما بعث الله الرسل إلا معلمين ، ومرشدين ، سواء كان ذلك بالكتب السماوية ، أو بالقدوة الحسنة ، ولا يكون ذلك إلا بالبعد عن ضياع الوقت بالمنافسات الجدلية ، فإنها تضلل العقول ، وتقصر التقدم ، وتبدد الجهود ، وتثير الخلافات في غير طائل .

فلابد من الإقبال علي العلم النافع المفيد ، وترك ما لاطائل وراءه من الأبحاث العقيمة ، والتي تثبت نظرية باطلة ،بل التقصي والبحث والاكتشاف ، وان نسلم بتميزه ودقته فيمن نتلقي عنه المعارف والعلوم ممن هو أهل لذلك ، وأن نبتعد عما يسمونه "المنهج الحديث" الذي يتعارض فيه الدين والعلم .

والحضارة العربية قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة . ولكن ظهور العلم في أوروبا ، اتجه لروح من البحث جديدة ، واعدوا طرق البحث والاستقصاء بطريقة مستحدثة لطرق التجربة ، والمقاييس ، وتطور العلوم ، وهذه الروح ، وتلك المناهج أوصلها العرب للعالم الأوروبي ، فقد كان المسلمون أسبق من (نيوتن) في كشف قوانين الجاذبية .

وكان الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال أسبق من (ديكارت) .

وقد فطن قدامة بن جعفر إلى كروية الأرض ، وقصر النهار في القطبين .

وذهب ابن خلدون في مقدمته المشهورة ، التي تعد أول كتاب وضع في علم الاجتماع ، إلى إنتاج عوامل تقدم الدولة ، وتحضرها .

وتبحر ابن ماجة الأندلسي ٥٨١هـ في دراسة الفلسفة ، ونقد كثيراً من الآراء التي نادى بها الفلاسفة .

وألف ابن زاهر الأندلسي ٥٩٥هـ كتاب التيسير ، وهو أول كتاب في الطب يتناول صحة الجسم ، وقد ترجم إلى اللاتينية عام (١٢٨١م) عن ترجمة عبرية ، وغير ذلك كثير[١] .

فهل بعد ذلك يتعارض الإسلام مع العلم ؟! إن هذا إلا افتراء لوضع العثرات في طريق التقدم الإسلامي ، هذا وليس غريباً ، فالإسلام في صدره جيلاً عالي النفس ، صافي الطباع ، رقيق الجانب ، مبسوط الجناح ، راجح اليقين ، متمكن الإيمان ، سليم القلب ، متسع الصدر ، نقي الدواخل ، منطوي السريرة على أطهر ما يكون الإنسان من طهارة الخلق ، والعفة في مذاهب الفضيلة ، ومن حسن العصمة ، وشدة الأمانة ، وإقامة العدل ، والذلة للحق ، ما لا تخلقه الفلسفة كلها ، ولا التجارب جميعها ، ولا العلوم قاطبة .

فكان القرآن علم الاجتماع ، وفلسفة التربية ، وآداب السلوك ، يكمل الناقص ، ويقوّم المعوج ، ويصلح الفاسد ، ويهدي الضال ، فانفردت آداب القرآن الكريم في ذلك الجيل ، فكان الأصل الأول لأخلاق هذه الأمة (التقوى) .

وقد كانت سياسة القرآن مهما اختلف الناس في ألسنتهم ، تقود أرواحهم ، فقادهم من ألسنتهم ، فنزل منهم منزلة الفطرة ، فتكونت عندهم العقلية الكاملة ، التي كانت مفتاح الباب إلى مستقبلهم .فكان له تأثيره الخاص في العقل الإنساني ، كمعجزة للتاريخ العريق .

---

[١] – بتصرف من البحوث الأدبية مناهجها ومصادرها . د. محمد عبد المنعم خفاجة .

ولا يزال القرآن معجزة العلم كله على وجه الأرض ؛ فهو أصل النهضة ، وتهذيبها ، وتصفيتها ، وإطلاق العقل فيما تشاء أن يرتفع منها ، وأخذ ذلك بالبحث ، والنظر ، والاستدلال ، والاستنباط ، وتوفير مادة الرؤية عما كان سبباً في طلب العلم والعمل ، وهذا كله كان أساس التاريخ العلمي في أوروبا .

وقد اتسعت تلك الحقبة للعلماء في شتى المجالات ، وتفردوا في التفسير والحديث ، وقد فاق التفسير العد ، فقد ذكر الشعراني في كتابه (المنن) تفسيراً قال إنه في ألف مجلد . واعتنوا بضبط القرآن ، وعلوم كلماته ، واعتنى النحاة بالمعرب ، والمبني من أسمائه ، واعتنى المفسرون بألفاظه ، واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية ، والشواهد الأصلية ، والنظرية ، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه ، عمومه ، وخصوصه ، وتكلموا في الأخبار ، والظاهر ، والمجمل ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهي ، والناسخ والمنسوخ ، واهتمت طائفة في الحلال والحرام ، وقصص القرآن السالفة ، والحكم والمواعظ والأمثال ، والمواريث ، وإلى آياته الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، وغيره ، فاستخرجوا علم المواقيت .

والكشف في مبدأ انتشار العلوم النظرية ، فنظروا في القرآن وأخذوا مادة علمهم منه ، فجمعوا بين العلوم النظرية والقرآن بالاستشهاد والنظر، فجمعوا معنى من معاني التفقه في الدين والنظر في آثار الله ، مما يكون في الطبيعة ، من أصل العقول والبحث ، وأصل القلوب والتسليم ، وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن من الاختراعات المستحدثة ما يحقق بعض الفرائض في الطبيعة ، مثال : طريقة التصوير الشمسي ؛ بإمساك الظل استناداً للآية قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا "[١] .

---

[١] – سورة الفرقان الآية (٤٥) .

وكشفهم أن مادة الكون هي الأثير . وفي بدء الخلق قال تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ " [١] وفيها بدء الخلق . وتحققوا أن الأرض انقسمت عن النظام الشمسي ، والله يقول في ذلك : " إِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا " [٢] . وفي قوله تعالى " وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ " [٣] . أثبتوا منها أن لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض وهناك أشياء كثيرة لا يسع المجال لذكرها .

ولعل لكل متدبر للقرآن لو أحكم النظر فيه وكان يبحث ولا يحيد عن الطريق ولا يخونه فهم الأداة ولا يلتوي عليه الأمر ، أن يستخرج كنوز المعرفة من حقائق العلوم . وأن هذه العلوم ستدفع بآثارها في النفوس الإنسانية إلى غاية واحدة وهي كما قال الله تعالى : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " [٤] وإن الإسلام دين السيادة والحق ، وهو الدين الطبيعي ، والصالح للإنسانية جمعاء . ثم يكون العقل الإنساني آخر نبي في الأرض ؛ لأن الذي جاء بالقرآن كان آخر نبي من الناس ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض [٥] .

قد يقول جاهل : إذا كان الإسلام حقاً كذلك ، فلماذا نجد المسلمين اليوم في حال يؤسف له، من التخلف العمراني والصناعي والحضاري ؟!

وليس هذا قول جاهل فقط ، بل هو سؤال داخلي في كل سريرة شبابنا ، وإجابتهم نعم إنه ليس كذلك ، لذلك انساقوا وراء ما يعتقدون أنه حضارة ، عالم الغرب ، والمخترعات الميسرة لجميع سبل الحياة ، والابتكارات الفارهة التي تذهب بعقول السائحين ، في الأرض كالأنعام

---

[١] - سورة فصلت الآية (١١) .

[٢] - سورة الأنبياء الآية (٣٠) .

[٣] - سورة النحل الآية (١٥) .

[٤] - سورة آل عمران الآية (١١٠) .

[٥] - بتصرف من إعجاز القرآن بمجموعة مصطفى صادق الرافعي صفحات مختلفة دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٠ - ١٤١٠هـ .

فصرف الغرب نقطة ضعفهم فأخذ يخترع الموضة تلو الأخرى ، في جميع نواحي الحياة مما يدعو إلى ما يشغل الشباب عن أمور دينه ، المقيد للحريات كما يزعمون ، فيستنزف أموالهم حتى لا تخدم أمور دينهم ، ويبدد طاقتهم حتى لا يعدوا على المشقة في الجهاد ، ويرهق نفوسهم بوسائل الإعلام ، وأساطيرهم التي لا تنتهي . ويفرق جمعهم بالربا في أموالهم ، ويهدم كيان أسرتهم بتجارة النساء في أسواقهم ، ويقيدهم بتوفير كل ما يطلبون في متاجرهم ، حتى أصبح المسلم أداة لترويج بضائعهم ، واستثمار أموالهم ، ومركز لعرض أخلاقهم ،ومجونهم ، وانبهار بمخترعاتهم ، حتى تعلق الشرق بالغرب ، بل أصبح الشرق جزء من الغرب .

وبعد ذلك نقول بأن الجواب :

(أنه ليس حال المسلمين حجة على الإسلام ، بل الإسلام حجة على المسلمين ، دعاهم إلى الوحدة فتفرقوا ،ودعاهم الإسلام إلى العلم فتصدوا عنه ، ودعاهم إلى الحكم بالعدل فظلم بعضهم البعض ، ودعاهم لإعداد القوة فناموا وتكاسلوا ، ودعاهم إلى محاسبة نفوذ الكافرين فمالوا إلى مواطنتهم وموالاتهم ، ودعاهم إلى خلق كريم فمالوا إلى اللؤم والخسة ، ودعاهم إلى استثمار الأرض فتهاونوا . أما الآباء والأجداد الذين صدقوا في إيمانهم ، واستجابوا لبناء أسرهم ، فقد كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأسسوا أعظم حضارة عرفها التاريخ .

فتأخر المسلمين إذاً ليس إلا لسبب بعدهم عن تعاليم الإسلام والقرآن "[١] .

((والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) .

---

[١] – توحيد الخالق عبدالمجيد الزنداني ج٢ ص ٦٧ الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .

فهرس الآيات القرآنية :

البقرة :

هُدَىً لِلْمُتَقِينَ " الآية ٣ .....ص٣٣
ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ لآية ٣ ..... ص٣٦
ولله المشرق والمغرب فأينَمَا تُولوُا فثَمَّ وَجْهُ الله إنَ اللهَ واسعٌ عليمٌ الآية ١٥ ....ص١٧٧
فسواهن سبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِ شيءٍ عليمٌ الآية ٢٩ .....ص١٧٧
وإذ قالَ ربُكَ للملاَئِكةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خليفةً " الآية ٣٠ .....ص١٧٣
سبْحَانكَ لا عِلْمَ لنَا إلا مَا عَلمتَنا ... الآية ٣٢ .....ص١٧٣
وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ .الآية ٣٤ .....ص ٩٢
مُصَدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدَىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الآية ٩٧ .....ص ٣٣
ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ الآية ١٠٢ .....ص ٩٦
ومَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاَ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ ...الآية ١٤٢ .... ص٤٥
إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... الآية ٢٧٧ .....ص٤٤

آل عمران :

كُنْتُمْ خَيْرَ أمَةٍ أخْرِجَتْ لِلْنَاسِ ١١٠ .....ص١٩٦
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا... ١٦ –١٧ ..... ص٥٣
فَإن تَوَلَّوْا فإنمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بالعِبَادِ ٢٠ .....ص١٧١
إنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الْحَقَّ ٦٢ .....ص٦٥
وَأطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ... ٩٢ .....ص١٧١
أوَلَمَّا أصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ١٦٥ ..... ص ٢٣
ذلكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ ...١٧١.....ص٥٨
الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسِ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا ١٧٣ .....ص٥١

النساء :

وكلم الله موسى تكليما ١٦٤ .....ص٤٨-١١٤
إنا أوحينَا إلَيْكَ كما أوْحَيْنَا إلى نُوحٍ والنَّبِيِّين من بعده.. ١٢٦ .....ص٤٨

المائدة :

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِ وَالتَّقْوَى ٢ .....ص ٢٣
وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ٥ ....ص١٥١

يهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبلَ السَّلاَمِ ١٦ .. ..ص٥٠

الأنعام :

وَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُ وَلاَ نُكَذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٧ .....ص١٨٦
مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ.. ٣٨ .....ص٢٥
بل إياهُ تدعونَ فيكشفُ ما تدعُونَ إن شَاءَ وَتَنْسَونَ مَا تُشْرِكُونَ ٤١ .....ص١٣٥
وعندهُ مفَاتِحُ الغيبِ لا يعلمُها إلاَّ هوْ ٥٩ .....ص١٤٣
فَمَن أبْصرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْها وَ مَا أنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤ .....ص١٧١
وَنُقَلِبُ أفْئِدَتَهمْ وَأبْصَارِهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أوْلَ مَرَةٍ ١١٠ .....ص٣٩
فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ١٥٧ .....ص١٥٣
يومَ يأتِي بَعْضُ آياتِ ربكَ لا يَنفَعُ نَفساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ١٥٨ .. .ص١٨٢

الأعراف :

المص (١) كِتَابٌ أنْزِلَ إلَيْكَ (٢،١) ص٢٨
إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِن حَيْثُ لاتَرَوْنَهُمْ ٢٧.. .....ص ٩٣
إنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ٢٧ .....ص ٩٤
وإذَا صُرِفَتْ أبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أصْحَابِ النَّارِ.. ٤٧ ..... ص ١٨٦
اعبدوا اللهَ مَالَكُمْ مِن إلَهٍ غيرهْ ٥٩ .....ص٨١
وَإلى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحاً...ولَكِن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ٧٣-٧٩ .....ص١٠١
قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا..إنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ٧٦،٧٥ ....ص ١٠٣ -١٠٤
ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلِينَ ٧٧ .....ص ١٠٤
فَلا يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَومَ الخَاسِرُونَ ٩٩ .....ص٧٨
وقال يا مُوسَى إنِّي اصطَفَيْتُكَ علىَ النَاسِ بِرِسَالاتِي وبِكَلامِي ١٤٤ .....ص١١٤
قالَ عَذَابِي أصِيبُ بِهِ مَنْ أشَاءَ ..١٥٦ .....ص٤٦
لهم قُلوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ١٧٩... ..... ص١٠
ولَقَدْ ذَرَأنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ... ١٧٩ .....ص٤١
يسألونك عن الساعة أيان مرساها ١٨٧.....ص ١٥٩-١٦٣

الأنفال :

إنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهمْ...(٢-٣) ص٤٤
وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلوكَ ٣٠ .....ص٦٩
اللهم إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِن عِنْدِكَ .. ٣٢ ..... ص(١٢٠-١٢١)

لا غَالِبَ لَكُمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ٤٨ .....ص٩٤
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٦٠.....ص١٧٧

التوبة :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الْصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ١٨ ...ص٣٧
يُبَشِرُهُمْ رَبُهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٌ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ٢١ .....ص٣٣
أَيُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانَاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانَاً ١٢٤ .....ص٤٧
فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانَاً وَهُمْ يستَبْشِرُونَ ١٢٤ .....ص٣٣

هود:

ما من دابةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقُها ٦ .....ص١٤٧
يا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِن إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْض٦١ .....ص ١٠٢
إِنَّنَا لَفِي شَكٍ مِما تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ٦٢ .....ص ١٠٢
تَمَتَّعُوا في دَارِكُم ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وعدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٦٥ .....ص ١٠٣-١٠٦
فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ٨٢ .....ص١١٢
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ١٠٣ .....ص٣٩
وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (١٢٠) .....ص ٦٧-٦٨

يونس :

وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الْصُّدُورِ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٦١ .....ص٣٣

يوسف :

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ٣ .....ص٦٦-٦٧
قُلْ هذِهِ سبيلي أدعُوا إلى اللهِ علىَ بصيرةٍ ١٠٨ .....ص١٧٤
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ١١١ .....ص٦٦-٦٧

إبراهيم :

ألر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ١ .....ص٢٨
لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧ .....ص٧٨
قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ٢١ .....ص٥٢

الحجر :

والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومَ ٢٧ .....ص ٩٦
وأعبد ربك حتى يأتيكَ اليقينَ ٩٧-٩٩ .....ص١٤٥

النحل :

وألْقَىَ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ ١٥ .....ص١٩٦
ولقدْ بَعَثْنَا في كُلِ أمَةٍ رَسولاً أنْ اعبُدوا اللهَ واجْتَنبوا الطاغوت ٣٦ .....ص٨١
وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لِتُبَين لهم الذي اختَلَفُوا فيه ٦٤ .....ص ١٥٥
إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِهِمْ يَتَوَكَلُونَ ٩٩ .....ص٩٨

الإسراء :

لتعلموا عددَ السِّنِينَ والحِسابَ وَكُلَّ شيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ١٢ .....ص١٢٩
وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ١٣ .....ص١٨٥
وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِحُ بِحَمْدِهِ ٤٤... .....ص ٢٤
ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ٧٠.. .....ص ٢١

الكهف :

وعُرِضُوا عَلىَ رَبِكَ صفاً لقد جِئْتُمُونَا كمَا خَلقْنَاكُم٤٨ .....ص١٤٤
فارْتَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصَاً ٦٤ .....ص٦٥

مريم :

أرَاغِبٌ أنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبْرَاهِيمَ ٤٦ .....ص٦٩
واذكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى..أخَاهُ هَارُونَ نبياً ٥١- ٥٣ ... .ص ١١٣
فخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أضَاعُوا الصَّلاةَ ٥٩ .....ص٣٦
ويزيدُ اللهُ الَّذينَ اهتَدَوْا هدىً ٧٦ .....ص٤٨

طه :

ولتصنع عَلى عَيْنِي ٣٩ .....ص١١٤
وألقيتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ٣٩ .....ص١١٤
واصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي ٤١ .....ص١١٤
إنَّ في ذلِكَ لآيات لأولِي النهىَ ٥٤ .....ص١٣٥
قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى مَا جَاءَنا مِن البَيِّنَات ٧٢ .....ص١١٦
و إنِّي لَغَفارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ٨٢ .....ص٦١ -٤٧
وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ١٠٨ .....ص ١٨٥
ومن أعرض عن ذكري فإن لهُ معيشةً ضنكًا (١٢٤،١٢٥) .....ص ١٥٣
أفلم يهد لهم كم أهلكْنَا قَبْلَهُمْ ... (١٢٨) .....ص ٧

الأنبياء :

إنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كانتا رِتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ٣٠ .....ص١٩٦

وجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً ٣٢ .....ص١٢٨

ففهمناها سليمان .. ٧٩ .....ص٤٩

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ٨٠ .....ص٧٢

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ٨٢ .....ص٧٦ -٩٢

الحج :

وترى الأرضَ هامدةً ٥ .....ص١٣٣

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ إنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ١٠ .....ص٧٨

ومن يهن الله فمالهُ مِن مُكْرِم ١٨ .....ص١٥٣

وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإلْحَاد بِظُلْمٍ بِإلْحَاد نُذِقْهُ مِن عذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥ .....ص١٧٠

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ ٤٦ .....ص٢٦

إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي فِيهِ يختَلِفُونَ ٧٦ .....ص ٧١

ملة أبيكُمْ إبْرَاهِيم هُوَ سَمَّاكُمْ المُسْلِمِينَ ٧٨ .....ص ١١٩

المؤمنون:

قدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢-٤) ص٤٥

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * ...*وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٢-٤ .....ص٣٧

فإذَا نُفِخَ في الصُّورِ فَلا أنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَومَئِذٍ ولا يَتَسَاءَلُونَ ١٠ .....ص١٦٥

ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ... (١٢-١٤) .....ص ٣ -٤

أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأتِ آباءهُمُ الأولينَ ٦٨ .....ص١٥٤

وإنَّكَ لَتدعوهمْ إلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ ٧٣ .....ص٥٠

بل قالوا مثل ما قال الأولون ٨١،٨٢ .....ص١٤٥

الفرقان :

وقال الرسولُ يارب إن قومي اتَّخَذُوا هذا القُرْآنَ مهْجُوراً ٣٠ .....ص١٥٢

أَلَمْ تَرَ إلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ٤٥ .....ص١٩٦

وهو الذي مرجَ البَحْرَينِ يَلْتَقِيانِ بَيْنهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ٥٣ ...ص١٣٥ -١٣٤

إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ٧٠ .....ص ٦٢

الشعراء :

إنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وإنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وإنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ " ٥٤ .....ص٦٩

فكُبْكِبُوا فِيهَا هُم والغَاوُونَ ٩٤ .....ص١٦٩
وتنحتون مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ١٤٩ .....ص١٢٢
لها شِرْبٌ ولكمْ شِرْبُ يومٍ مَعْلومٍ ١٥٥ .....ص ١٠٣
أتأتون الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ (١٦٥،١٦٦).....ص١٠٨

النمل :

طس تِلْكَ آياتُ القُرْءَانِ (١-٦) .....ص ٣١
وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ١١ .....ص٦٢
ثُمْ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١ .....ص٦١
فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَـاتِنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سَحِرٌ (١٣-١٤) ص٦٣
إذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً (١٤) .....ص٥٣،٥٤
رَبِّ أَوْزِعْنِي أن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ١٧ .....ص٧٥
حتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ١٨... .....ص٢٢-٧٧
وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْصَّالِحِينَ ١٩ .....ص ٧٧
وَتَفَقَّدَ الْطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ ٢٠ .....ص٧٨
قَالتْ إِنَّ المُلوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ٢٤ .....ص٨٣
لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ... ٢٦ .....ص ٧٩
قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ (٢٧،٢٨) .....ص ٨٢
قَالتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي (٣٢،٣٣) .....ص ٨٣
إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ٣٥ .....ص ٨٤
وَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ٣٦ .....ص ٨٤
أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ وإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩ .....ص ٩٣
يا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا (٣٨ – ٤٠) .....ص ٨٥
قالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا (٤١- ٤٤) .....ص ٨٦ ، ٨٧
قَالوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ٤٩ .....ص ٦٩
صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ٨٨ ..... ص ٢٢
أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ٨ .....ص ٥٩
وَلَقَدْ أَرْسلنا إِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً (٤٥-٤٧) .....ص ١٠٣
وكان فِي المَدِينةُ تِسعةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ ٤٩ .....ص ١٠٤
ومكروا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهم لا يَشْعُرُونَ (٥٠،٥١).....ص ١٠٥

ولوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أتأتُونَ الفَاحِشَةَ...(٥٤-٥٨) .....ص(١٠٧،١٠٨)
فما كان جَوابَ قَوْمِهِ إلاّ أن قَالوُا أخْرِجُوا آل لُوطٍ ٥٦ .....ص ١٠٨
فأنجيناه وأهْلَهُ إلاّ امْرَأتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِن الغَابِرِينَ ٥٧ .....ص ١٠٩
وأمطرنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ ٥٨ .....ص١٠٩
قلِ الحمد لله ...أإلهٌ مع الله بلْ هم قومٌ يعدِلونَ (٥٩،٦٠) ص١٢٧
أمَّنْ جعلَ الأرضَ قراراً..تعالى اللهُ عما يُشْرِكونَ (٦١-٦٣) ص١٣٣
قُلِ الحَمْدُ لله وسَلامٌ...هَاتُوا بُرْهانَكُم إن كُنتمْ صَادِقينَ (٥٩-٦٤) ص١٣٧
.. قل لا يعلمُ من في السماواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ (٦٥،٦٦) ص١٤٣
أئِذَا كُنَّا تُراباً وآباؤُنَا أئِنا لَمُخْرَجُونَ (٦٧،٦٨) ص١٨٤
وقال الذين كَفَرُوا أإذا كُنَّا تُراباً (٦٧-٧٠) ص١٤٥
ويقولونَ متَى هذا الوعدُ ...إلا في كتابٍ مبينٍ (٧١-٧٥).....ص ١٤٦ -١٤٥
إن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون(٧٤،٧٥).....ص١٤٨
إنَّ هَذَا القُرْآن يقُصُ (٧٦-٨١) ص١٤٩
وإذَا وقَعَ القَولُ عَلَيهِمْ (٨٢-٨٦) .....ص ١٥٩
وَيُوم يُنْفَخُ في الصُّورِ(٨٧-٩٠)..... ص ١٦٥-١٦٦
وترى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا تَمُرُّ مرَّ السَّحاب صنعَ اللهِ ٨٨ .....ص١٦٨
مَن جاء بالحسنة فله خير منها (٨٩،٩٠).....ص ١٦٩
إنَّمَا أمِرْتُ أن أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة (٩١-٩٣).....ص١٧٠

القصص :

نتلو عليكَ مِن نَبَأ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ٣ .....ص١١٦-١٧١
وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ١٠ .....ص٦٥
رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَا غْفِرْ لي فَغَفَرَ لَهُ ١٦ .....ص٦١
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ..(٢٩-٣٢) .....ص ٥٥
وأخي هارونُ هُوَ أفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً٣٤ .....ص١١٤
سنشد عَضدكَ بأخِيكَ ونَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً٣٤ .....ص ١١٤
إنَكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ٥٦ .....ص٣٤
قلْ أرَأيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ اللَّيلَ سَرْمَداً(٧١،٧٢) .....ص ١٦٤

العنكبوت :

وعاداً وثمودَ وَقَد تَّبيَّنَ لكم من (٣٨) ..... ص ٧

وما يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُونَ ٤٣ .....ص١٣٦
وما يَجْحَدُ بِآياتِنَا إلاَّ الظَّالِمُونَ٤٩ .....ص١٣٦

لقمان :

إن تك مثقالَ حبةٍ ١٦ .....ص ١٦٨
إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلمُ السَّاعَةِ ٣٤ .....ص١٥٩
إنَّ اللهَ عِنْدهُ عِلمُ الساعة ..اللهَ عَلِيمٌ خبير٣٤ .....ص١٤٣ —١٤٤

السجدة :

إنَّمَا يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ١٥ .....ص٣٦-٤٤

الأحزاب :

مَا زَادَهُمْ إلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢ .....ص٤٧

سبأ :

وَمَنْ يَزُغْ مِنْهُمْ عَنْ أمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرُ ١٢ .....ص٧٦-٩٤
فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتُ ١٤ .....ص٢٥
فلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الجِنُّ أن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ١٤ .....ص ٩٥

فاطر :

إنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِه العُلَمَاءْ ٢٨ .....ص١٩٢
إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُواً فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ٦ .....ص ٩٨

الصافات :

سبحانَ ربِكَ ربِ العِزَةِ عما يصِفُونَ (١٨٠-١٨٢) ص١٢٧

ص :

كتاب أنزَلنَاهُ إليكَ مُبَارَكاً ٢٩ .....ص١٥٣
هذا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أو أمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٩ .....ص٧٦

الزمر :

هل يَسْتَوُي الَّذينَ يعْلَمُونَ والَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ٩ .....ص١٩٢
أفمن شرح اللهُ صدرهُ للإسلامِ فهوَ علىَ نورٍ منْ ربهِ ٢٢ .....ص١٣٤
لوْ أنَ لِيَ كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ ٥٨ .....ص١٦٣
ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض ٦٨ .....ص١٦٦
ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ٦٨ .....ص١٦٦-١٦٥

غافر :

وقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادْ ٨٣ .....ص٥٢

فصلت :

ثُمَّ اسْتَوَىَ إِلَىَ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٍ ١١ .....ص١٩٦

فقضاهن سَبْعَ سَمَاوات ١٢ .....ص١٢٩

ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمنْ دَعَا إِلَىَ اللهِ وَعَمِلَ صَالِحا ٣٣ .....ص٥٢

سَنُرِيكُمْ آيَاتِهِ فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهمْ أنهُ الحَقّ ٥٣ .....ص١٧٢

الشورى :

وتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِ ٤٥ .....ص ١٨٦

الزخرف :

منْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً ٣٦ .....ص٣٩

الأحقاف :

وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ٢٩ .....ص ٩٤

فاصبر كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ٣٥ .....ص١١٣

محمد :

الَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتاهُمْ تَقْوَاهُمْ ١٧ .....ص٤٧

هل يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ١٨ .....ص١٦٣

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالُها ٢٤ .....ص١٥٣

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا٥٤ .....ص٣٤

الفتح :

لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ٢ .....ص ٢٦

..لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً٤. .....ص٢١

يقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ١١ .....ص٤٣

الحجرات :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا١٥ .....ص٤٤

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ ١٧ .....ص٤١

ق :

أفلم ينْظُروا إِلَىَ السَّماءِ فَوقَهم كيفَ بَنَيْناهَا وزيناهَا وَمَا لها مِنْ فُرُوجْ ٦ .....ص١٢٨

الذاريات :

ومَا خَلَقْتُ الجنَ والإنسَ إلا ليعْبُدونِ ٥٦ .....ص١٧٦

القمر :

ولقد يسرنَا القُرآن للذِّكْرِ فهلْ من مُدَكِرْ ١٥ .....ص١٥٤

إنا مُرْسِلُو النَّاقةِ فِتْنَةً لَهُمْ ٢٧ .....ص ١٠٤

الرحمن :

وخَلَقَ الجآنَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ١٥ .....ص٩٣

الواقعة :

أفرأيتم ما تحرثون (٦٤،٦٥) ص١٣٠

المجادلة :

يرفَعْ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ١١ ..... ص١٩٢

الحشر :

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ٢١ .....ص ١٥٠

المعارج :

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعَاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ٤٣ .....ص ١٦٨

نوح:

ألم تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاواتٍ طِبَاقاً (١٥-١٧) .....ص ١٢٩

الجن :

وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقَاً ٦ .....ص٩٧

عالم الغيبِ فلا يُظهِرُ علىَ غيبِهِ أحداً ٢٦ .....ص١٤٣

المدثر :

فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ ٨ .....ص١٦٥

المرسلات :

ذلك اليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل (١٢-١٤).....ص١٨٥

النبأ :

ألم نجعل الأرض مهاداً (٦،٧) .....ص ١٣٤

وبَنَيْنَا فَوْقَكمْ سَبْعاً شِدَاداً ١٢ .....ص١٢٨

النازعات :

يوم ترجف الراجفةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧،٦) .....ص ١٦٥

أأنتم أشَدُّ خَلقاً أمِ السَّماءَ بَناهَا رَفعَ سَمْكَهَا فسوَّاهَا ٢٧ .....ص١٢٨

والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠-٣٢) ص١٣٤

التكوير :

فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ (١٦،١٥) ص١٢٨

الشمس :

والسَّماءِ ومَا بَنَاهَا ٥ .....ص ١٢٩

ونفْسٍ وَمَا سَوّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨،٧) ص٤٩

البروج:

والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ ١ .....ص١٢٩

الماعون :

فوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ (٥،٤) ص٣٦

قريش :

فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هَذا البَيْت ٣ .....ص ١٧٠

فهرس الأحاديث النبوية :

آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ٢٣

ابشروا وبشرو..... ٢٢

أحب الأعمال إلى الله ٢٢

اللهم أعني ولا تعن عليَّ ٦٠

الناس يصعقون يوم القيامة.. ..... ٩٥

أن العلماء ورثة الأنبياء..... ٥٦

أن الله لا ينام ولا ينبغي له ٤١

أن أول الآيات طلوع الشمس ١٦١

أن في المدينة نفر من الجن..... ٧٥

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل ١٢٥

أن هذا البلد حرمه الله ١٧

أول ما يحاسب به العبد ١٨

إن الدجال خارج ١٦٢

إنها لن تقوم حتى ١٦٣

انتدب الله لمن خرج في سبيله ٣٤

بين الرجل وبين الشرك والكفر ١٨

تخرج الدابة ١٤٣

ثلاث إذا خرجت لم ينفع نفسا إيمانها ١٦١

ثم تدنو الشمس ١٦٤

ثم نفخ في الصور ١٤٧
ثلاث من كن فيه ٣٤
حتى لو دخلوا جحر ضب ١٥٨
خرج نبيا من الأنبياء ٦
خرج نبيا من الأنبياء ٧
خمس من جاء بهن ١٩
ستكون فتن كقطع الليل ١٣١
سددوا وقاربوا ٥٩
صنف له أجنحة يطيرون ٧٦
عرضت علي الأمم ٩٦
فأكون أول من رفع رأسه ١٤٨
فيدعوهم فيؤمنون به ١٦٢
كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ من علم لا ينفع ١٧١
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي نحو بيت المقدس ٢٧
لم يبق من النبوة إلا المبشرات ٣١
لقد كان فيمن كان قبلكم ٣٠
الإيمان ٢٣
الإيمان ٢٣
لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ١٤٢
ملعون من سب أباه ٩٢

من قال لا إله إ لا الله ٦٣
من مات لا يشرك بالله ٦٣
من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ٦٣
ما من مسلم يتوضأ ٢
من جعل الهموم هماً واحداً ٨
من قرأ حرفاً من كتاب الله ٩
مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ٢٧
نزل نبي من الأنبياء ٦
نهى عن كسر سكة المسلمين ٨٦
هذه روايا الأرض ١٠٩
وبعد نزول عيسى ١٦٣
وأنا أولاهم بعيسى بن مريم ١٦٢
و لا تقوم الساعة ١٤١

فهرس الأعلام:

زيد بن أسلم ---------- ٩
سفيان الثوري ---------- ٩
مجاهد بن جبير ---------- ٩
قتادة بن دعامة ---------- ٩
الأشعري ---------- ٢٤
مالك ---------- ٢٤
الشافعي ---------- ٢٤
أحمد ---------- ٢٤
الأوزاعي ---------- ٢٤
اسحق بن راهويه ---------- ٢٤

المراجع والمصادر :

كتب التفسير :

١ - القرآن الكريم .

٢ - بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية ، جمع وترتيب / يسري محمد السيد ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية

٣ - البحر المحيط في التفسير/محمد الغرناطي ، مراجعة / صدقي جميل ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ، اختصره / محمد نسيب الرفاعي ١٤١٠هـ مكتبة المعارف - الرياض.

٤ - تفسير أبي السعود- دار إحياء التراث العربي-بيروت.

٥ - تفسير القرآن العظيم ابن كثير، خرج أحاديثه / مقبل الوادعي الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض.

٦- التسهيل لتأويل التنزيل / مصطفى العدوي ، دار القاسم للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ

٧ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي

٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ ابن جرير الطبري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٤١٥هـ ضبط وتوثيق الآثار / صدقي العطار .

٩ - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٠ - جامع البيان في تأويل القرآن ١٤١٥ هـ للطبري - دار الفكر - بيروت .

١١- الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي- دار الكتب العلمية - الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ.

١٢- الجامع الأحكام القرآن/ القرطبي ١٤١٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

١٣ - في ظلال القران/ سيد قطب، دار الشروق - بيروت، الطبعة الشرعية (٢١) ١٤١٤هـ.

١٤ - فتح القدير للشوكاني .

١٥ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - أبي القاسم الخوارزمي دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .

١٦ - معالم التنزيل /محمد بن مسعود ، إعداد وتحقيق/ خالد العك ، مروان سوار ، دار المعرفة _ بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

كتب الحديث :

١ - الصحيح المسند من فضائل الصحابة/ مصطفى العدوي - توزيع مكتبة الكوثر - الرياض - دار الهجرة - اليمن- الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .

٢ - السيرة النبوية الصحيحة / أكرم العمري ، مكتبة العلوم والحكمة - المدينة النبوية ، الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ .

٣ - ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزيادته / (السيوطي ، النبهاني ، الألباني) رتبه وبوبه/عوني الشريف ، شرح غريب ألفاظه / علي حسن عبد الحميد - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ مكتبة المعارف - الرياض .

٤ - كتيب / خطبة الحاجة / الألباني ، المكتب الإسلامي بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ .

٥ - صحيح سنن النسائي - تحقيق ناصر الألباني- الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١٩هـ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

٦ - صحيح سنن أبي داود- تحقيق ناصر الألباني - اختصره/ زهير الشاويش ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - المكتب الإسلامي للنشر - بيروت ٠

٧ - صحيح سنن الترمذي - تحقيق ناصر الألباني - أشرف على طباعته /زهير الشاويش ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - المكتب الإسلامي للنشر - بيروت ٠

٨ - صحيح مسلم بشرح النووي - الطبعة الأولى١٤١٢ هـ - مؤسسة قرطبة ٠

٩ - صحيح سنن ابن ماجة - تحقيق ناصر الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع بالرياض- الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١٧هـ ٠

١٠ - صحيح الجامع الصغير وزيادته - تحقيق ناصر الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ٠

صحيح الترغيب والترهيب للمنذري / تحقيق الألباني ، الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ مكتبة المعارف - الرياض ٠

١١ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته / ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، زهير الشاويش ٠

١٢ - مختصر صحيح مسلم للمنذري ، تحقيق / الألباني المكتبة الإسلامية - عمان ، دار ابن عفان - الخبر ، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١١هـ

مجموعة كتب مختلفة :

١ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى الرافعي ، دار الكتاب العربي بيروت١٤١٠هـ٠

٢ - إعجاز القرآن للباقلاني ٠

٣ - تهذيب مدراج السالكين / ابن قيم الجوزية ، هذبه / عبد المنعم العربي المكتبة العلمية ٠

٤ - الحكمة / د٠ ناصر بن سليمان العمر ، دار الوطن للنشر ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ

٥ – الدليل المفهرس الألفاظ القرآن الكريم /محمد هويدي ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – دار البلاغة – بيروت ٠

٦ – غذاء الألباب شرح منظومة الآداب/ محمد الحنبلي ، مؤسسة قرطبة ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ٠

٧ – في ظلال الإيمان / صلاح عبد الفتاح الخالدي ، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٠

٨ – فوائد الفوائد/ ابن قيم الجوزية ، علق علية/علي عبد الحميد ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ٠

٩ – قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل / عبد الرحمن الميداني ، دار القلم دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ٠

١٠– مباحث في علوم القرآن / مناع القطان ، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١٣هـ – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض٠

١١ – مفتاح دار السعادة / ابن قيم الجوزية ، قدم له ، وضبط نصه ، وعلق عليه ، وخرج أحاديثه / علي حسن عبد الحميد ، راجعة / بكر أبو زيد ، دار عفان في الخبر– الطبعة الأولى ١٤١٦هـ

١٢– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم /محمد فؤاد عبد الباقي– دار الحديث القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ٠

١٣ – مختار الصحاح /الرازي ، ١٩٩٦هـ ، مكتبة لبنان ٠

١٤ – مجموع الفتاوى لابن تيمية ٠

١٥- نظرات في أحسن القصص/محمد الوكيل ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - الدار الشامية بيروت ، دار القلم دمشق.

١٦ - نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء /شمس الدين الذهبي ، تهذيب / محمد حسن عقيل ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- دار الأندلس - جدة.

١٧ - نواقض الإيمان القولية والعملية / د. عبد العزيز آل عبد اللطيف .

١٨ - كتيب / ولا تقربوا الفواحش / جمال عبد الرحمن إسماعيل ، دار المحراب للنشر والتوزيع ١٤١٧ هـ .

شريط : أفمن كان على بينة من ربه / صالح آل الشيخ .

شريط : النملة / ناصر العمر .

أشرطة قصص الأنبياء / د. طارق السويدان .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	
المعجزة والإعجاز	
المقدمة	
أهمية البحث	
أسباب اختيار الموضوع	
أهداف البحث	
منهج البحث	
خطة البحث	
الباب الأول : الإعجاز إيمان وعلم	
الفصل الأول : بيان حال المؤمنين.	
المبحث الأول : الحكمة من تسمية السورة بسورة النمل.	٣
المبحث الثاني : ذكر الحروف المقطعة في أوائل السور.	٩
المبحث الثالث : الإيمان قول وعمل.	١٣
معالجة الآيات لقضية الإيمان.	٢٢
مراتب الهداية.	٣٠
أنواع الهداية في القرآن.	٣٢
الفصل الثاني : القصص في القرآن الكريم.	
المبحث الأول : أنواع القصص والحكمة من ذكرها.	٤٧

عرض القرآن القصص في نماذج	٤٨
منافع القصص في القرآن الكريم	٤٨
المبحث الثاني : علم سليمان وجندية الإنس والجن له.	٥٣
من مواقف الحكمة في قصة سليمان عليه السلام .	٧١
المبحث الثالث : هل التعامل مع الجن اختص به سليمان أم سائر البشر؟	٧٤
الفصل الثالث : العبر والعظات من ذكر قصص الأنبياء .	
المبحث الأول : قصة صالح عليه السلام والعبرة فيها .	٨٢
المبحث الثاني : قصة لوط عليه السلام.	٨٨
عظم ذنب قوم لوط عليه السلام وأن العقاب من جنس العمل .	٩١
أوصاف من يفعلون هذه الفاحشة .	٩١
عذاب قوم لوط وعقوبتهم .	٩٢
المبحث الثالث : قصة موسى وأسباب تكرارها في القرآن.	٩٤
من أهم أسباب تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن	٩٨
: مناسبة القصص المذكورة في السورة ببعضها .	١٠٠

الباب الثاني : الآيات الكونية،وعلاقتها بالإيمان.	
الفصل الأول : مقارعة القرآن المشركين بالحجة.	
المبحث الأول : خلق السماوات والأرض وزينتها .	١٠٨
المبحث الثاني : روعة الأسلوب و الأداء البياني في ربط الآيات بخواتيمها .	١١٧
الفصل الثاني : الإنسان أمام التحديات.	
المبحث الأول : خطاب الله وتوجيهه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.	١٢٤
المبحث الثاني : القرآن هدى ورحمة.	١٣٠
تدبر القرآن .	١٣٣
الباب الثالث : مقاصد الشريعة في سورة النمل.	
الفصل الأول : الإيمان بالغيبيات.	
المبحث الأول : أ- خروج الدابة.	١٤٠
ب - النفخ في الصور .	١٤٦
المبحث الثاني: أ خلافة الله للإنسان في الأرض.	١٥٤
المبحث الثاني : ب- الترغيب والترهيب من وسائل الدعوة.	١٥٩
قصيدة ذكر أحوال وأهوال القيامة .	١٦٨
الخاتمة.	١٧٠

فهرس الآيات القرآنية .	١٧٨
فهرس الأحاديث النبوية .	١٨٩
فهرس الأعلام .	١٩٢
المراجع والمصادر .	١٩٣
فهرس الموضوعات .	١٩٧

جامعة القرآن الكريم
والعلوم الإسلامية
كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
المكتبة
رقم القيد : ٤٢٦